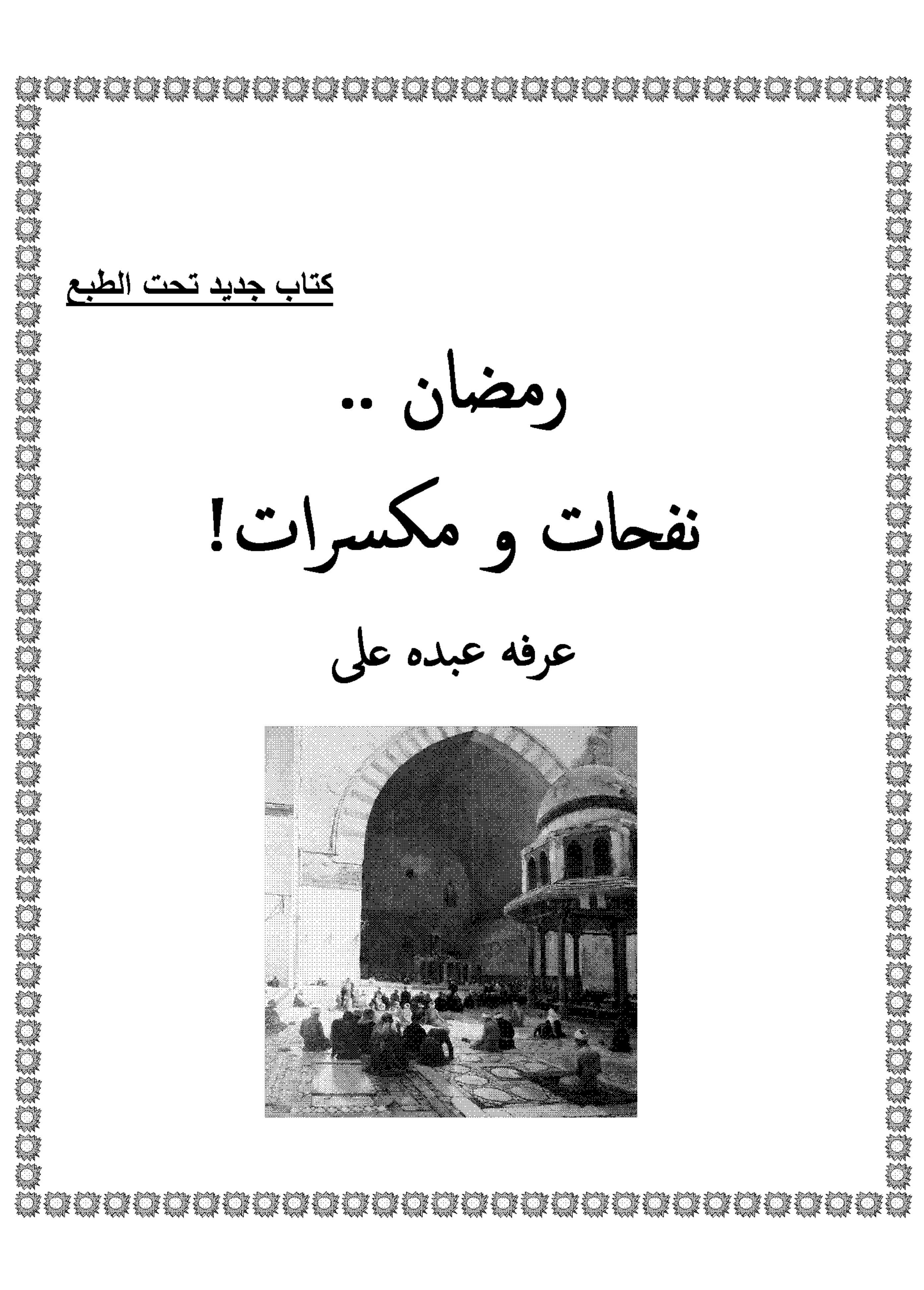


<u>**كتاب جديد تحت الطبع**</u>

رمضان ..

نفحات و مكسرات!

عرفه عبده على

اصحى يا نايم   وحد الدايم

وقول نويـــــت   بكره ان حييت

الشـهر صايم   والفجر قايم

اصحى يا نايم   وحد الرزاق

المشـي طاب لي   والدق على طبلي

ناس كانوا قبلي   قالوا في الامثال

"الرجل تدب مطرح ماتحب"

وانا صنعتي مسـحراتي ف البلد جوال

حبيت ودبيت كما العاشـق ليالي طوال

وكل شـبر و حته من بلدي

حته من كبدي .. حته من موال

السـعي للصوم   خير من النوم

دي ليالي سـمحه   نجومها سـبحه

اصحى يانايم

يانايم اصحى

وحد الرزاق

الفهرس

تقديم

رمضان .. شهر القرآن .. شهر الجهاد والانتصارات والفتوحات ، ضيف عزيز كنا نستقبله من السنة للسنة بمواكب ليلة الرؤية .. مواكب الدراويش وأرباب الحرف ، بالأغانى وحلقات الذكر والفرحة الملونة .. بالكنافة والقطايف والياميش وقمر الدين ، وبطبلة مسحراتى ماشى فى الحوارى والشوارع العتيقة ، بصوت الشيخ محمد رفعت وطلقة المدفع وقت الآذان .. بالمآذن المتألقة ، بحلقات الذكر ، وصلاة التراويح ، والسهرات الجميلة .. بليالى سمحة ... نجومها سبحه .. بليالى ألف ليلة وليلة ... و فرحة قلب يتنقل من نور لنور ... وتراث عريق يؤرخ لوجدان شعب : روحه من روح رمضان ، ولكل هذا ـ أو بعضه ـ سيظل لهذا الشهر الجميل فى بلادنا "خصوصية مصرية" .. وسيظل رمضان ... مصرياً ... حتة من بلدى ... و حتة من موال !

مع النبي - صلي الله عليه وسلم - في رمضان

شهـــر رمضان .. ملتقــي العبادات ومجمع الخيـــرات وأجل مواسـم الصائمين والمتعبـدين ، شــــاءت إرادة الله تبــارك وتعالــي أن تتصـل فيـه السـمـــاء بـالأرض فيشـرق الاسـلام نـوراً ، وتضـع السـمـــاء لـلأرض دسـتوراً لا يأتيه البـــاطل من بين يديه ولا من خلفــه تنزيل من حكيم حميد .. انه القـرآن الكـريم الـذي نـزل للنـــاس هدي وبينات من الهدي والفرقان .

والصوم فريضة لها قدر كبيــر من الفرائض ، ذلـك أنهـــا العبـادة المفـردة التـــي يتـرك فيهـا الصـائم حظوظ نفسـه وشـهواتها الكثيرة التــي جلبت عليها ، ولا يتحقـق ذلـك فـي عبـــادة أخـري . فالصـــلاة نتـرك فيهـــا الشـهــوات ولكن مدتهـــا لا تطول والاحرام يترك فيه الجمـاع و دواعيـه دون الأكـل والشــرب ، وكـذلك الاعتكاف . ومن أجل هذا كان الصيام هو الذي يثمر التقوي الدائمة قـال تعـالي " يـا أيهـا الـذين آمنـــوا كتـب عليكم الصيـــام كمـا كتب علـــي الذين مـــن قبلكم لعلكــم تتقـــون " (البقرة ١٨٣) وأضـافة الله إليـه كمـا جاء في الحديث القدسـي يقول الله عز وجل: " كل عمـل أبن آدم له إلا الصيـــام فأنـه لـــي وأنـا أجـــزي به " (أحمد ومسلـــم والنسائي) ، وجعلت المغفرة ثوابـه الكـريم . فعـن أبـي هريـرة رضـي الله عنـه قـال: قال رسـول الله عليه وسـلم : " من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له مـــا تقدم مـن ذنبـه وفـي روايـة ومـا تأخر " (النسـائي) .

الصـــوم الـذي شـــرعه الله داعيـة السـمـــو بـالنفس الـــي مسـتـــوي علـــوي ، والسـمو بـالحس الـــي مستوي إنسـاني .. والسـمو بـالطبع الـي مسـتوي خلقـي .. وسـمو الـنفس قضاء علـــي ضعفهـــا وتكميل لهـــا فتطيع الله ، وسـمو الطبـع قضـاء علـــي غرائـز السـوء فيهـــا فـلا تعصـــي الله ، وسـمو الحـس قضـاء علـــي جحودها لأنعمه فتـنعم رحمتـه عبـاد الله . والصـائم الـذي يصـل بصـومه الـي هـذا المسـتوي الروحي الرفيع وهو في أسـر الجسد هو الذي يفهم حكمه الصوم و سر مشروعيته .

الصوم الحقيقــي يأخذ بمجــامع النفس الإنسانية ويضعهــا فــي مناط الطـــاعة الواجبـة لله ويصـل بها الي ذروة القرب من مقامه الكريم وجلاله العظيم ، ولا يتم القرب من الله بتـرك هـذه الشـهوات المباحـة إلا بعد التقرب إليه بترك مـا حـرم فـــي كـل حـال مـن الظلـم والعـدوان علـي النـاس فـي دمـائهم وأمـوالهم وأعراضهم ..

النبي في رمضان بالمدينة المنورة :-

عندما هاجر محمد ـ صلـــي الله عليه وسلـم ـ الـي المدينة المنورة ، عمـل علـي تنظيـم الحيــــاة العامة للمسلمين فـي المدينة ، تحقيقـا للوحـدة بينهـم ، فآخـــي بـين المهـاجرين والانصـار علـي الحـق والمسـاوة .. وفــي السـنة الثانية من الهجرة وفي شــهر شـعبان علــي الأرجـح ، فـرض الله تبـارك وتعالـــي صوم شـهر رمضان علي المسلمين ، وكان ذلك قبل غزوة بدر .

وكان أول ما قـام به ـ صلــي الله عليه وسلـم ـ هو تشييد مسـجده النبـوي ، علـــي الأرض التـــي بركت فيهــا ناقته ، وشارك الصحابة فـي بناء المسجد .. ويروي عنه أنه حين قـدم الـي المدينـة المنـــورة كان يصـوم من كل شـهــر ثلاثة أيــام ، واختلف المفســـرون حول هذا الأمـــــر اسـتناداً الـــي قـول الله عـز وجل " أيامـا معدودات " كمــا يرون أن صيام هذه الأيام كان تطوعاً ولـم يكـن فريضـة ، وينفـر الامـام " محمـد عبده " أن يكون قد فرض علــي المسلمين صيام قبل فرض صيام رمضان.

وقد أقبل المسـلمـون جميعــاً علــي أداء فريضـة الصـوم فـــي خشـوع وحمـــاس إيمـاني، باعتبـاره شـكر يتوجهون به لمانح النعم ، وما فـي هـذا الاختبـار الـديني مـن احيـاء لـلأرواح ولأجـل أن يعبـر المؤمنـون الصحــراوات الرهيبة التــي تحيط بهم لنشـــر الاسلام فــي أرجاء العالــم ، وتدريباً هيناً لمـــا سـيلاقونه مـن الشرائر فــي فتوحاتهم .

وأبرز الرسول الكريم عليه الصلاة والســـلام فضائل شـهــر رمضـــان فقـال :

" أتاكم رمضـــان شـهـر بركة يغشـــاكم الله فيه فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويسـتجيب الدعـــاء ، وينظـر فيه الـــي تنافسكم فــي الخير ، ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسـكم خيـــراً ، فإن الشـقـــي مـن

حـــــرم من رحمة الله عز وجل " وهناك أحاديث كثيرة لرسولنا الكريم يشيد فيها بفضائل رمضان ، منهـا مـا رواه الإمامـان البخـاري ومسـلم عـن أبـــي هريـرة رضـــي الله عنـه : " إذ حضـر رمضـان فتحـت أبـواب الجنـة وأغلقت أبواب النـــار وصفدت الشياطين " وقوله صلــي الله عليـه وسـلم : " أن الله فـــرض صـيام رمضـــان وسننت لكم قيــامه ، فمن صــامه وقامه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

وكان رسول الله صلــي الله عليه وسلم يستقبل رمضــان بخطاب ودعـــاء أمـا الدعـــاء فإنـه كـان إذا رأي الهـــلال قـال : " اللهــم أهله علينــا بـالأمن والإيمـــان والسـلامة والإسـلام ، ربـي وربـك الله ، هـــلال رشد وخير " (الترمزي عن طلحة بن عبيد الله) ، وأما الخطاب فقد روي عن سلمان رضي الله عنـه قـال : " خطبنا رسول الله صلي الله عليه وسلم في آخر يوم من شـعبان قـال : " يـا أيهـا النـاس : قـد أظلكـم شـهر عظيم مبـــارك ، شـهــر فيه ليلة خير من ألف شهـــر ، شـهر جعـل الله صـيامه فريضـة وقيـــام ليلـة تطوعـا ، مـــن تطوع فيه بخصلة مـن الخير كان كمن أدي فريضة فيما سـواه ، ومـن أدي فريضـة فيـه كـان كمـن أدي سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر، والصبر ثوابـه الجنـة ، وشـهـــر المواسـاة ، وشـهر يـزاد فيـه فـي رزق المؤمن .. الحديث " رواه ابن خزيمة عن طريق البيهقي .

وكان عليه السلام يحيـــي رمضـان ويخصه بـأنواع مـــن العبـــادات وألـوان مـن المجاهـدات كالصـيام والقيـــام والجود وتلاوة القرآن والاعتكاف والجهـــاد ، وذلك يـدعو المـؤمن الـي حسـن التأسـي بـه والاهتـداء بهديه ، فإذا كان يجاهد نفسه بصيام النهار فليجمع الـــي ذلـك مجاهدتـه ، بقيـام الليـل وحسـبه أجـرا قـول النبي صلــي الله عليه وسـلم " مـــن قـام رمضــــان إيمانـا واحتســـابا غفـــر لـه مـــا تقـدم مـن ذنبـه " (الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه) .

ومن هديه كذلك تعجيل الفطــر وتـأخير السـحور . فعـن سـهل بـن سـعد أن رسـول الله صلـــي الله عليه وسلم قال : " لا يزال الناس بخير مـا عجلوا الفطـر " (متفـق عليـه) وعـن زيـد بـن ثابـت رضـــي الله عنه قال : " تسحـــرنا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ثم قمنا الـي الصلاة ـ أي صلاة الفجـر ـ قيـل كـم كان بينهما قال قدر خمسين آية " (متفق عليه) . (وكان رسول الله صلـــي الله عليه وسلم يفطـر قبـل أن يصلي المغرب علـــي رطبات فأن لم تكن رطبات فتمرات فأن لـم تكـن تمـرات حسـا حسـوات مـن المـاء) ..

الترمذي وحسنه ، وكان يقول إذا أفطــر : " بسـم الله اللهم لك صمت وعلي رزقك أفطـرت " الطبرانـي وأبـو داوود .

وكان مـن هديه عليه الســلام إذا صلــي قيام رمضـــان مـع أصحابه أن يطيـل القـراءة فيـه ، وقـد صلــي حذيفة رضــي الله عنه معه ليلة قــال فقرأ البقــرة ثـم آل عمـران ثـم النسـاء لا يمـر بآيـة تخويـف إلا وقف وسأل ، فما صلــي الركعتين حتي جاء بلال فآذنه بصلاة الفجر . وقد روي الشـيخان أن النبـــي صـلي الله عليه وسلم خرج مــن جوف الليل فـــي ثـــلاث ليـــال من رمضـــان متفرقة هن ليلة الثالـث والعشــرين والخامس والعشـــرين والسـابع والعشـرين الـــي المسـجد فصلي وصـلي النـاس بصـلاته ولمــا رأي تكـاثر الناس صلاه في بيته ، ولمــا سئل عن ذلك قال : خشـيت أن يفرض عليكم .

في العشر الأواخر من رمضان :-

وكان عليـه الســـلام يجتهـد فـــي العشـــر الأواخـر مـــن رمضـــان مـا لا يجتهـد فـي غيرهـا ففـي الصحيحيين عن عائشة رضـي الله عنها قالت : كان رســول الله صـلي الله عليـه وســلـم إذا دخــل العشــــر شـــد مؤزرة وأحيــا ليله وأيقظ أهله . وهذا لفظ البخـاري ولفظ مسـلم : أحيــا الليل وأيقـظ أهلـه. وهـذا لفـظ البخــاري ولفظ مسـلم : أحيـــا الليل وأيقظ أهله وجد وشـد المئزر .. ولعله بمــا طبـع عليـه مـن العبـادة كـان يحب التماس ليلة القدر فهـي علـــي أرجـح الأقـوال فـــي ليلـة مـن ليـالي العشـر ، وقـد طلـب مـن الأمـة التماسـهــا فــي العشـر الأواخر وفـــي الأوتـار منهـــا خاصـة روي البخـاري عنـا عائشـة رضـــي الله عنهـا أن النبـــي عليه الســـلام قال : " تحروا ليلة القدر فــي الوتر مـن العشـر الأواخـــر " ولهـذا كـان يعتكـف فيهـــا . والاعتكاف في حقيقته قطع العــلائق عن الخلائق للاتصـــال بخدمـة الخـالق أي أنـه عكـوف القلـب علـــــي الله والتفرغ لخدمته وحده ، قال ابن القيم : كان صــلاح القلب متوقفا علي إقباله علـــي الله بالكليـة ، وكـان فضول الطعام و الشراب والكلام والمنام ومخالطة الأنام مما يضعفه ويقطعه عـن صـــادق الاقبـال علـــي الله فشــرع الصوم ليقضـــي علـي هذه العوائق ثم شرع الاعتكاف ليجمعه عليه ويقطعه عن الاشـتغال بسـواه . ولم ينقل عنه عليـه الصـلاة والســـلام أنـه أعتكـف مفطـرا ، وقالـت عائشـــة رضـي الله عنهـا " لا اعتكـاف إلا بصوم " ، وذهب جمهور السلف الـي أن الصوم شرط فيه وهو مـــا رجحه ابـن تيميـة ، وقـد ظـل رســول الله

صلــي الله عليه وسلم علــي هذا حتــي لحق بربه وروي البخــاري من حديث أبــي هريرة رضــي الله عنه قال : " كان رسول الله صلــي الله عليه وسلم يعتكف فــي كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين " أي الأواخر والأواسط .

وقد رسم النبي صلــي الله عليه وسلم لنفسه ولأمته نهجا فزاد فــي العبادة حين جمع بين هذه الشعائــر المختلفة ليحقق لهــم مثوبة الله والوصول الــي جنته . قال العلماء : إن الجمع بين الصيام والقيام والصدقة والذكر من موجبات الجنة ، وقد جاء في الصحيح من حديث علي رضــي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قوله " إن فــي الجنة غرفا يري ظاهرهــا من باطنها وباطنهــا من ظاهرها قالوا لمن هــي يا رسول الله قال : لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدم الصيام وصلي بالليل والناس نيام " وهذه الخصال كلها تجتمع في رمضان .

أجود بني آدم :-

وكما يتضاعف جود الله علي عباده في شهر رمضان بمضاعفة حسـناته لهم ، وشـمول مغفــرته وتنزل رحماته عليهــم ، يتضاعف جود النبي صلــي الله عليه وسلم ويزداد بلقاء جبريل عليه الســلام ومدارسته للقرآن . ففــي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهمــا قال : " كان النبي صلي الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون فــي رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل فــي كل ليلة فيدرسه القرآن ، فلرسول الله صلــي الله عليه وسلــم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسـلة " وخرجه الأمام أحمد بزيادة في آخره وهي : لا يسأل عن شئ إلا أعطاه .

وجوده عليه السلام كان بجميع أنواع الجــود يبذل نفسه لله بالجهاد فــي سبيله حتــي ليصير اقرب المجــاهدين الــي العدو ، ويبذل علمــه لله بهداية المشــرك ، وتعليم الجــاهل ، ووعظ الغافل ، ويبذل ماله لله إما لفقيــر أو محتاج أو ينفقه في سبيل الله ، أو يتألف به علي الإسلام من يقوي به حتــي كان يعطي عطاء الملوك ويعيش فــي نفسه عيش الفقراء ، لم يزل علــي هذا منذ نشأ ومنذ دعــا الــي الله وصدق حين قال : " ألا أخبركم بالأجود الاجود ، الله الاجود الاجود ، وأنا أجود بني آدم ، وأجودهم بعدي رجل يبذل علمه لله ، ورجل يبذل روحه في سبيل الله" خرجه ابن عدي عن أنس رضي الله عنه .

شهر الجهاد :-

وشهر رمضان كما هو شهر العبادة والمجاهدة في الله فهو كذلك شهر الجهاد في سبيل الله . فقد وقعت في السابع عشر منه غزوة بدر الكبري وفيها أذل الله قريشاً ونصر الرسول والمؤمنين وتأسست بها دولة الإسلام قال تعالي : " ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون " (آل عمران ١٢٣) ووقعت في العشرين منه كذلك غزوة الفتح الكبري وفيها طهرت الكعبة من الأصنام ، وتوطدت بها عقيدة الإسلام ومهد طريق الدعوة ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وشارك رسول الله صلي الله عليه وسلم فيهما وفي كلتيهما كان لا يمثل القائد الذي يزهو بالنصر ولا الداعية الذي يسر باقبال الناس علي دعوته بل كان يمثل النبي الرحيم بالأمة الرؤوف بالإنسانية، المبعوث رحمة للعالمين قال تعالي : " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (الأنبياء ١٠٧) .

في وداع رمضان :-

وكان عليه السلام يودع رمضان بنداء الي الإنسانية القادرة المغمورة بأنعم الله المستمتعة بآلائه ومظاهر رحمته أن تأسو جراح المعدمين ، وترفع من مذلة الفقراء والمساكين . والي الإنسانية المفتونة بلذائذ الجسد ، المخدوعة ببريق الشهوات ، الأسيرة في حبائل النفس والشيطان أن تعود الي الطريق ، وتسير علي الدرب ، وتحاذر المآثم و الفتن . وقد فرض علي الأولين صدقة الفطر ، ووسع مجال نفعها حتي ألزمها كل مالك لنصاب الزكاة ، وكل من عنده فضل قوت زائد عن قوته وقوت عياله يوما وليلة علي الأصح قال ابن عباس رضي الله عنهما : " فرض رسول الله صلي الله عليه وسلم صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين الحديث " (الحاكم وأبو داوود) وفي رواية البيهقي قال : " أغنوهم عن طواف ذلك اليوم " ونادي الآخرين أن اتخذوا من رمضان مرقاة الله ، ومنجاة من شرة الهوي ، ومهربا من غوائل النفس ، وحصنا من الأبعاد عن مغفرة الله ورحمته التي وسعت كل شئ فيما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة " إن جبريل أتاني فقال : من

أدرك شهر رمضــان فلم يغفــر له ، فدخل النار فأبعده الله . قـل آمـين . فقلـت آمـين " . وروي الطبرانـــي أن النبــي صلــي الله عليه وسلم قال : " من لم يغفر له فـــي رمضان فمتي ؟؟ " .

ثم يقف الرسول عليه الصلاة والسلام فــي موكب المـلائكة يوم العيد ينــادي :

" يا معشــر المسلمين أغدوا الــي رب كريم يمن بالخيــر ثم يثيب عليه الجزيل " وبعـد صــلاة العيـد يسـوف إليهم البشـــري حين يقول " " إلا أن ربكم قد غفــر لكم فارجعوا راشــدين الـي رحـالكم ـ بيـوتكم ـ فهـو يـوم الجائزة " !

الاحتفال بليلة الرؤيـة في مكة المكرمة والقاهرة

ينفــرد رمضان بخصوصية الشهر الوحيد الذي يحتفل برؤية هلاله ، كما تميزه ظواهر احتفالية كإضاءة المساجد والشوارع والأسواق ، فتتألق مدن الاسلام جميعها في هالات من النور ، وليالي السمر ..

وربمـــا استطاعت المعطيات والضغوط المعاصرة أن تغير من المظاهر الاحتفالية بحلول شهر رمضان المبارك ، وتراجع الاحتفال بليلة الرؤية ، والتي كانت يوماً ترتج له القاهرة كما ذكر المؤرخون !..

فى مكة المكرمة :-

من العوامل التى أثرت الحياة الدينية فى مكة المكرمة وضاعفت من بريقها طوال شهر رمضان : كثرة الزائرين لها فى هذا الشهر المبارك لأداء العمرة ، وهو ما أكده " ابن بطوطة" عندما أشار إلى فضائل الاعتمار فى رمضان مستشهداً بالحديث الشريف : " عمرة فى رمضان تعدل حجة معى " .

ومما لاشك أن مشاهدات بعض الرحالة المسلمين لليالى رمضان وطقوس إستقباله ، كانت تتكرر بشكل أو بآخر فى معظم مدن العالم الاسلامى ، مع وضعنا فى الاعتبار مكانة "مكة المكرمة" وفيها بيت الله الحرام قبلة المسلمين ومركز حجهم ومهوى أفئدتهم .

وأشار "ابن جبير" الذى رحل إلى مكة المكرمة عام ٥٧٩هـ إلى "ضرب الدبادب" عقب ثبوت رؤية الهلال و "ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقاً ، فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إماماً لها فى ناحية من نواحى المسجد والحنبلية كذلك والحنفية كذلك والزيدية وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة ، وهو فى هذا العام أحفل جمعاً واكثر شمعاً لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعاً كثيراً من

اكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار ، وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار فجاءت جهة المالكية تروق حسناً .. ولا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية إلا فيها قارىء يصلى بجماعة خلفه فيرتج المسجد لأصوات القراء من كل ناحية فتعاين الأبصار وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعاً تنخلع له النفوس خشية ورقة .. "

وأشار رحالتنا إلى إجتهاد المجاورين بالحرم الشريف فى هذا الشهر المبارك ، فى قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الأئمة فيه ، وذكر أن كل وتر من الليالى العشر الأواخر من رمضان كان يختم فيها القرآن الكريم فى الحرم المكى .

وذكر أعظم رحالة الاسلام "ابن بطوطة" أنه عقب ثبوت رؤية هلال رمضان "تضرب الطبول عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام" وأشار الى تجديد فرش المسجد والاكثار من المشاعل والقناديل المهداة بهذه المناسبة حتى يسطع الحرم نوراً وبهجة وإشراقاً ، ويتفرق الأئمة على المذاهب الأربعة فى أنحاء الحرم "فيرتج المسجد لأصوات القراء" وبعض الناس يقتصر على الطواف والصلاة منفرداً فى الحجر .. وأضاف ابن بطوطة : "والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا . وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة (وهى عشرون ركعة) يطوف إمامهم وجماعته ، فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا أنها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة ، وكان ذلك إعلاماً بالعودة إلى الصلاة ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يطوف الشفع والوتر وينصرفون . وسائر الأئمة لا يزيدون عن العادة شيئا . وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم ، فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، والمؤذنون فى سائر الصوامع ، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه . وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان . فإذا قرب الفجر ، حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان ، وأجاب بعضهم بعضا .

ولديار مكة (شرفها الله) سطوح ، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر ، حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل . وفى كل ليلة وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ، ويحضر الختم القاضى والفقهاء الكبراء " .

وأشار المستشرق الرحالة الهولندى "هورجرونيه" الذى عاش فى مكة المكرمة خلال عامى ١٨٨٤ـ ١٨٨٥م إلى أن الحديث عن شهر رمضان يبدأ من منتصف شهر شعبان ،وتحدث عن "تقليد متوارث" وطريف يقال للأطفال فى العشرين من شعبان بأن " الشيخ رمضان قد بدأ رحلته مع القافلة القادمة من المدينة المنورة وسيكون فى مكة بعد عشرة أيام ، وفى كل يوم يقطع الشيخ رمضان مسافة ، ويصل إلى مكان يسمى للأطفال ، وفى نهاية المطاف يبقى الأمر غير مؤكد ، فيما اذا كان سيصل فى يوم أو يومين ، فبداية شهر الصوم تعتمد على رؤية الهلال " .. وقال إن المدافع تكون على أهبة الاستعداد لتعلن بداية شهر الصوم ، وعقب ثبوت الرؤية ، تصبح الأسواق أكثر صخباً وحياة ، ويتفننون " فى صناعة أطباق الحلوى الرمضانية التى يقبل عليها الصائمون للتحضير لوجبة السحور لأول يوم من أيام الصيام " !

فى القاهرة الاسلامية :-

في ذاكرة القاهرة الإسلامية ، تحفل المصادر التاريخية وكتب الرحالة بوصف المواكب والاحتفالات الرسمية والشعبية بليلة الرؤية وشهر رمضان بتقاليد متوارثة ، في عصور متعاقبة ، واندثرت بعض هذه العادات والتقاليد وطواها الزمان بحكم المتغيرات السياسية والاجتماعية وظروف العصر !

الفاطميون والاحتفال بغرة رمضان :-

احتفالات الدولة الفاطمية فاقت الوصف في بزخها ، وكانت في جوهرها تعتمد على إظهار قوة الخليفة الفاطمي وسلطانه كحاكم إلي جانب نفوذه الديني !

وعن احتفـال الفاطميين بغـرة شهـر رمضان ، يقـول المقريـزي : " وكان لهم في شهر رمضان أنواع عدة من البر منها كشف المساجد ، كـان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافـوا يوماً على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر فيبدأون بجامع المقس ثم بجوامع القاهرة ثم بالمشاهـد ثم بالقرافة ثم بجامع مصر ثم بمشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وإزالة شعثـه وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون يتعينـون لذلك اليوم والطواف مع القاضي لحضور السماط .

وكـــان في أول يوم من شـهر رمضان يرسـل لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلوى ، وبوسطه صرة من ذهب فيعم ذلك سائر أهل الدولة ويقال لذلك غرة رمضان !

وكـــان لخلفــاء الدولة الفاطميـــة عادات ورسوم في جميع المناسبات ، ومنها ما اشتهر بـ " ركوب أول رمضان " ، وأرجح أن هذه العادة هي أصل ما يعرف في التراث الشعبـــــي بـ " موكب ليلة الرؤيـــة " .

وركـــوب أول رمضان كان من الأيام المشهودة في مصر الفاطمية ، فكان موكب الخليفة في زيه وبنوده وقبابه يحتشد بباب الذهب داخل سور القصر الكبير الشرقي وقد امتطى أكـــرم الجيـــاد ، مرتدياً " شاشية موكبية مكملة مذهبة " وبيده " قضيب الملك " ...

وكـــان موكب الخليفـــة يبـــدأ من بين القصرين (شـــارع المعز بالصاغة الآن) ويسير في منطقة الجمالية حتى يخرج من باب الفتوح (أحد أبواب سور القاهرة الشمالية) ثم يدخل من باب النصر عائداً إلي باب الذهب (بالقصر) وفي أثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين ، وحينما يعود الخليفة إلي القصر يستقبله المقرئون بتلاوة القرآن الكريم في مدخل القصر ودهاليزه حتى يصل إلي خزانة الكسوة الخاصة فيغير ملابسه ويرسل إلي كل أمير في دولته بطبق من الفضة مملوء بالحلوى تتوسطه صرة من الدنانير الذهبية ، وتـــوزع الكســـوة والصدقات والبخور وأعواد المسك على الموظفين والفقراء ، ثم يتوجه لزيارة قبور آبائه حسب عادته ، فإذا ما انتهى من ذلك أمر بأن يكتب إلي الولاة والنواب بحلول شهر رمضان .

ليلة الرؤية في عصر سلاطين المماليك :-

واستمــرت العناية بالاحتفال بحلول شهر رمضان ورؤية هلاله في العصر المملوكي كذلك ، فكان قاضي القضاة يخرج لرؤية الهلال ومعه القضاة الأربعة كشهود ومعهم الشموع والفوانيس ، ويشترك معهم المحتسب وكبار تجار القاهرة و رؤساء الطوائف والصناعات والحرف ، وكانوا يشاهدون الهلال من منارة مدرسة المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية بين القصرين) لوقوعها أمام المحكمة الصالحية (مدرسة الصالح نجم الدين بالصاغة) ، فإذا تحققوا من رؤيته أضيئت الأنوار على الدكاكين وفي المآذن ، وتضاء المشكاوات في المساجــد ، ثم يخرج قاضي القضاة في موكب تحف به جموع الشعب حاملة المشاعل والفوانيش والشموع حتى يصل إلي داره ، ثم تتفرق الطوائف إلي أحيائها معلنين الصيام .

وقـــد وصف الرحالة " ابن بطوطة " عام ٧٢٧ هجرياً ، الاحتفال برؤية هلال رمضان في مدينة " أبيار " بالقرب من المحلة الكبرى ، فقال : " وعادتهم في يوم الركبة أن يجتمع فقهاء المدينة و وجوههم بعد العصر في " بيت القاضي " ويقف على باب الدار نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً : " باسم الله سيدنا فلان الدين " ، ويجلسه النقيب في موضع يليق به ، فإذا تكاملوا هنالك ، ركبوا جميعاً وعلى رأسهم القاضي ، وتبعهم من بالمدينة من الرجال والصبيــان ، حتى إذا ما انتهــوا إلي موضع مرتفع خارج المدينة – وهو مرتقب الهلال عندهم – وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل القاضي ومن معه يرتقبون الهلال ، ثم يعودون إلي المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس ، فيكون ذلك دليلاً على ثبوت رؤية الهلال فيوقد التجار الشموع بحوانيتهم ، وتكثر الأنوار في الطرقات والدروب والمساجد " ... وكان الرحالة التركي الشهير " أوليا جلبي " الذي طاف بالعالم الإسلامي واستغرقت رحلته ٢٣ عاماً ، قد أشار إلي وجود طائفة في مصر تسمى "القندلجية" تضم نحو مائتي فرد ، كان عملهم بالتحديد : تزيين الحوانيت وإضاءتها بالقناديل في ليالي رمضان وفي ليالي الموالد .

ويقـــول المؤرخ العظيم " ابن إيــاس " عن احتفال ليلة رؤية الهلال في عام ٩٢٠ هجرياً – عهد السلطان الأشرف قنصوة الغوري : " .. وأما في ليلة رؤية الهلال ، حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية ، وحضر الزيني بركات بن موسى المحتسب ، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفض المجلس ، ركب المحتسب ومشت قدامه السقاءون بالقرب ، و وقدوا له الشموع على الدكاكين ، وعلقوا له التنانير

والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين إلي سوق مرجوش ، إلي الخشابين ، إلي سويقه اللبن ، إلي عند بيته (بيت الزيني بركات) .

وفـــي مستهل الشهر ، يجلس السلطان في ميدان القلعة ، ويتقدم إليه الخليفة العباسي والقضاة الأربعة بالتهنئة ثم يستعرض أحمال الدقيق والخبز والسكر ، وكذا الغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان يعرضها عليه المحتسب بعد أن يكون قد استعرضها في أنحاء القاهرة تتقدمها الموسيقى ، فينعم على المحتسب وعلى كبار رجال الدولة .

ليلـة الرؤية في عصر الدولة العثمانية :-

واستمر الاحتفـال بحلـول شهر رمضان وبرؤية هلاله في عصر الدولة العثمانية ، ففي التاسع والعشرين من شعبان كان القضاة الأربعة يجتمعون وبعض الفقهاء والمحتسب بالمدرسة المنصورية في " بيـن القصريـن " ثم يركبون جميعاً يتبعهم أرباب الحرف وبعض دراويش الصوفية ، إلي موضع مرتفع بجبل المقطم ، حيث يرتقبون الهلال ، فإذا ثبتت رؤيته ، عادوا وبين أيديهم المشاعل والقناديل إلي المدرسة المنصورية ، ويعلن المحتسب ثبوت رؤية هلال رمضان ، ويعود إلي بيته في موكب حافل يحيط أرباب الطرق والحرف بين أنوار المشاعل ، في ليلة مشهودة " في الفرجة والقصف " على حد تعبير مؤرخنا " ابن إياس " وفي صباح أول أيام رمضان ، يصعد المحتسب والقضاة الأربعة إلي القلعة لتهنئة " الباشـــا " الوالي ، فيخلع عليهم قفاطين مخمل كما جرت العادة .

وكـــان المؤرخ العظيم " عبد الرحمـن الجبرتـي " قد أشار في تاريخه إلي " سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لأهل مصر لا توجد لغيرهم " فيقـول ... " ففي بيوت الأعيان كان السماط يمد مبذولاً للناس ولا يمنعون من يريد الدخول .. وكانت لهم عادات وصدقات في المواسم الدينية خاصة في ليالي رمضان ، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعاً كثيرة ، ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين ، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء ، فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا ويعطونهم بعد ذلك دراهم ، ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ، خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية وسائر الحلوى " .

وفـــي زمن الحملة الفرنسية في مصر ، أشـار الجبرتي إلي أمر " سـاري عسكر الفرنسيس بونابرته " ... بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ، ولا يشربون الدخان ولا شيئاً من ذلك بمر أي منهم ، كل ذلك لاستجلاب خواطر الرعية " .

وفـــي ليلة الرؤية ، كان قاضي القضاة والمحتسب ومشايخ الديوان يجتمعون ببيت القاضي " المحكمة " بين القصرين ، وعند ثبوت الرؤية ، يخرجون في موكب تحيط بهم مشايخ الحرف و " جملة من العساكر الفرنساوية " .. وتطلق " المدافع والصواريخ " من القلعة والأزبكية !

أمـــا المستشرق البريطانـــي الشهـــير " إدوارد لين – E. Lane " الذي شغف بمصر واختلـــط بناسهـــا ، وتأثر بعـــادات وتقاليد مجتمع القاهرة ، حتى أنه شارك المسلمون صلاتهم بالمساجـد ، وفي حلقـــات الذكـــر ، راصداً تفاصيل الحياة اليومية ، وسمى نفسه " منصور أفنـــدي " !.. فقد حدثنا عن مشاهداته لطقوس ليلة رؤية هلال رمضان عام ١٨٣٥ فيقـــول : " و الليلة التي يتوقـــع أن يبدأ صبحيتها الصيام ، تسمى ليلة الرؤية .. فيرســل عـــدد من الأشخاص الثقاة إلي مسافة عدة أميال في الصحراء ، حيث يصفو الجو ، لكي يروا هـــلال رمضان .. بينما يبدأ من القلعة موكب الرؤية الذي يضم المحتسب وشيوخ التجـــار وأرباب الحرف : الطحانيـــن والخبازيـــن والجزاريـــن والزياتين والفكهانية ، تحيط بهم فرق الإنشاد ودراويش الصوفية ، وتتقدم الموكب فرقة من الجنود .. ويمضي الموكب حتى ساحة بيت القاضي ويمكثون في انتظار من ذهبوا لرؤية الهلال .. وعندما يصل نبأ ثبوت رؤية هلال رمضان ، يتبادل الجميع التهاني ، ثم يمضي المحتسب وجماعته إلي القلعة ، بينما يتفرق الجنود إلي مجموعات يحيط بهم " المشاعلية " والدروايش ، يطوفون بأحياء المدينة ، وهم يصيحون : يا أمة خير الأنام .. صيام .. صيام .. أما إذا لم تثبت الرؤية في تلك الليلة فيكون النداء : "" غـداً متمم لشهر شعبان .... فطار .. فطـار ..." !

وتتألـق القاهرة في ليالـي رمضان ، وكأنها تحتفـل بميلادها إلي جانب احتفاءهـا بشهر القـرآن ، وتـذكر الأجيـال الماضيـة صورة استقبـال رمضان بإطـلاع المـدافـع ، ومواكـب أرباب الحـرف ،

وكل حرفة تمثلها عربة مزدانة بالزهور والفوانيس ورموز من أدوات الحرفة وفرق الجيش والشرطة بموسيقاها المميزة ، هذه المواكب التي كانت تنطلق في جو من البهجة والفرح العام في شوارع القاهرة حتى مبنى المحافظة . أو إلي المديرية في عواصم المحافظات .. أو بيت " البيه المأمور " في القرى ! ..

لقــــد كانت ليلة رؤية هلال رمضان – في الزمن الجميل – بمثابة عيد تعم بهجته ربوع القاهرة ، حتى لو لم يثبت رؤية الهلال ، أما الآن فقد تقلصت مظاهر الاحتفال واقتصرت على خروج فرقة من فرسان الشرطة – عصر يوم الاحتفال – من دار محافظة القاهرة ، متجهة إلي " دار الإفتــاء المصرية " حيث يقام سرادق كبير لإستقبال الوزراء وكبار الضيوف من العلماء ورجال الدين وأبناء الأقطار العربية والإسلامية ، فإذا ما ثبت رؤية الهــلال ، تحررت بذلك " الوثيقة الشرعية " .. وعقب الاستماع إلي آيات من الذكر الحكيم ، يلقي فضيلة المفتي كلمته التي تبث من خلال التلفاز والراديو ، معلناً النبأ الذي ينتظره الملايين " أن اليوم هو المتمم لشهر شعبان وغداً – إن شاء الله – هو غرة شهر رمضان " ويهنيء العالم الإسلامي .. وتنطلق البهجة في البيوت والشوارع والأسواق !

لقــــد كنا نرقب مقدم رمضان – في زمن الطفولة – ونحسب له الأيام والليالي ، فإذا ما أهل فرحنا به وضحكت أرواحنا ، لأننا كنا نرى الدنيا تفرح له وتبتهج بقدومه ! ..

القصر الفاطمى فى رمضان

مما لا شك فيـــه .. أن فتــح مصر علـى يـد الخليفـة " المعـز لـدين الله " سـنة ٣٥٨هـ /٩٦٩ م.. كان أعظم إنجازات الفـاطميين التـي حفظـت لهـم مكانـاً بـارزاً فـي تـاريخ مصـر الإسـلامية ، وفيهـا أسـسـوا عاصمة جديدة لإمبراطوريتهم هي " القـاهرة " لتعبـر عـن كيـانهم وتوجهـاتهم الدينيـة و السياسـية .. وكمـا يقول " ابن سعيد " في كتابه " المغرب في حلي المغرب " : " .. وأما مدينة القـاهرة فهـي الحاليـة البـاهرة التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها واتخذوها قطباً لخلافتهم ومركزاً لأرجائها " !

ويشـــير شيخ المؤرخين " المقريزي " إلـي قصـور ومنـاظر خلفـاء الدولـة الفاطميـة ، فيقـول : " .. منها القصران الكبيران ويقال لما بينهما الآن " بين القصرين " وكانا قصرين متقـابلين أحـدهما " القصـر الكبيـر الشرقي " على يمنة السالك من خان مسرور طالباً إلي باب النصر وباب الفتوح ، و هو قصر الخلفاء ومكانـه الآن المدارس الصالحية (السـلطان الصالح نجم الدين أيوب) .

والمدرسة الظاهرية (الظاهر بيبرس) وقصر بشـتاك وغيره إلي رحبة باب العيد . والثـاني المقابـل له وهو " القصر الصغير الغربي " في موضوع المارشـان المنصوري .

وما يجـاوره من المدارس وغيرها إلي قبالة بـاب الجـامع الأقمـر ، وكانـت العسـاكر والجيـوش تقـف بين القصرين في أيام المواكب والأعياد فيسعهم بأجمعهم مع كثرتهم " !

وما زالت ذاكرة مصر الإسـلامية تحتفظ بتفاصيل مواكـب ومشـاهد الاحتفـالات والمناسـبات الدينيـة منذ عصر الفاطميون .. وكانت الاحتفالات الفاطمية التي فاقت الوصـف فـي بزخهـا ، ترتكـز علـى إظهـار قـوة الخليفة الفاطمي وسلطانه كحاكم إلي جانب نفوذه الديني ! .. فكيف كان رمضان في القصر الفاطمي ؟!

الاحتفال بغرة رمضان :-

وعن احتفال الفاطميين بغرة شـهر رمضان ، يقول المقريزي : " وكـــان لهم في شـهر رمضـان عـدة أنواع من البر منها كشـف المساجد قال الشريف الجواني في كتاب النقط كان القضاة بمصر إذا بقـى لشـهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوماً على المشـاهد والمساجد بالقاهرة و مصر فيبدؤون بجـامع المقـس ثـم بجوامـع القاهرة ثم بالمشـاهد ثم بالقرافة ثم بجامع مصر ثم بمشـهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارتـه وإزالـة

شعثه وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضي لحضور السماط ...

وكـــان في أول يوم من شهر رمضان يرسل لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلوا ، وبوسطه صرة من ذهب فيعم ذلك سائر أهل الدولة و يقال لذلك غرة رمضان " !

ركوب أول رمضان :-

وكـــان لخلفاء الدولة الفاطمية عادات ورسوم في جميع المناسبات .. ومنها ما أشتهر بـ " ركوب أول رمضان " .. وأرجح أن هذه العادة هي أصل ما يعرف في التراث الشعبي بـ " موكب ليلة الرؤية " ..

وركـوب أول رمضان .. كان من الأيام المشهودة في مصر الفاطمية ، فكان موكب الخليفة في زيه وبنوده وقبابه يحتشد بباب الذهب داخل سور القصر الكبير الشرقي وقد امتطى أكرم الجياد ، مرتدياً " شاشية موكبية مكملة مذهبة " وبيده " قضيب الملك " متوجاً بعمامة ضخمة " شدة الوقار " وهي عبارة عن منديل مرصع بأغلى وأندر اليواقيت والزمرد ، يتوسطها هلال من الياقوت الأحمر تزينه " اليتيمة " وهي جوهرة عظيمة " ليس لها مثال في الدنيا " !.. يحيط به اخوته وبني عمه و " الاستاذون المحنكون " مترجلين وكبار أمراء الدولة " أرباب القصب والعماريات " وأرباب السيوف والمقدمين أصحاب ركاب الخليفة ، ثم " طوائف العسكر " خمسة آلاف فارس ثم " المترجلة الرماة بالقسي " وعدتهم ألف ، ثم " الجيوشية و المظفرية والريحانية .. " و ما ينضاف إليهم من الأجناد نحو سبعة آلاف ، كل طائفة منهم بزمام وبنود ورايات " بترتيب مليح " ! .. وتشد فوق رأس الخليفة " المظلة " وهي من أفخر أنواع الحرير المطرز بالذهب والجوهر .. ولابد أن يكون لونها من نفس لون ملابس الخليفة !

وكـــان موكب الخليفة يبدأ من بين القصرين (شارع المعز بالصاغة الآن) ويسير في منطقة الجمالية حتى يخرج من باب الفتوح (أحد أبواب سور القاهرة الشمالية) ثم يدخل من باب النصر عائداً إلي باب الذهب (بالقصر) ، و في أثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين . وحينما يعود

الخليفة إلي القصر يستقبله المقرئون بتلاوة القرآن الكريم في مدخل القصر و دهاليزه حتى يصل إلي خزانة الكسوة الخاصة فيغير ملابسه ويرسل إلي كل أمير في دولته بطبق من الفضة مملوء بالحلوى ، تتوسطه صرة من الدنانير الذهبية ، وتوزع الكسوة و الصدقات و البخور و أعواد المسك على الموظفين والفقراء ، ثم يتوجه لزيارة قبور آبائه حسب عادته ، فإذا ما انتهى من ذلك أمر بأن يكتب إلي الولاة و النواب بحلول شهر رمضان .

وكـــــان الخليفة الفاطمي يصلي أيام الجمع الثلاث ، الثانية و الثالثة و الرابعة ، على الترتيب التالي ، الجمعة الثانيــة في جامع الحاكــم و الثالثة في الجامع الأزهر ، أما الجمعة الرابعة التي تعرف بالجمعة (اليتيمة) فكان يؤديهـا في جامع عمرو بالفسطاط . وكان يصرف من خزانة التوابل الند و ماء الورد و العود برسم بخور الموكب والمسجد ، وعقب صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان يذاع بلاغ رسمي عرف بـ " سجل البشارة !

ركوب أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان :-

قـــال ابن الطوير : إذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح (الخليفة) في أول جمعة . فإذا كانت الثانية ركب الخليفة إلي الجامع الأنور الكبير " جامع الحاكم بأمر الله " في هيئة المواسم و لباسه فيه ثياب الحرير البيض ، توقيراً للصلاة من الذهب ، والمنديل والطيلسان المقور الشعري . فيدخل من باب الخطابة و الوزير معه بعد أن يتقدمه في أوائل النهار صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختصة بالخليفة و هو محمول بأيدي الفراشين المميزين ، و ملفوف في العراضي الدبيقية فيفرش في المحراب ثلاث طراحات ، إما سامان و إما دبيقي أبيض أحسن ما يكون من صنفهما كل منقوش بالحمرة ، فتجعل الطراحات متطابقات . ويعلق ستران يمنة و يسرة ، وفي الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة أولها . " البسملة " و " الفاتحة " و " سورة الجمعة " ، وفي الستر الأيسر مثل ذلك و سورة " إذا جاءك المنفقون " قد أسبلا و فرشا في التعليق بجانبي المحراب لاصقين بجسمه . ثم يسعد قاضي القضاة المنبر وفي يده مدخنة لطيفة خيزران يحضرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات و يجعل فيها ند مثلث لا يشم مثله إلا هناك ، فيبخر الذروة التي عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ، ويكرر

ذلك ثلاث دفعات ، فيأتي في هيئة موقرة من الطبل و البوق و حوله أصحاب الركاب القراء ، و هم قراء الحضرة من الجانبين يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسي على ما تقدم طول طريقه إلي قاعة الخطابة من الجامع . ثم تحفظ المقصورة من خارجها بترتيب صاحب الباب والعساكر ، ومن أولها إلي آخرها صبيان الخاص و غيرهم ممن يجري مجراهم ...

فـــــإذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضي القضاة فقال : " السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله " . فيخرج ماشياً وحواليه الأستاذون المحنكون و الوزير وراءه و من يليهم من الخواص .. فيصعد المنبر إلي أن يصل إلي الذروة تحت القبة المبخرة ، فإذا استوى جالساً و الوزير على باب المنبر و وجهه إليه فيشير إليه بالصعود فيصعد إلي أن يصل إليه فيقبل يديه و رجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج ، ثم ينزل مستقبلاً فيقف ضابطاً لباب المنبر ، فإن لم يكن ثم وزير صاحب سيف زرر عليه قاضي القضاة ، و وقف صاحب الباب ضابطاً للمنبر ، فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر إليه من ديوان الإنشاء يقرأ فيه آية من القرآن الكريم . ولقد سمعته مرة في خطابته بالجامع الأزهر وقد قرأ في خطبته { رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي و على ولدي } ، ثم يصلي على أبيه و جده ، و يعني بهما محمداً صلي الله عليه وسلم و علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً قليل اللفظ و تشتمل الخطبة على الفاظ جزلة ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلي نفسه فقال وأنا أسمعه : " اللهم وأنا عبدك و ابن عبدك لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً " ويتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله ، ويدعو للوزير وللجيوش بالنصر و التأليف ، و للعساكر بالظفر ، وعلى الكافرين و المخالفين بالهلاك و القهر ، ثم يختم بقوله " اذكروا الله يذكركم " ، فيطلع إليه من زرر عليه و يفك ذلك التزرير و ينزل القهقرى . و سبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء . فينزل الخليفة و يصير على تلك الطراحات الثلاث في المحراب وحده إماماً ويقف الوزير وقاضي القضاة صفاً و من ورائهما الأستاذون المحنكون و الأمراء المطوقون و أرباب الرتب من أصحاب السيوف و الأقلام ، و المؤذنون وقوف و ظهورهم إلي المقصورة لحفظه . فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضي فأسمع القاضي المؤذنين و أسمع المؤذنون الناس ، هذا و الجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه . فيقرأ ما هو مكتوب في الستر الأيمن في الركعة الأولى ، و في الركعة الثانية ما هو مكتوب في الستر

الأيسر و ذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج . فإذا فرغ خرج الناس و ركبوا أولاً فأولاً ، و عـاد طالبـاً القصـر و الوزير وراءه ، وضربت البوقات و الطبول في العود .

فـــــإذا أتت الجمعة الثانية ركب إلي الجامع الأزهر من القشاشين على المنوال الذي ذكرناه...

فـــــإذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه إلي مصر للخطابة في جامعها ، فيـزين لـه أهـل القـاهرة من باب القصر غلي جامع ابن طولون ، ويزين له أهل مصر من جامع ابن طولون إلـي الجـامع بمصـر " جـامع عمرو بن العاص " ، يرتب ذلك والي مصر كل أهل معيشة في مكـان ، فيظهـر المختـار مـن الآلات و السـتور والمثمنات ، ويهتمون بذلك ثلاثة ايـام بليـاليهن . والـوالي مـار و عائـد بيـنهم وقـد نـدب مـن يحفـظ النـاس و متاعهم . فيركب يوم الجمعة المذكور شاقاً لذلك كله على الشارع الأعظم إلـي مسـجد عبـد الله ، الخـراب اليوم ، إلي دار الأنماط إلي الجامع بمصر ، فيدخل إليه من المعونة و منها باب متصل بقاعـة الخطيـب بـالزي الذي تقدم ذكره في خطبة الجامعين بالقاهرة وعلـى ترتيبهمـا . فـإذا قضـي الصـلاة عـاد إلـي القـاهرة مـن طريقه بعينها شاقاً بالزينة إلي أن يصل إلي القصر و يعطي أرباب المسـاجد التي يمر عليها كـل واحـد دينـاراً .

سماط رمضان بـ قاعة الذهب :-

تعـــــددت الأسمطة الرسمية التي كان يحضرها الخليفة الفـاطمي بنفسـه ، فكـان السـماط يمـد في " قاعة الذهب " بالقصر الشرقي الكبير في ليالي رمضان و في العيدين وليالي الوقود الأربعـة و المولـد النبوي و خمسة موالد " الحسين " ، السـيدة فاطمـة ، الإمـام علـي ، الحسـن ، الإمـام الحاضر.. بالإضـافة إلي " سماط الحزن " في يوم عاشوراء ...

قـــــال القاضي المرتضى أبو محمـد عبـد السـلام بـن محمـد بـن الحسـن بـن عبـد السـلام بـن الطوير الفهري القيسراني الكاتب المصري في كتاب " المقلتين في أخبار الـدولتين الفاطميـة و الصـلاحية " [وتسمى " قصر الذهب " أحد قاعات القصر الذي هـو قصـر المعـز وبنـي قصـر الـذهب العزيـز بـالله نـزار بـن المعز ، وكان يـدخل إليـه مـن بـاب الـذهب الـذي كـان مقـابلاً للـدار القطبيـة - التـي هـي اليـوم المارسـتان

المنصوري ، ويدخل إليه أيضاً من باب البحر ، الذي هو الآن تجاه المدرسة الكاملية . وجددها المستنصر في سنة ثمان و عشرين و أربعمائة . وهذه القاعة كان بها جلوس الخلفاء في الموكب يومي الاثنين والخميس ، وبها كان يعمل سماط رمضان للأمراء وسماط الطعام في العيدين ، وبها كان سرير الملك] .

" **فــإذا** كان اليوم الرابع من شهر رمضان ، رتب عمل السماط كل ليلة بقاعة الذهب إلي السادس والعشرين منه ، ويستدعي له قاضي القضاة ليالي الجمع توقيراً له ، فأما الأمراء ففي كل ليلة منهم قوم بالنوبة و لا يحرمونهم الإفطار مع أولادهم و أهاليهم .. ويحضر الوزير فيجلس صدر السماط ، فأن تأخر كان ولده أو أخوه ، و إن لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب .

ويهتــم به اهتماماً عظيماً تاماً ، بحيث لا يفوته شيء من أصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائقة ، وهو مبسوط في طول القاعة ، ممتد من الرواق إلي ثلثي القاعة ، والفراشون قيام لخدمة الحاضرين وجوق الاستاذين ، يحضرون الماء المبخر في كيزان الخزف برسم الحاضرين .

ويكــون أنفصالهم العشاء الآخرة ، فيعمهم ذلك ويصل منه شيء إلي أهل القاهرة من بعض الناس لبعض ، يأخذ الرجل ما يكفي جماعة ، فإذا حضر الوزير أخرج إليه مما هو بحضرة الخليفة ، وكانت يده فيه فيخصه به ، تشريفاً له و تطييباً لنفسه ، وربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر ....

ويقـول العلامة " المقريزي " عن سماط رمضان بقاعة الذهب : " ... وكـان قد تقرر أن يعمل أربعون صنية - خشكنانج - وحوى وكعك وأطلق برسم مشاهد الضرائح الشريفة ، لكل مشهد سكر و عسل و لوز ودقيق و شيرج ، ويعلم خمسمائة رطل حلوى تفرق على المتصدرين و القراء و الفقراء و من معهم في صحون ويحضر القاضي و الداعي و الشهود و جميع المتصدرين و قراء الحضرة ، و تفتح الطاقات التي قبلي باب الذهب ، و يجلس الخليفة فيسلموا عليه ، ثم يخرج متولي بيت المال بصندوق مختوم ضمنه عينا مائة دينار و ألف و ثمانمائة و عشرون درهماً برسم أهل القرافة .. و تفرق الصواني بعدما حمل منها للخاص و زمام القصر و متولي الدفـــــــتر خاصة وإلي دار الوزارة و الإجلاء الأخوة و الأولاد و كانت

الدسـت و متـولي حجبـة البـاب والقاضـي و الـداعي و مفتـي الدولـة ومتـولي دار العلـم و المقـرئين و أئمـة الجوامع بالقاهرة ومصر و بقية الأشراف ... "

ثـــــم يجلس الخليفة في منظرة القصـر ، و يتوافـد كبـار رجـال الدولـة فيقبلـون الأرض بـين يديـه و يتلوا المقرؤن القرآن الكريم ، ثم يتقدم خطباء : الجامع الأنور و جـامع الأزهـر وجـامع الأقمـر ، مشـيدين فـي خطبتهم بمناقب الخليفة ، ثم ينشد المنشدون ابتهالات وقصائد عن فضائل الشـهر الكريم .

مطبخ القصر .. ودار الفطرة !

بلـــــغ ما كان ينفق برسـم مطـبخ القصـر الفـاطمي علـى أسـمطة شـهر رمضـان طـوال تسـعة و عشرين ليلة : ٣٤٩٥ ديناراً ، بخلاف ثمانية آلاف رأس من الماشية و تسـعة وعشـرون قنطـاراً مـن السـكر ، خارجاً عن الأشربة و الحلوى ... و " جريدة المطبخ " كانت تشـمل الحاشـية و الأمراء و الفقهـاء و المقـرئين و المؤذنين و المبخرين و صدقات الأقوات .. و يشـير " ابن عبد الظـاهر " فـي خططـه عـن موقـع مطـبخ القصـر الفاطمي ، بأنه كان في موقع حي " الصاغة " الآن بالقاهرة ، وكان يخـرج إليـه مـن " بـاب الزهومـة " و هـو الباب الذي هدم و أقيم مكانه قاعة شـيخ الحنابلـة بمدرسـة الصـالح نجـم الـدين ، و بـاب الزهومـة أي بـاب الزفر هو الباب المختص بدخول اللحوم فقط .. و يضيف : " وكان يخرج من المطبخ المذكور مدة شـهر رمضـان ألف و مائتا قدرة من جميع الألوان في كل يوم تفرق على أرباب الرسومات و الضعفاء " !

هـــــذا بالطبع بخلاف ما كان يخرج من " دار الفطرة " التابعة للقصر الفاطمي والتـي كانـت تواجـه مشـهد الأمام الحسـين ، ويمكن حصره فيما يلي : ألف حملة دقيق ، سـبعمائة قنطـار سـكر ، سـتة قنـاطير قلب فسـتق ، ثمانية قناطير قلب لوز ، أربعة قناطير قلب بندق ، أربعمائـة أردب تمـر ، ثلاثمائـة أردب زبيـب ، خمسـة عشر قنطاراً عسـل نحل ، مائتي قنطـار حطـب ، ثلاثـة قنـاطير خـل ، ثلاثـون قنطـاراً زيـت طيـب ... بالإضافة إلي ماء الورد و السـمسـم و الزعفران و المسـك و الشـموع ... وهذا جميعه كان يعمـل بـه " طـوافير الفطرة " و هي عبارة عن صواني ضخمة تحمل عدة أواني ، تفرق على الأمـراء و أربـاب الرسـومات و علـى طبقات الناس و عامتهم ، كل حسـب طبقتـه ، و يبتـدأ بهـا مـن أول رجـب حتـى آخـر شـهر رمضـان ، وتبلـغ

جملتها أكثر من عشرة آلاف دينار .. وبلغ ما كان ينفق على خلع و كسوات غرة رمضان والعيد أكثر من ستين ألف دينار !

سحور الخليفة :-

وعن مراسم سحور الخليفة قال " ابن المأمون " : " يجلس الخليفة في الروشن إلي وقت السحور و المقرئون تحته يتلون عشراً ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة ثم حضر بعدهم المؤذنون و أخذوا في التكبير و ذكر فضائل السحور وختموا بالدعاء و قدمت المخاد للوعاظ فذكروا فضائل الشهر ومدح الخليفة و الصوفيات و قام كل من الجماعة للرقص و لم يزالوا إلي أن أنقضى من الليل أكثر من نصفه . فحضر بين يدي الخليفة أستاذ بها أنعم به عليهم و على الفارشين و أحضرت جفان القطائف و جرار الجلاب برسمهم فأكلوا و ملأوا أكمامهم وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون ثم جلس الخليفة في السدلا التي كان بها عند الفطور و بين يديه المائدة معبأة جميعها من جميع الحيوان و غيره و القعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة و حضر الجلسان و استعمل كل منهم ما اقتدر عليه و أوماً الخليفة بأن يستعمل من القعبة فيفرق الفراشون عليهم أجمعين كل من تناول شيئاً قام و قبل الأرض و أخذ منه على سبيل البركة لأولاده و أهله لأن ذلك كان مستفاضاً عندهم غير معيب على فاعله . ثم قدمت الصحون الصيني مملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة الكفاية و قام الخليفة وجلس بالباذهنج و بين يديه السحورات المطيبات من لبنين رطب و مخض و عدة أنواع عصارات و افطاوات و سويق ناعم و جريش جميع ذلك بقلويات و موز ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفاً .. وحضر الجلساء و أخذ كل منهم في تقبيل الأرض و السؤال بما ينعم عليه منه فتناوله المستخدمون و الأستاذون و فرقوه فأخذه القوم في أكمامهم ثم سلم الجميع و انصرفوا " .

ليلة ختم القرآن :-

في ليلة التاسع و العشرين من شهر رمضان .. كان القصر الفاطمي يشهد إحتفالاً خاصاً بـ " ختم القرآن الكريم " .. و فيها تخرج الأوامر بمضاعفة ما هو مخصص للمقرئين و المؤذنين في كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختام الشهر الكريم ...

ويحضر الوزير لتناول طعام الإفطار مع الخليفة .. حيث يجتمع على السماط اخوته وأعمامه و الأشراف و أمراء الدولة و المحتسب و والي القاهرة .. كما يحضر العلماء و المقرئين " ويسلموا على عادتهم و يجلسوا تحت الروشن " .. وترسل سيدات القصر و كرائم البيوتات : موكبيات و أواني ما مثلج ممزوج بماء الورد ملفوفة في الديباج و توضع بين المقرئيس لتشملها " بركة ختم القرآن الكريم " .. و يتناوب المقرءون قراءة القرآن من فاتحة الكتاب إلي خاتمته " تلاوة و تطريباً " .. ثم يخطب بعض العلماء مكثرين من الدعائ إلي الله في هذه الليلة .. ثم يأخذ المنشدون في إنشاط القصائد الصوفية " إلي أن ينثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم و رباعيات " .. و تقدم أجفان القطائف و الحلوى .. وتحمل أواني الماء إلي دور صاحباتها فيهدين منها على سبيل البركة .. ثم تفرق الخلع الشريفة و صرر الدنانير و الدراهم على العلماء و المقرئين و المؤذنين ، فينالهم من هذه الليلة و من كل ليالي رمضان الخير العميم !

سماط رمضان في ذاكرة التاريخ الاسلامي

مثلما تحتفظ ذاكرة التاريخ الاسلامي في عصوره المتعاقبة بتفاصيل مواكب ومشاهد الإحتفالات والمناسبات الدينية .. فقد حفظت لنا أيضاً " أسمطة رمضان " التي كان يقيمها الخلفاء والملوك والسلاطين وفاقت الوصف في بزخها ! ..

والسماط هو " مأدبة حافلة يعقدها خلفاء وسلاطين العرب علي نمط لا مثيل له عند سائر الشعوب" !

لم تعرف عهود الخلفاء الراشدين شيئاً من السرف والترف ، عصر البساطة الأولي .. حتي انتقلت عاصمة الخلافة من بيئة الصحراء .. فقيره المظاهر ـ الي مروج دمشق الخصيبة ، وكان انتزاع " معاوية " الخلافة من علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ دفعه الي ابتكار الوسائل لاستمالة الناس إليه ومن أهمها " الأسمطة " !

عصر الدولة الأموية :-

اشتهر معاوية غرامه بالطعام .. ألذه وأطيبه .. وهو الذي تفنن في اختراع ألوان من الطعام سارت بذكرها الركبان ، ويشير بعض المؤرخين الي أنه كان يأكل في اليوم الواحد خمس وجبات .. الأخيرة أتقلهن ويقول " يا غلام .. ارفع فو الله ما شبعت ولكن مللت " ! ويقال ان " الكنافة " قد صنعت خصيصاً لمعاوية ليتناولها في السحور فتجنبه الشعور بالجوع في نهار رمضان ! .. كذلك ظهر" قمر الدين" في عهد عبد الملك بن مروان .. ثم ظهرت " القطائف " في عهد سليمان بن عبد الملك !

مظاهر الترف والرفاهية كانت تميز قصور بني أمية في بلاد الشام .. وكان لمعاوية في كل ليلة من ليالي رمضان : سماط يتألف من أربعين مائدة يتصدرها أمراء الدولة وقواد الجيوش والعلماء والأجناد ، ولم يقتصر علي ذلك ، بل أمر عماله في سائر الولايات باطعام الفقراء وأبناء السبيل ، خاصة مصر فقد كان لواليها في مقر حكمه بالفسطاط كل يوم من أيام رمضان : ألف جفنة عامرة بألوان الطعام تنصب حول داره ، فضلاً عن مائة جفنة اخري محمولة علي عجلات يطاف بها علي القبائل ، فيشمل سماطه القاصي والداني !

عصر الدولة العباسية :-

وعلي دخان مبخرة شرقية .. نرحل الي عصر الدولة العباسية التي سرت فيها التقاليد البهلوية ومجدها الساساني وبذخها الكسروي .. فلم يعد السماط عربياً خالصاً ، فقد طابق العباسيون بين ما ورثوه من آداب العرب وشمائلهم الفطرية من الجود والسماحة وبين ما اقتبسوه عن الفرس المتقدمين في نمط حياة القصور وسياستهم في الحكم .. فكان أن دخلت علي " السماط " مؤثرات وآداب جديدة ، فاهتم الخلفاء العباسيون بتغذية العقول الي جانب غذاء الأبدان ، واستثارة القرائح في المنظوم والمنثور وملح النوادر ، فكانت أسمطة بني العباس يعقبها " مجلس العلم " التي اشتهر بها خلفائهم خاصة الرشيد والمأمون والمعتصم ..

وفي بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية ، في ليالي رمضان كان " هارون الرشيد " يجلس في قصوره علي سرير من الذهب الخالص ، ويمد السماط الحافل بأشهي المأكولات والحلوي ، داعيا إليه العلماء والقضاه وأمراء الدولة والجيوش.. ثم تعقد مجالس العلم والسمر العامرة بالشعر والغناء .. وكان الرشيد ينسل من مجلسه كل ليلة ليصلي مائة ركعة كعادته في ليالي رمضان .. وكان يأمر أيضا بأن تمد الأسمطة في ميادين وحدائق بغداد ، ويذهب متنكراً لمشاهدة هذه الموائد وتفقد أحوال الرعية الصائمين .

ويروي ان سماط الخليفة " المكتفي بالله " قد حوي في إحدي ليالي رمضان " قطائف " كانت نهاية اللطافة ورقة الخبز وإحكام الصنعة .. فقال الخليفة : هل وصف الشعراء هذا .. فأجابه ابن الرومي وكان منهماً :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي حشو الموز

تسبح في آذي دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي

سرور عباس بقرب فوز

من ابن طولون الي كافور الاخشيد :-

وفي عصر الدولة الطولونية ، كان السلطان أحمد بن طولون أول من دعا الـي مـا يعرف اليـوم بـ " موائد الرحمن " فكـان يقيم سـماطاً رمضانياً حافلاً يدعو إليه الأمراء والأعيـان والعلمـاء ومعهـم حشـد هائـل مــن الفقراء والمساكين .. وأعلن أنه دعاهم لينظروا الي ما يجـب أن يكـون عليـه الأمـراء والأثريـاء مـن جـود وكرم طوال شـهر رمضان نحو اخـوانهم مـن الفقـراء ، فتسـابقوا جميعـا فـي إقامـة موائـد الإفطـار .. حتـي أن بعضهم كان يبعث بالخدم الي بيوت الفقراء ليحملوهم بالقوة الـي موائدهم وبعـد تنـاولهم للافطـــار يعـودوا الــي بيوتهم حاملين معهم مــا استطاعوا مــن طعام وحلوي وفاكهة لعائلتهم .

واتبع " خمارويه " سنة أبية أحمد بن طولـون فكان يقيم أسمطة الإفطـار وزاد علـــي ذلـك باقامـة موائـد للسـحور طـوال شــهر رمضـــان ، وقـد اشــتهر طبــاخو قصـره باعـداد أشــهي ألـوان الطعـام والحلـوي المصرية !

وفـي عصر الدولة الاخشيدية ، كان " كافور " في كل يوم من أيام رمضان يولم سـماطاً حـافلاً يضـم ألفين وسبعمائة رطل مـن اللحوم وخمسمائة مــن الدجاج وألـف مـــن الحمـام ومائـة مـــن الأوز وخمســين خروفاً ومائة مـــن المـاعز وخمســمائة طبـق بـأنواع مـــن الحلـوي ومثلهـــا مـــن الفاكهـة ومائـة قربـه مـــن شراب السـكر والليمون المعطر بماء الورد !

عصر الدولة الفاطمية :-

اتسمت الحياة الاجتماعية فــي عصـر الدولة الفاطمية بمظاهــر العظمـة والأبهـة التـي لـم تقتصـر علـي الخلفاء فحسـب بل تعدتهم الــي الوزراء وكبار رجال الدولة ، وكانت الاحتفـالات الفاطميـة التـي فاقـت الوصف في فخامتهـا ترتكـز علـي اظهـار قـوة الخليفـة الفـــاطمية وسلطـــانه كحـــاكم الــــي جانـب نفـوذه الدينـــي ! وقد تميزت هذه الاحتفالات جميعاً بأسمطة حافلة بأطايب الطعام والحلوي ..

وكانت الأطعمة التي تقدم في هذه الأسمطة يتم اعدادها فــي موضعين : فـاللحوم والـدواجن ومـا اليهـا تعد في مطابخ القصر ، أما أنواع الحلـوي فكانـت تعـد فـي " دار الفطـرة " .. وكـل ذلـك يعـد تحـت إشـراف " متولي المائدة " !

كـان لشهر رمضان عند خلفـاء الدولة الفاطميـة مكانـة متميـزة بـين مواسمهـم ، فكانوا يحيـون جميع لياليه ويأتون فيه بضروب مـن البر والخير ممـا يشمل جميـع الرعيـة ، لا فـرق بـين الأثريـاء والفقـراء ، ولا بـين الخاصـة والعامـة ، وكـان للخليفـة الفـاطمي عـادات ورسـوم تبـدأ مـع غـرة رمضـان حيـث تـوزع الكسوات مـن " دار الكسوة " علي الأمراء وكبار رجال الدولة كل حسب مرتبة كما توزع أيضاً علـي الفقـراء مـن الرعيـة .. وفـي منتصف الشـهر يقـوم الخليفـة ومعـه الـوزير والأمـراء بزيـارة " دار الفطـرة " حيـث السـكـر والعسـل والزعفـران والدقيـق وأنـواع المكسـرات وغيرهـا " معبـأة مثـل الجبـال " وترتـب قائمـة بأسـماء " أرباب الرسـوم " يهـدي اليهم فـي " صوانـي " علـي قـدر مقـام كـل مـنهم .. ويستمـر خـروج هذه الصوانـي المهداه حتـي نهاية الشـهر " فـلا يفـوت أحـد شـئ مـن ذلـك ويتهـاداه النـاس فـي جميـع الاقاليم " !

وقد بلغ مـا كـان ينفق برسم مطبخ القصـرعلـي أسمطة رمضـان طـوال تسـعة وعشـرين ليلـة: ٣٤٩٥ دينـاراً بخـلاف ثمانية آلاف رأس مـن الماشية ، وتسعـة وعشرين قنطـاراً مـن السـكر ، خارجـاً عـن الأثريـة والحلـوي .. و " جريـدة المطـبخ " كانـت تشـمل الحاشـية والأمـراء والفقهـاء والمقـرئين والمـؤذنين والمبخرين وصدقات الأقوات ...

ويشير القاضـي المؤرخ " ابـن الطـوير " الـي " قاعـة الـذهب " أو قصـر الـذهب حيـث كـان يعمـل سماط رمضان للأمراء وسـماط العيدين .. فكتب : " هذه القاعة كان بها جلوس الخلفـاء .. وبهـا كـان يعمـل سماط رمضان للأمراء وسـماط الطعام فـي العيدين ، وبهـا كان سرير الملـك ، فـاذا كـان اليـوم الرابـع مـن شـهر رمضـان : رتب عمـل السمـاط كـل ليلـة بقاعـة الـذهب الـي اليـوم السـادس والعشـرين منـه ، ويستدعـي له قاضي القضاه ليالـي الجمع توقراً لـه ، فأمـا الأمـراء ففـي كـل ليلـة منهـم قـوم بالنوبـة ولا يحرمونهم الافطـار مع أولادهـم واهاليهـم ، ويحضر الوزير فيجلس فـي صدر السماط .. ويهتم بـه اهتمامـاً عظيماً تاماً ، بحيث لا يفوته شـئ مـن أصـناف المـأكولات الفائقـة والأغذيـة الرائقـة ، وهـو مبسـوط فـي طول القاعة ممتد مـن الرواق الـي ثلثيهـا ، والفراشـون قيـام لخدمـة الحاضـرين .. يحضـرون المـاء المبخـر في كيزان الخزف برسـم الحاضرين " .

وبانهيـــار الدولة الفاطمية .. إختفت المواكب والاحتفـالات وكافـة مظـاهر العظمـة والأبهـة مـع قيـام الدولة الأيوبية ، التي انشغل سلاطينهـا بدهر الحمـــلات الصليبية والزود عن أرض الاســـلام .. فقـط يـروي عن " حسام الدين لؤلؤ " قائد الاسطول الحربــي فــي عصــر السلطان صلاح الـدين ، أنـه كـان يعـد ثـلاث سفن كبيرة ملأي بأنواع الأطعمة واللحم ـ فــي كل يوم من أيام رمضان ـ فيتوافد إليه الفقراء من كـل صـوب ، فيدخلون فـي صفوف وهو واقف بنفسه وبيده مغرفة وأطباق ، فيهب لكل صائم نصيبه !

عصر سلاطين المماليك :-

فـــي غرة رمضـــان .. وعقب المواكــب الاحتفالية بليلة الرؤية ، كـان السلطان يجلس فـــي ميـدان القلعة ، فيتقـدم إليـه الخليفـة العباســـي والقضـاة الأربعـة بالتهنئـة ثـم يسـتعرض أحمـال الـدقيق والسـكر والفســتق ، والغـنم والبقـــر ، المخصصـة لصدقـــات رمضـــان ، يعرضهـــا عليـه المحتســب بعـد أن تـــم استعراضـها فـــي موكـب حاشـد بشـــوارع القـاهرة ، تتقدمهـــا فـرق الموسيقـــي ودراويـش الصـوفية .. فينعم علـــي المحتسب وكبار رجــال الدولة .. وتقام بالقلعة ـ مقر الحكم ـ طوال الشهــر الكـريم الأسـمطة وولائم الافطـار لكبار رجــال الدولة والمماليك وقوادهم وأمراء الجيش ـ ويشير المــؤرخ " ابـن ايـاس " بايجـــاز عن هضبة الأسمطة فـــي حوادث عصـــر السلطان قايتباي، بقوله : " ومـد هنـاك أسـمطة حافلـة وانشـرح هناك إنشراحاً زائداً " .

عصر الدولة العثمانية :-

فـي ليلة مشهودة في " الفرجـة والقصـف " علـي حـد تعبيـر مؤرخنـا " ابـن ايـاس " وبعـد إعـلان " المحتسب " ثبوت رؤية هلال رمضان ، يعود الـي بيته فـي موكب حافـل يحـيط بـه أربـاب الطـرق والحـــرف بين دقـات الدفوف وقـــرع الطبـول وأنـوار المشـاعل .. وقـد أشـــار " الجبرتـي " فـــي تاريخـه الـــي " سـنن وطرائق فـــي مكـارم الأخـــلاق لأهـل مصـــر لا توجـد لغيـرهم " فكتـب : " .. ففـــي بيـوت الأعيـان كـــان السـمـاط يمد مندولا للناس ولا يمنعون مـــن يريد الدخــول ... وكــانت لهم عادات وصدقات فـــي المواسـم

الدينية خاصة فـــي ليالـــي رمضـان ، يطبخـون فيهـا الأرز بـاللبن والـزردة ويمـلأون مـن ذلـك قصـاعاً كثيـرة ، ويفرقون منها علـــي من يعرفونه مـن المحتاجين ، ويجتمـع فـــي كـل بيـت الكثيـر مـــن الفقـراء ، فيفرقـون عليهم الخبز ويأكلون حتي يشبعوا ويعطونهم بعد ذلك دراهم ، ولهـم غيـر ذلـك صـدقات وصـلات لمـن يلـوذ بهم ، خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية وسائر الحلوي " !

المسحراتى .. شخصيته التاريخية وسماته الفنية

ثبـوت رؤيـة هـلال رمضـان هـو الإعـلان الرسـمى لبـدء شـهر الخيـر والرحمـة .. فتسـتعد الشـعوب الإسلامية لبدء صيام الشهر الكريم ، وليتغلبوا على مشاقه فقـد كـان السـحور هـو وسـيلتهم لـذالك ، ولـذا فإن عملية التسحير لقيت عناية من المسلمين وأفـردت لهـا الأشـعار ، حتـى غـدا شـعر ونثـر السـحور أدبـاً

يستحق أن يدرس من باحثى الأدب العربى ، وكان السند الشرعى الذى سوغ لهم السحور ، قوله صلى الله عليه وسلم " تسحروا فإن فى السحور بركة " ولكن كيف كان يدعى إليه ، وكيف يحدد وقته؟ .. تلك مسائل تناولتها كتب التراث عرضاً ، ومن الشذرات المتناثرة يمكننا القول بأن المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عرفوا جواز الأكل بأذان بلال ، وعرفوا قطعه بأذان ابن مكتوم ، فما بين السحور والإمساك أذانان يمكن تمييز الصوت فيهما .

والسحور كما هو معلوم ، دعوة لإيقاظ النيام ليتزودوا بالطعام والماء إستعداد لمواجهة مشاق اليوم التالى قبل فوات الأوان ، ومن يتولى هذه المهمة يسمى " بالمسحراتى " ، وقد ذهب المسلمون مذاهب شتى فى كيفية الإيقاظ ، فقد يكون بترديد بعض العبارات النثرية ، وبقراءة آيات من القرآن الكريم ، فينبه المسحراتى بقوله " تسحروا ، كلوا ، واشربوا " ويقرأ المسحر الآيه القرآنية " ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ...." ومن ثم ينبهون إلى الشراب بتلاوة الآيه القرآنية " إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا...." إلى آخر الآيات .

ويؤثر عن " عنبسة بن إسحق" والى مصر سنة ٢٨٣هـ ، إنه كاب يذهب إلى جامع عمر بن العاص ، ماشياً من مدينة العسكر ، وكان ينادى فى طريقة بالسحور ، وفى وفى مكة كان المؤذن الزمزمى – كما أشار رحالة الإسلام ابن بطوطة – يتولى التسحير فى الصومعة التى فى الركن الشرقى من السجد ، فيقوم فى وقت السحور داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور ، ومعه أخوان صغيران يجوبانه ويقولانه ، وفى نفس الوقت نبت فى أعلى الصومعة خشبة طويلة فى رأس عمود وفى طرفه بكرتان صغيرتان ويرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران ، لا يزالان يوقدان ندة التسحير ، فإذا إقترب ميعاد الإمساك والتنبه على ثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان ، فمن لم يسمع نداء التسحير من أهل مكة يبصر القنديلين يوقد أن فى أعلى الصومعة ، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد إنقطع .

أما إنشاد بعض انواع من الشعر عند التسحير ، فقد بدأت فى بغداد حيث بدأها " ابن نقطة المزكلش" المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م ، وكان موكولاً إليه إيقاظ الخليفة الناصر للسحور ، ويسمى

هذا النوع من الشعر " القوما " .. ولعله مأخوذ من قول بعضهم : قوما نسـحر قومـا نيامـا .. أو قومـا للسـحور قوما ويكون فى أربعة أدوار ، ومن مثالة :

ايها النوام قوموا للفلاح

واذكروا الله الذى اجرى الرياح

ان جيش الليل قد ولى وراح

وتدانى عسكر الصبح ولاح

معشر الصوام يا بشراكموا

ربكم بالصوم قد هناكموا

وجوار البيت قد اعطاكموا

فافعلوا افعال ارباب الصلاح

واشربوا عجلى فقد جاء الصباح

وفى الدور الرابع تكون التذكرة:

يامن يروم توسلا وتوصلا

صم رغبة فى قول رب قد علا

" الصوم لى وانا الذى أجزى به "

وحيث انكر ابن الحاج " محمد بن محمد ابو عبدالله العبدرى ت ٧٣٧هـ " بدعـة مـا أحدثـة المؤذنـون فى شهر رمضان من التسحير ، وطالب بضرورة العـودة إلـى السـنة النبويـة فـى ذلـك ، إلا انـه عقـد فصـلاً

لعوائد المسلمين فى التسحير فى مختلف اقطار الدولة الإسلامية، ففى القاهرة والفسطاط مثلاً يسحرون بالطبلة ، يطوف بها اصحاب الارباع وغيرهم على البيوت ويضربون عليها ، واهل الاسكندرية واليمن وبعض اهل المغرب يسحرون بدق الابواب على اصحاب البيوت وينادون على اصحابهم .. اما اهل الشام فإنهم يسحرون بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والرقص " هذا شنيع جداً من اهل الشام " على حد قوله .. كما ان بعض اهل المغرب يفعلون فعل اهل الشام حيث يضربون بالنفير على المنار ويكررونه سبع مرات ثم يضربون بالابواق سبعاً او خمساً ، فإذا قطعوا حرم الأكل !

الملامح الفنية :-

كان المسحراتي فى العصور الاسلامية المتعاقبة .. يتفنن فى الاداء ، ويستخلص المعانى لحث الناس على الصيام والقيام وطلب المغفرة ، وينشد قصص المعجزات ، ويبدع فى توزيع " التحايا " ..

وقد لا تملك عذوبة الصوت ، ولكنه بالتأكيد كان شخصية فنية ، يتمتع صوته بالشجن ويفيض بالبهجة .. ويبرع فى نظم معان جميلة فى ألفاظ بسيطة ، يحيى بها اهل كل بيت ، كلمات تلقائية نابعة من الوجدان الشعبى ، صادرة على سجيتها من القلب .. منها على سبيل المثال :

ياسى رضوان بك

يابن الكرم والوجود

ياللى يمر عليك رمضان .. بالفرح ويعود

وريحتك الحلوة فايحه زى الورد والعود

وكان يطوف بالبيوت ومعه غلام ، يحمل له فانوساً لينير له الطريق ، ويمسك المسحراتى بيده اليسرى طبلة تسمى " بازة " وبيده اليمنى جلدة يضرب بها على البازة ، مردداً بالإنشاد الجميل والتحايا لاصحاب الدور والاطفال ولا يذكر مطلقاً اسماء النساء ، ويسمح له بالنداء على البنات الصغيرات.. حيث يقول :

عبله ست العرايس مانساش اسمها

ياللى مشجر .. والحرير لبسها

ومنها هذه التحايا :

ياسى أحمد يارب خليك لنا

والسنة الجاية تكون على منى

ومنها :

ياسى عز الدين الله يزيدك كرم

وتشاهد الكعبة وباب الحرم

وينصرك ربى على من ظلم

وكان من المشاهد المألوفه فى ذلك العصر ، أن تلقى السيدات على المسحراتى من المشربية – بقطعة معدنية ملفوفة فى ورقة – بعد ان يشعلن النار فى طرفها حتى يتمكن المسحراتى ان يرى موضع وقوعها ، فينشد لهن من مديح النبى ، او شئ من قصص المعجزات : قصة الجمل ، قصة الثعبان ، قصة ميمونة واليهودى ... او بعض من سير الاولياء .

ومن المديح قوله :

يا قلبى زيد وامدح جمال النبى

طه بن رامة الهاشمى الزمزمى

وف الهجير جاتله الغزالة والجمل

والضب والتعبان ووحش الجبل

لما ظهر نور النبى المكتمل

تخشى البدور نور ضيا طلعته

تخشى البدور كلها نور ضياه

احمد رسول الله خاتم الانبيا

يا بخت من شاهد وجاور حداه

وحج طيبة والمقام واعتمر

بالله ان زرت الحما يا حمام

بلغ سلامى عند باب السلام

وقول سلام الله من عاشق

اليك يا من كان تظله الغمام

احياكم المولى الى كل عام

وكل عام وانتو الجميع طيبين

فى كتابات الرحالة الاجانب :-

وخلال رحيلهم المغامر ، رصد الرحالة الأوروبيون : مظاهر الاحتفال بشهر رمضان وتميزه بالخصوصية فى حياة المسلمين .. فأفاد الرحالة والمستشرق البريطانى الاشهر : إدوارد لين "بأن لكل حي في القاهرة مسحر خاص ، يطوف حاملاً "بازاً " أو طبلة يضرب عليها بعصا صغيرة أو جلدة ، وبرفقته صبي يحمل قنديلاً أو فانوساً من أعواد النخيل ، وينشد بعضاً من المدائح النبوية ويذكر أصحاب الدور وأطفالهم ،ولا يذكر بالطبع أسماء النساء ، قائلاً : " أسعد الله لياليك يا فلان " ، " إصح يا غفلان وحد الرحمن " ..

كذلك الإيطالى " فيلكس فابرى " الذى زار مصر عام ١٤٨٣م ، فقد أعرب عن دهشته ليلة دخوله القاهرة لكثرة ما رأى بشوارعها من الأنوار والمشاعل والفوانيس المختلف ألوانها وأشكالها ، يحملها الكبار والصغار ، ولما استفسر عن ذلك الصخب ، قيل له أنه شهر رمضان وأن المسلمين يحتفون به على هذا النحو الخاص .. وشاهد المسحراتى ـ الذى أعتقد أنه أحد رجال الدين ! ـ حيث كان يمر ثلاث مرات فى الشوارع ليلاً ومعه طبلة يدق عليها منادياً الناس بأسمائهم ..

وفى الادب المصرى المعاصر ، خلد الاديب الراحل " عبد الرحمن الشرقاوى " صورة المسحراتى " الذى كان من أبرز الصور الرمضانية فى ذلك الزمان " .. وكتب عنه " هو رجل من أهل الحى ، يطوف الحى بعد منتصف الليل الى ما قبل الفجر ، لقد اختفى المسحراتى من اكثر الاحياء ، وحل مكانه فى الاذاعة أو التليفزيون من يؤدى دور المسحراتى !.. ويا الله .. كم كانت جميلة مثيرة للوحشة تلك الكلمات التى تعود أن يلقيها المسحراتى فى ايقاع حزين وهو يودع الشهر الكريم فى الليالى العشر الأواخر .. مازلت أذكر من ذلك الماضى الجميل كلمات المسحراتى وهو يودع رمضان فى ايقاع موحش " لا أوحش الله منك يا شهر الصيام " !

مسحراتى الوطن فى زمن الراديو !

وتجدر الاشارة الى ان السهرات الرمضانية كانت تختتم في كل ليلة علي دقات المسحراتي علي طبلته .. وتكاد صورة المسحراتي تختفي من حياتنا ، مثل أشياء كثيرة جميلة اختفت من حياتنا ، ومن منا لا يذكر في أواخر شهر رمضان ، عندما كان المسحراتي يتغني وفي صوته مسحة من الحزن بـ "

التواحيش " لقرب فراق الشهر الكريم ووداعه .. وأشهر مسحراتي في زمن الراديو ، كان الراحل الشيخ " سيد مكاوي " الذي تغني بإبداعات الفنان العبقري الجميل " فؤاد حداد " مخترع الشخصية الفنية للمسحراتي والتي صاغ ملامحها من صوت الضمير وصوت التاريخ ومن عشقه لوطنه ، حتى ملأت كلماته وطبلته أرجاء مصر أنغاما ندية مفرحة..

واذا كانت وظيفة المسحراتى هى ايقاظ الناس لكى يتناولوا طعام السحور ، فان المسحراتى " فؤاد حداد " تخطى المضمون الظاهر الى الدعوة الى الاستيقاظ من الغفلة وقدم صور التحديات التى تواجهها الامة ، ومختلف قضايا الانسان المصرى ، من خلال حس مرهف بالتاريخ ورؤية ادبية متفردة تحولت الى ابداع ومتعة فنية ننتظرها فى ليالى رمضان .. من منا لا يذكر كلماته الشهيرة على طبلة بايقاع شجى :

اصحى يا نايم .. اصحى وحد الدايم

وقول نويت بكرة ... ان حييت

الشهر صايم ... والفجر قايم

اصحى يا نايم وحد الرزاق .. رمضان كريم

المشى طاب لى ... والدق على طبلى

ناس قبلى ... قالوا ف الموال

الرجل تدب مطرح ما تحب

وانا صنعتى ...

مسحراتى ف البلد .. جوال

والسمات الفنية للمسحراتى عند الشاعر العظيم " فؤاد حداد " تعتمد على مفردات وظواهر رمضانية : الطبلة ، السحور ، الافطار ، الآذان ، المدفع ، الفانوس .. معبراً عن خصوصية الشخصية المصرية فى علاقتها بالحياة والاشياء ، ويخلص إلى جوهر الروح المصرية ، باحثاً عن الحقيقة موقظاً لها ولضمائر أبناء مصر ، وأجاد توظيف إيقاعات المسحراتى فى حكاياتة عن الشخصية المصرية التى تعشق الحياة والبناء والزرع والفنون .. عن الحارة المصرية والناس فى أحياء القاهرة العتيقة عن النجارين والحدادين والمراكبية .. والمدارس والكتب وطلاب البعثات .. عن ليالى القمر وليلة القدر .. عن تونس ودمشق والقدس وبلاد العروبة ...

وأشهر مسحراتي في زمن الراديو ، كان الراحل الشيخ " سيد مكاوي " الذي تغني بإبداعات الفنان العبقري الجميل " فؤاد حداد " مخترع الشخصية الفنية للمسحراتي والتي صاغ ملامحها من صوت الضمير وصوت التاريخ ومن عشقه لوطنه ، حتى ملأت كلماته وطبلته أرجاء مصر أنغاما ندية مفرحة .. رحم الله " فؤاد حداد " ورحم ذلك الزمان الذي كانت فيه ليالي رمضان : آيات من الفن والنور !

رمضان ... وليالي الفن والنور

لاشك أن بعض من أيام عمرنا منسوجة من ذكريات رمضان وعاداته وسهراته ، في زمن الأحياء الشعبية ، وعظمتها من عظمة تاريخ القاهرة ، ومجتمع البيوتات العريقة والتقاليد المتوارثة في هذا الشهر المبارك والذي يتميز في بلادنا بـ " خصوصية مصرية " .. فكل ناس مصر – مسلمين وأقباط – يستقبلونه

ببهجة وفرحة ، فرمضان لا يرتبط في أذهانهم بالإسلام ومناسكه فحسب ، بل يرتبط أيضا بعادات وتقاليد شعبية متوارثة ، ولدوا وعاشوا في ظلالها ،، وذكريات رمضانية جميلة يسترجعونها من زوايا النسيان ، منذ عهود الطفولة والصبا .

وينفرد رمضان بخصوصية الشهر الوحيد الذي يحتفل برؤية هلاله .. كما تميزه ظواهر احتفالية كإضاءة المساجد والشوارع والحارات ، فتتألق مصر جميعها في هالات من النور ، وليالي السمر ، والمسحراتي ، والياميش وقمر الدين والكنافة والقطايف والفوانيس الملونة .. وصوت الشيخ محمد رفعت .. وما من صوت يعيد إلينا كل ما افتقدناه من رمضان الزمن الجميل مثل صوت الشيخ محمد رفعت و " رمضان جانا " لمحمد عبد المطلب و " وحوي يا وحوي " لأحمد عبد القادر ، وابتهالات نادرة زمانه الشيخ النقشبندي .

وتذكر الأجيال الماضية صورة استقبال رمضان بإطلاق المدافع ، وموكب أرباب الحرف ، وكل حرفة تمثلها عربة مزدانة بالزهور والفوانيس ورموز من أدوات الحرفة .. ومواكب دراويش الصوفية يحملون شاراتهم وبيارقهم ، وفرق الجيش والشرطة بموسيقاها المميزة ، هذه المواكب التي كانت تنطلق في جو من البهجة والفرح العام في شوارع القاهرة حتى مبني المحافظة ، أو إلي المديرية في عواصم المحافظات .. أو بيت " البيه المأمور " في القرى ! .

وتتألق القاهرة في ليالي رمضان ، وكأنها تحتفل بميلادها إلي جانب احتفاءها بشهر القرآن ، وبالرغم من أن الاحتفالات بشهر رمضان أصبحت قاصرة علي الأحياء الشعبية ، التي تضم مزارات أهل البيت ، حتى سكان الأحياء الراقية يحرصون علي قضاء سهرات رمضان في حي الحسين ، حيث مقاهي الفيشاوي والمجاذيب والشاي المغربي ..

لازلت أذكر مشاهد رمضانية أحاول أن أستعيد ملامحها من ذاكرة الأيام : دروس ما بعد صلاة العصر في المساجد الكبرى ثم التحلق حول الأعمدة لقراءة القرآن .. وسكون إلي المعدة الخاوية والشفاه الواهنة ، والمقاهي تفتح أبوابها استعدادا لاستقبال روادها ، فترش الأرض بالماء وتصف المناضد والمقاعد

، وقد يذهب إليها بعض الغرباء ومعهم طعامهم في انتظار مدفع الإفطار ، الذي ما أن ينطلق حتى تنطلق الفرحة في البيوت والشوارع !

وعقب صلاة التراويح ، تبدأ مباهج رمضان وسهراته ، وفي الطريق إليها كنت تشاهد عربات الفول المدمس ، وباعة الزبادي وعلي رؤوسهم صينية خشبية صفت عليها سلاطين الزبادي الفخارية المميزة والمغطاة بغطاء قماش أبيض نظيف .. كان السهر مباحا – حتى للأطفال والصبية – في ليال رمضان ، وحرية السهر كانت من أسباب البهجة .

وفي ذلك الزمان الجميل ، كان الأعيان من الباشوات والبكوات ، ومن الميسورين ، يستقدمون كبار المقرئين والمنشدين لإحياء ليالي رمضان في قصورهم : محمود صبح ، إسماعيل سكر ، أحمد ندا ، يوسف المنيلاوي ، علي محمود ، طه الفشني ، مصطفي إسماعيل ، نصر الدين طوبار .... كما تجدر الإشارة إلي أن قصر عابدين كان يقام بساحته سرادقا لإحياء ليالي رمضان ، وكان نجومها ملوك وسلاطين دولة القرآن / عبد الفتاح الشعشاعي شيخ المقرئين آنذاك ، ومحمد الصيفي وأبو العينين شعيشع ومصطفي إسماعيل وعبد العظيم زاهر وعبد الباسط عبد الصمد ...

كذلك أشهر مطربي زمانه الشيخ " صالح عبد الحي " والست منيرة المهدية " السلطانة " وأم كلثوم في بداية مشوارها الفني والفنان العظيم " زكريا أحمد " الذي يم يكن يرفض أبدا إحياء رمضان خارج القاهرة " حتى ولو كان الأجر المعروض عليه لا يكفي ثمنا لتذكرة السكة الحديدية .. فقد كان يري أن مهمة الفنان هي : إسعاد الناس في أي وقت وفي أي مكان " !

كما كانت تخصص ليال لفرق الإنشاد الديني وحلقات الذكر فكانت " الحضرة " التي تجمع الأحباب عقب صلاة التراويح ، تبدأ هادئة متصدرا حلقتها " القوال " وهو أجملهم صوتا .. ثم تتصاعد حرارة الذكر وتنسجم الحضرة مع ترديد اسم جديد من أسماء الله ، تتخللها لحظات يلتقطون فيها أنفاسهم بتناول أقداح الشاي أو القرفة .

كانت مظاهر الفنون الشعبية تتجلي في أحياء الحسين والسيدة والقلعة ،، فكان السيرك في حي السيدة ينصب خيامه بشارع الماوردي (حيث يستعرض الأسد المصري : عبد الحليم بك المصري ، والنمر السوري : يوسف أفندي برزه) ، وعروض السينما (المفتوحة) في شارع السد البراني ، وكذلك عروض المسرح الشعبي والأراجوز وخيال الظل والقرادتية والحواه في شوارع ماراسينا وزين العابدين حتى منطقة المدبح ، وتروج حركة المطاعم والمقاهي ومحال الحلوى والكنافة حتى آذان الفجر .. وفي حي الحسين والمنطقة المحيطة بساحته كانت تنتشر سرادقات الفن الشعبي ، كان أشهرها سرادق الفنان الأصيل " محمد الكحلاوي " .. وغيره من نجوم الطرب الشعبي وفرق الإنشاد الديني ومسرح السامر أيام الراحل " زكريا الحجاوي " ... كما كانت تنتشر سرادقات الفنون الشعبية بميدان القلعة وسكة المحجر وشارع السيدة عائشة ...

ومن الظواهر التي اختفت من حياتنا " شاعر الربابة " .. الذي تحدثت عنه كتب الرحالة الأجانب ، وشهد أجدادنا مجالسه ، حتى بداية انتشار الراديو .. كان أصحاب المقاهي حريصون علي الاتفاق مع شعراء الربابة لإحياء ليالي رمضان في مقاهيهم ... كان الشاهر يتصدر المقهى علي دكة خشبية وعلي جانبه اثنان من العازفين علي الربابة ، ويروي السير الشعبية كأبو زيد الهلالي والزناتي خليفة وعنتره والظاهر بيبرس .. بعضهم كان يغني قصته ، والبعض الأخر كان يضفي عليها الأداء التمثيلي كقصة الظاهر بيبرس ، فإذا تحدث بلسان الإعداء يحاول أن يتكلم بلكنة أجنبية .. وإذا كان المتحدث سيدة رقق من صوته وهكذا ..

وما أن تذكر مباهج رمضان الساهرة حتى يذكر مقهي الفيشاوي الذي انتهي زهوة القديم .. وليس صحيحا أن شهرة هذا المقهي كانت ترجع إلي الشيشة وأكواب الشاي الأخضر ، وإنما كانت ترجع شهرته إلي أسلوب السهر فيه .. وهو أسلوب كان يختلف في الماضي عن سنيه الأخيرة .

كانت في ذلك المقهي الشهير سهرات يومية يحييها نجوم الفن والكوميديا : إسماعيل ياسين ورياض القصبجي وسلطان الجزار وحسين الفار ، وأبو السعود الأبياري وبديع خيري ... وجميعهم كانوا ملوك " القافية " والنكته ، ويحتشد الناس يوميا لشهود تلك السهرات ونجومها الذين لم يجود الزمان

بمثلهم ! كما لا يمكنني أن أغفل مشهد مواكب دراويش الصوفية ، وصخب الطبول والدفوف المصاحبة لها ، حاملين الشارات والبيارق ، مكتوب عليها كلمة التوحيد ولفظ الجلالة وأسماء الله الحسني وأسماء محمد والخلفاء الأربعة والأقطاب والأولياء ... والعمائم والأوشحة بالألوان : الأحمر والأسود والأخضر .. ككل حسب الطريقة التي ينتمي إليها ، وكان كثير من الناس ينضمون إلي هذه المواكب ، وإلي حلقات الذكر . التي تزداد سخونتها مع تزايد " الوجد " وتزايد إيقاع الدفوف ! ... ويجدر بالذكر ، أن هذه المواكب – قبيل انتشار الكهرباء – كان يتقدمها في الليل أحد الشيوخ ممسكا بفانوس من نوع خاص ، عبارة عن قفص كبير مغطي بقماش أبيض ، بداخله مصباح أو قنديل ملون ، فكانت تنعكس علي وجوه الرجال وراياتهم أضواء وأشكال جذابة تزيد من جمال الموكب وروعته ! .

كانت هذه السهرات الرمضانية تختتم في كل ليلة علي دقات المسحراتي علي طبلته .. وتكاد صورة المسحراتي تختفي من حياتنا ، مثل أشياء كثيرة جميلة اختفت من حياتنا ..!

مدفع رمضان :

القاهرة هى أول مدينة إسلامية تستخدم المدفع لتنبيه الصائمين إلى حلول موعد الإفطار .. ومن الطريف أن ذلك حدث بطريق – المصادفة – وحدها ، فتشير الرواية التاريخية إلى أن السلطان الظاهر "خوشقدم" سيف الدين أبو سعيد (٨٦٥ هـ - ٨٧٢ هـ) الرابع عشر فى سلسلة سلاطين المماليك الجراكسة ، قد أهدى له مدفعاً فانبهر به وامر بتجربته .. وتصادف أن تمت هذه التجربة مع مغرب أول يوم من أيام رمضان ، واعتقد الناس أن إنطلاق المدفع فى هذا التوقيت هو إشارة للإفطار فكانت حديث الناس ، وذهب بعض مشايخ الحارات إلى بيت القاضى بدرب قرمز لتقديم الشكر على هذه الفكرة الرائعة ! .. وأدرك قاضى القضاه الحكاية ، فرفع الفكرة إلى السلطان ، على أن يستمر إطلاق المدفع فى موعد الإفطار وفى موعد الإمساك .. وظل ذلك تقليداً متوارثاً حتى يومنا هذا ، كما سيظل مدفع "الحاجة فاطمة" بالقلعة هو أشهر مدافع رمضان .

فانوس رمضان والفرحة الملونة :

أهـم مظـاهر الإحتفـال بالشـهر الكـريم عنـد الأطفـال : فـوانيس رمضـان .. ذات الألـوان والأشـكال والأحجام المختلفة ، وبالرغم من طول الزمان والفوانيس البلاستيكية (الصينية) ما زال الشكل التقليدى للفانوس الزجاجى الملون سحره الخاص .

وقد تباينت الروايات التاريخية حول أصل هذه العادة ، ويرجع بعضها إلى يوم دخول الخليفة الفاطمى "المعز لدين الله" القاهرة فى ليل الخامس من رمضان سنة ٣٥٨ هـ حيث خرج الناس لإستقباله وهم يحملون المشاعل والفوانيس الكبيرة مرحبين بقدومه ، ثم صارت عادة سنوية ترتبط بمظاهر الشهر الكريم .. وفى رواية اخرى تعود أيضاً إلى عصر الخلفاء الفاطميين عندما حرم على النساء الخروج من بيوتهن ، بإستثناء ليالى رمضان وحدها لزيارة أقاربهن ، فكانت السيدة تسير فى الطرقات يتقدمها خادم صغير يحمل فى يده فانوساً بشمعة .. وتتعاقب القرون ، وخرجت النساء كيف شئن ، وبقى الفانوس فى يد الصغار كتقليد رمضانى متوارث .

وتؤكـد المصادر التاريخية أن الفوانيس كانت تعلق بأعلى المآذن منذ آذان المغرب حتى موعد الإمساك ، كما كانت تستخدم أيضاً لإضاءة الطرقات والحارات فى عتمة الليل وقت صلاة التراويح وصلاة الفجر .

ويتفنن صناع الفوانيس فى إبتكار أشكال جديدة كل عام لجذب الأطفال ، وتشتهر منطقة "تحت الربع" وشارع السد البرانى وحى الجمالية بهذه الصناعة الموسمية .

ويطوف الأطفال فى الأحياء الشعبية عقب الإفطار حاملين فوانيسهم وفرحتهم الملونة ، وقد حفظت الذاكرة الشعبية كثيراً من الأغانى الجميلة التى يترنمون بها ومنها :

وحوى ياوحى .. إياحه

بنت السلطان .. إياحه

لابسه الفستان .. إياحه

ماسكه الفانوس .. إياحه

أحمر وأخضر .. إياحه

ماشية تتمخطر .. إياحه

علشان أعرف .. إياحه

بيتهم العالى .. إياحه

وحوى ياوحوى .. إياحه

ومن الأغانى الشهيرة أيضاً التى تتوارثها الأجيال ، حيث تتوجه مجموعة من الأطفال إلى منزل واحد منهم وينشدون :

حاللوا .. يا حاللوا ..

رمضان كريم ياحاللو

لولا عزالدين لولا جينا .. ياللا الغفار

ولا تعبنا رجلينا .. ياللا الغفار

يحل كيسه ويدينا .. ياللا الغفار

وقد يداعبون عجوزاً قائلين :

يا ام رمضان .. قومى اتسحرى

عالفجل الريان .. والعيش الطرى

وينشدون أيضاً :

نوادر الكنافة والقطائف في الأدب العربى

الكنافة والقطائف .. من معالم شهر رمضان المبارك ، يتسابق الناس – غنيهم وفقيرهم – في شرائها ، و التفنن في إعدادها ، فتحتل مكان الصدارة على موائد الصائمين طوال ليالي هذا الشهر الكريم ..

ويشيـــر بعض المؤرخين إلي أن أول من قدمت له " الكنافة " هو معاوية بن أبي سفيان عندما كان والياً على الشام ، فقال ابن فضل الله العمـــري في " مسالك الأبصار " : " كان معاوية يجوع في رمضان جوعاً شديداً ، فشكا ذلك إلي محمد بن آثال الطبيب ، فاتخذ له الكنافة فكان يأكلها في السحور، فهو أول من اتخذها " !

وقــــــد شغلت (الكنافة والقطائف) الشعراء و الأدباء منذ جاءت دولة بني أمية ، شغلت شاعر العربية الكبير ابن الرومي ، الذي كان يسر بها سرور " ابن الأحنف " بقرب حبيبته " فوز " وقد كان ابن الرومي نهماً :

قطائـــف قـــد حشيـــت باللــــــوز   والسكـــر المـاذي حشـــو المـــــوز

تسبـــح فـي آذى دهـــن الجـــــــوز   ســـــررت لما وقعـت في حـــــوزي

ســـــرور عبـــاس بقـــرب فـــــوز

فلمــــــا جاءت دولة الفاطميين ، وامتدت ظلالها الوارفة على العرب بالخير ، وجعلت من رمضان موسماً كريماً للبذل والعطاء ، اختفى أو كاد ما كان يقوله الشعراء في هجاء رمضان .. بل أن الشعراء أخذوا يتنافسون لا في إظهار مشاعرهم نحو هذا الشهر المبارك ، الذي أظل الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها بالخيرات .. وإنما تنافسوا وأسرفوا في الحديث عن مباهج رمضان و خيراته ، التي كان يجود بها الفاطميون تمكيناً لدعوتهم و تحبيباً للناس في مذهبهم .

تحـدثـــوا ... وأطالوا الحديث في الكنافة و القطائف و غيرهما من أنواع الحلوى التي ابتدعها الفاطميون ... تحدثوا وأطنبوا في الحديث عن الفانوس ، كمظهر من مظاهر الحفاوة برمضان .. وقد اكتسب

هـذه العـادة مـن جـاء بعـدهم فـي عصـر الدولـة الأيوبيـة ، عصـر سـلاطين المماليـك ثـم عصـر الإمبراطوريـة العثمانية .

ولــــــم يقف حديث الشعراء عند حد وصف الكنافة وموائدها ، بـل تعـدى ذلـك إلـي الحـب .. حـب الكنافة والهيام بصوانيها ، وببض لياليها والتغزل فيها ، حتى صار لها من العاشـقين مـن تغنـى بحبهـا ودلالهـا وصدها .

فهـــــذا شاعر من شعراء الدولة الأيوبية هو أبو الحسين يحيي الجـزار ، أحـب الكنافـة حبـاً عظيمـاً ملك عليه بطنه وكل مشاعره وأحاسيسه !

فكمــــا تغنى ابن زيدون بحب ولادة ، وهام جميل بحب بثينـة ، وتدلـه الأحنـف فـي عشـق فـوز ، أحب أبو الحسين الكنافة وتغني بها ..

فالكنافــة فتـاة أحلامـه ، وهـي المعشـوقة التـي تتـأبى عليـه وترميـه بالغـدر تـارة ، وتحرمـه مـن صوانيها تارة أخرى .. و هو المعذب الولهـان الـذي يتعجـب كيـف تتهمـه الكنافـة بالغـدر .. وهـو الأمـين علـى العهد ، الحافظ للود :

ومــالـــي أرى وجـه الكنـافـة مغضبــاً ... ولــولا رضـاهــا لــم أرد رمضـانهــا

عجبــت لهـا في هجرهـا كيف أظهرت ... علــى جفــاء صـد عنـــي جفـانهـــــا

تـــرى اتهمتنـــي بالقطائـــف فاغتـــدت ... تصــد اعتقـاداً أن قلبـــي خـانهــــــا

ومــــذ قاطعتنـــي مـا سمعـت كـلامهـا ... لأن لسـانـي لم يخـاطـب لسـانهــــــا

وهــــــو يرى في الكنافة و القطائف لذة أعذب وأحلى من لثم المراشـف ، وشـم المعـاطــف :

تـــا الله مـــا لثــــم المــراشـــــــف ... كــــلا ولا شــــم المعــاطـــــــــف

يــــا ألــذ وقعــاً فـــي حشـــــــــا   ي مـــن الكنـافــــة والقطـائـــــــف

قلمـــــــا ذهبـت الدولـة الأيوبيـة التـي كانـت تحـب الأدب ، وتجـزي عليـه وتفـيض بعطفهـا علـى الشعراء ، وجاءت دولة المماليك البحرية من الأعاجم الذين لـم يرحبـوا بالشـعر والشـعراء لأنهـم لـم يفهمـوا العربية ولم يتحدثوا بها ، لم يجد أبو الحسين بغيته في الكنافة ، فراح يبكي لياليها الغر الحسان :

سقـــى الله أكنـــاف الكنـافـــة بالقطـــر   وجـــاد عليهــا سكـــراً دائـــم الـــــدر

وتبـــاً لأيـــــام المخلــــــل إنهـــــــــا   تمـــر بـــلا نفــع وتحســـب من عمري

ففـــــي هذين البيتين نلمح نفسية الشاعر متبرمة ساخطة علـى أوقـات الفقـر والضيق التـي لا يأكل فيها سوى المخلل وفي ذكره كلمة " تبا " مـا يـدل علـى حالـة نفسـية خاصـة . أمـا البيـت الأول فهـو دعاء للكنافة بالسقيا بماء الورد و السكر ، و هو يدعو لها لأنه يحبها فهو في دعائه يعبـر عـن شـعور داخلـي نستشف منه الجوع والحرمان !

وكـــــــان الفقراء من الشعراء يسـتهدون الكنافـة مـن الأعيـان والموسـرين بشـعر فيـه إلحـاح كبيـر ودعابة مضحكة وفكاهة مطربة .

وصلـــــة الجزار برمضان – صلة طريفـة كشخصـه الطريـف ، كمـا يشـير د. " رجـب البيـومي " فقـد كان ينتظر هذا الشـهر المبارك ، لا ليفرغ لصومه وصلاته ، كما يفعـل الزهـدة المتورعـون ، بـل ليلـتهم حلـواه الجميلة ، وليتغـزل فـي كنافتـه وقطائفـه ، وليسـتهدي المياسـير مـن النـاس نمـاذج لذيـذة مـن مشـتهياته ومغرياته وشاعر يحتفل بمأكولات رمضان هذا الاحتفال جدير أن نتذكره فـي شـهر الصيام ليكـون طرفـة مـن طرائف العذاب !

نشـــأ الشاعر فـي أواخـر العصـر الأيـوبي ، والملـوك يومئـذ يقربـون الشـعراء ، ويهتمـون بالأدبـاء ، فانتجع الجزار ساحتهم ، وأرسـل أمداحه في الرؤسـاء والوجهاء مـن عليـة القـوم ، ثـم عـاد بالهبـات الـوافرة و العطاء الكثير ، وقـد ذاع صـيته فـي مصـر فـروى العامـة شـعره ، وقـرب الخاصـة مجلسـه مـنهم ، فمـازحهم وفـاكههم وآكلهـم وشـاربهم ، ورأى علـى موائـدهم مـن أطايـب الطعـام ، ورقـائق الحلـوى مـا أغـراه بـالنهم والالتهام ، وكانت الكنافة أحـب طعـام إليـه ، يتلهـف عليهـا إذا احتجبـت عنـه ، ويتسـاءل عنهـا لـدى ندمائـه وخلانه تساؤل العاشق العميد ، فإذا لم يوفق إلي طلبته فرغ إلي شعره يبثـه شـجونه ، ويكاشـفه أسـاه ، وأنه ليتخيلها فتاة عاقلة تصد عنه دلالا ونتهمه بمحاباة القطـائف دونهـا ، وترميـه بالخيانـة الصـريحة مـع أنهـا سيدة قلبه ومالكة هواه !! فمحال أن يخون عهدها الزاهر ، أو يسلو صباها الفينان !

وعنـدمـا ضاقت الدنيا بأبي الحسين الجزار ذرعاً ، ورأى أبواب الحكام موصدة دونه ، أرسـل بقصـيدة إلي صديقه " شرف الدين " الذي مازال على عهد الوفاء والجود ، قال فيهـا :

أيـا شــرف الديـــن الذي فيــــض جـــــوده

بـراحتـــه قـد أخجـــل الغيـــث والبحـــــــرا

لئــــن أمحلـــت أرض الكنـافـــة أننـــــــــــي

لأرجـــو لهـا مــن سحـب راحتـــك القطـــــرا

فعجـــل بهـــا جــــوداً فمـــا لـــي حـــاجــــــة

ســـواهـــا نبـاتـــاً يتمـــر الحمـــد والشكـــرا

والظـاهــر أن هذا الصنف مـن الطعـام كـان لـه عنـد هـؤلاء الشـعراء المحـرومين مكانـة لا تـداني . فالشاعر هنا يمهد لطلبه بوصف الممدوح بالكرم ثم يشكو فقره واشتياقه إلي الكنافة . وفـي البيـت الأخيـر تتجلى نفسية هذا الشاعر المسكين ، فهو يريد من الممـدوح أن يعجـل بإهدائـه الكنافـة . وقـد خشــى أن

يعطيه شيئاً سواها وهو لا يريد غيرها . لذلك قال بأن الكنافة وحدها هي التي تستوجب عنده جزيل الشكر وعظيم الثناء .

وكـــــان الشعراء يتغزلون في الكنافة ويصفون محاسنها وجمالها ويتمنون دوام وصالها ويتألمون لهجرها وفراقها ويشكون من صدها وإعراضها ... وتذهب بأبي الحسين " العاشق " الظنون ويسرف في المحال ، إذ يقول :

ومالي أرى وجه الكنافة مغضباً ولولا رضاها لم أرد رمضانها

عجبت لها في هجرها كيف أظهرت على جفاء صد عني جفانها

ترى اتهمتني بالقطائف فاغتدت تصد اعتقاداً أن قلبي خانها

ومذ قاطعتني ما سمعت كلامها لأن لساني لم يخالط لسانها

ألا خبروها أنني وحياتها ومن صانها في كل در وزانها

ليقبح أني أجعل الحشو مذهبي فأفسد شأني حين يصلح شأنها

فالشاعر هنا يصور لنا افتقاره إلي هذا الصنف من الأطعمة في صورة مضحكة ٠ فقد شخص الكنافة وهي معرضة عنه ، هاجرة له ثم تساءل عن السر في هذه القطيعة وذلك الأعراض أكان ذلك لأنها اتهمته بحب القطايف و الجري من ورائها فاعتبرته خائناً غادراً مجرداً من الوفاء ؟ ثم أخذ ينفي عن نفسه هذه التهمة و يتبرأ منها . ويذكر أنه باق على عهده في حبه وإخلاصه لها ٠ وأنه لا يفسد هذا الحب بوصل القطايف . وفي البيت الأخير تورية لطيفة في كلمة " الحشو " فهي بمعنى التشبيه والتجسيم و النسبة إليها " حشوى " وهو الذي ينتمي إلي طائفة " الحشوية " المعروفة وهي تشير في نفس الوقت إلي القطايف لأنها تحشى بالفستق ولم يكن أبو الحسين بن يحيي الجزار الذي أحب الكنافة وحده ، فلها عشاق كثر .

أحـــــب الكنافة " أبن نباتة " الشاعر المصري المعروف ... قال متغزلاً في الكنافـــة :

يـا سيــدي جاءتـك في صدرهــــا كأنهــــا روحـــي فـي صـــــدري
كنــافــة بـالحلـــو محشـــــــــوة كمـــا تقـــول العســل المصـــــري
قـــد خنقتنـــي عبرتـــي كأسمهــــا وبـــادرت مـــن خلفهــــا تجـــــري
مــا خـــرج الفستـــق من قشـــــره فيهــا وقــد أخرجـــت مـن قشـــري
ونشـرهـا من طيبهـــا لـم يفـــــح فأعجـــب لســـوء الطـــي والنشـــر
فهـــاك حلـــوا قـــد تكفلتـــــــــه ولا تســــل عنـــي وعـــن صبـــري

وقــال وقد أرسل إليه صحن كنافة ، و تذكر بهذا الصحن ابنته التي تعيش في دمشق بعيداً عنــه :

ذكــرتــك والأسمــاء تــذكر بالكنـــى فللـه يـا أسمـا الكنافـة والذكــــر
يــذكـر صحـن الوجـه صحـن كنافـــة همـا الحلـو ممـا تشهـد العين والفكـر
ليالــي فطر الصوم إذ كل ليلـــــة بإحسـان نور الدين عيد : هو الفطـــر
وإنعـامه عنــدي وشكـري عنــــده ولكــن متـــى يوفـي بإنعـامـه الشكـر
إذا كان ذا جـود وشعــر يجيبنــــي وأحســـن من شعـري له ذلك الشعـــر
ولـــم أنس ليلات الكنافـة قطرهـــا هــو الحلو إلا أنـه السحـــب الغـــزر
يجـــود علـى ضعفـي فأهتـز فرحـــة (كمـا انتفض العصفـور بلله القطـر)

وهـــــذا شاعر يتألم ويشكو لأنه لم يذق طعم الكنـافـة ولم ترها عينه إلا عند البيـاع فـي الـدكان . قــال :

مــا رأت عينـــي الكنــافـــــــــة ألا　　عنــد بيـاعهـــا علــى الدكــــــــــان

فما أتعس هذا الشاعر المسكين ! و ما أحوجه إلي العطف و الرثاء !

وشــاعـــر آخـر يـذكـر ليـالــي الكنـافـة الخـالــدة فـي عمره بالخير فيقول :

ولـــم أنس ليـلات الكنـافـة ، قطـرهـــا　　هـــو الحلــو إلا أنه السحــب الغــــــر

فهــــذه الليالي التي نعم الشاعر فيها بأكل الكنافة اللذيذة باقيـة فـي ذاكرتـه ولـن تفارقـه مـا دام حيــاً . ففي تلك الليالي السعيدة في نظره كان حينما يمسك الكنافة بيـده يكـــاد يجــن مـن شـدة الفـرح والســـرور !

ومـــــــن الشعــــراء مـن وازن بينهـــا وبـين القطـايف وفضــــل الكنافة عليها . ومـنهم مـن أظهـر الكنافة بمظهر الساخــــــر من القطايف المحتقر لها . ومثال ذلك قول ابن عنين :

غـــدت الكنـافــة بالقطـايــف تسخــــر　　وتقـــول إنـــي بالفضيلـــة أجـــــــدر

طـويـــت محاسنهـــا لنشـر محاسنـــــي　　كــم بيـــن مـا طـوى وآخـر ينشـــــر

لحـلاوتـــي تبـدو ، وتلك خفيـــــــــة　　وكـــذا الحـــلاوة فـي البـوادي أشهــــر

ففــــــي هذه الأبيات ترى الكنافة تزهو بنفســها وتشــمخ بأنفهـا و تتيـه كبـراً ودلالاً ، وتســخر مـن القطايف سخرية مرة . وتقول الكنافة هنا إنهـا أحـق بالفضـيلة مـن القطـايف لأن محاســن القطـايف مطويـة

وحلاوتها محشـوة فـي جوفهـا ، وهـذا يغض مـن قـدر القطـايف فـي نظـر الكنافـة التـي تمتـاز منهـا بظهـور محاسنها وجمالهـا ، فالكنافـة متبرجـة سـافرة تتصـدى للنـاس وتلفـت إليهـا الأنظـار ببهائهـا وحسـن روائهـا فيعرضون عن القطايف وينهالون عليها . فهي ناجحة في كسـب الزبائن بما تثيره فيهم من كـامن الشـهوة . وهذه ميزات اكتسبت للقطايـف .

وكـــــان الشعراء يتبادلون الألغاز فـي هـذا الموضـوع ، ومثـال ذلـك مـا كتبـه " ابـن نباتـه " إلـي صديق له :

يـا واحـــداً فــي عصره بمصــــــره	ومــن لــه حســن الثنـاء والسنــــــــا
أتعــرف أسمــا فيـه ذوق وذكــــــــا	حلـــو المحيــا والجنـــان و الجنـــــى
والحـــل والعقــد لــه فــي دستـــــــه	ويجلس الصدر ، وفي الصدر المنـــى

فأجابه بقوله :

عـرفتنــي الاسـم الذي عرفتــــــــه	وكــاد يخفــي ســره لــولا الكنــــــى

يقصد بالكنا " الكنافة " .

أمـــــا القطايف فقد عرفت منذ العصر العباسـي ، وجاء ذكرها فـي شـعر ابـن الرومـي وكشـاجم وغيرهما ، و منهم من شبهها بحقاق من العاج ، ومنهم من شـبهها بوصـائف قامـت بجنـب وصـائف ومـنهم من شبهها وقد رصت في الأطباق بالمصلين الذين يسجدون وراء الأمام . فالشاعر الذي يقول :

لله در قطـائــف محشـــــــــــــوة | مــن فسـتـق دعــت النـواظـر واليــــدا
شبهتهـــا لمـــا بـــدت في صحنهـــــــا | بحقــاق عـاج قـد حشيــن زبـرجـــــدا

راعـــى المنظر العام لهذه القطايف ورأى أن كل واحـدة منهـا تبـدو فـي شــكل حـق لـه لـون العـاج بداخله حشو يشبه الذهب الخالص والشاعر الذي يقول :

وقطائــف محشــــوة بلطــائــــــــف | طـافــت بهــا أكـرم بهـا من طـائـــف
شبهتهـــا نضدت علــى أطباقهـــــــا | بوصـائـف قـامـت بجنـب وصـائــــف

لـــــــم ينظر إلي لون القطائف و لا إلي شكلها ولا إلي ما حشيت به بل نظر إلي الطريقـة التـي وضعت بها في الطبق ولذلك قال . " شبهتها نضدت على أطباقها " .

ومنهـــــم مـن تنـاول القطـايف ولا هـم لـه إلا التلاعـب بالألفـاظ وأظهـار القـدرة علـى اسـتخدام المحسنات اللفظية والمعنوية .

ومـــــــن رقيق نظم ابن نباته في القطائف قوله :

وقطائف رقت جسـوماً مثلمـــــــــا | غلظــت قلـوباً فهــي لــي أحســــــاب
تحلــو فما تعلـو ويشـهـد قطرهــا الــ | فيــاض أن نـدى على حســــــــــاب

أو قـولــــه :

أقـــول وقـد جـاء الغـلام بصحنـــه عقيـــب طعـام الفطـر يا غـايـة المنـــى

بحقك قل لي جاء صحــن قطائــــــف وبح باسـم من أهوى ودعني من الكنــى

وقال صلاح الدين الصفدي :

رعــى الله نعمـاك التي من أقلهـــــــا قطـائـف من قطـر النبـات لهـا قطــــر

وشكا إلي قاضي القضاة مستهدياً القطر :

لجـــود قـاضــي القضـــاة أشكـــــــو عجـزي عــن الحلـو فـي صيامـــــي

والقطــر أرجـو و مـا عجيـــــــــــب للقطـــر يـرجــى مــن الغمــــــــــام

وهـــــــذا هو الإمام البوصيري صاحب القصيدة المعروفة بـالبردة والتـي نظـم علـى غرارهـا أميـر الشعر شوقي قصيدته الشهيرة " نهج البردة " يعتب على قاض فـي أيامـه اسـمه (عمـاد الـدين) أنـه لـم يقدم له كنافة رمضان قال :

مـا أكلنــا فــي ذا الـزمـــان كنـافــــــة آه ·· وأبعـدهــا علــى مسـافـــــــــة

قـــال قــوم أن العمـــاد كــريـــــــــم قلـــت هـــذا عنـــدي حـديث خـرافــه

أنــا ضيــف لــه وقــد مــت جـوعـــــاً ليــت شعــري لـم لا تعــد الضيافة

وهـــو إن يطعـم الطعــــام فمــــــا يطعـــم إلا لسمعـــة أو مخـافـــــــــة

ويقول أبو الهلال العسكري في القطائف :

كثيفـــــة الحشـــــو ولكنهـــــــا رقيقـــة الجلـــــد هــوائيــــــــه
رشـــــت بمــاء الـــورد أعطـافهـــا منشـــورة الطـــي ومطـويـــــــــة
كـأنهــا من طيـب أنفـاسهـــــــــا قـــد سـرقــت مـــن نشـر مـاويــــة
جـــاءت مــن السكـــر فضيـــــــة وهـــي من الأدهــــان تبـريـــــــه
قــــد وهـــب الليـل لهـــا بـــــردة و وهـــب الخصـــب لهــا زيــــــــه

وقال السراج الوراق في القطائف :

قطائفــك التـــي رقـــت جسـومــــاَ لماضغهــــا كمـــا كثفـــت قلـوبـــاَ
كغيـــم رق لكـــن فيـــه قطــــــر غـــدا المرعـي الجديـب به خصيبـــاَ

وقـال المرصفـي :

وحقـــك مـا أوليتنـــي مـــن قطائـــف ألـــذ وأحلـى من وصال القطـائـــف
وقـــد ضمنـت مثـل العتـاب حـــلاوة ألـــم تـرهـا ملفوفـــة كالصحـائـــف

ولصلاح الصفدي أيضاً :

أتـانــي صحـن من قطـائفـك التـــــي غـــدت وهـــي روض قد تنبت بالقطـر

ولا غــرو أن صـدقــت حلو حديثهـــا وسـكـرهــا يرويــه لي عــــن أبـــي ذر

وقـــــال :

ألــــذ شــــيء علــى الصيــــــــــــام مـــن الحــــلاوات فــي الطعـــــــــام

قطائــف فضضـــت فتحكــــــــــــي فــرائــد الـــدر فـــي النظـــــــــــام

وقال ابن هبة المصري في القطائف :

وافـــى الصيـــام فـوافتنـــا قطائفـــــــــــــه

كمــــا تســامتـــت الكثبـــان مـــن كثــــــــــب

أهـــلاً بشـهـــر غـــدا منــه لنـــا خلـــــــــــف

أكـــل القطائــف مـــن شــرب ابنــــة العنـــــب

مـــن كـــل ملفــوفــة ببــض إلـــي أخــــــــــر

حمـــــر مـــن القلـــى تشفـــى جنـــة السغـــــــب

وكتب برهان الدين القيراطي إلي القاضي نور الدين بن حجر :

مـــولاي ، نــور الــديـــن ضيفــك لــم يـــــــــزل

يـــروي مكـارمـــك الصحيحــــة عـــن عطـــــا

صـدقـــت قطـائفــك الكبـار حـــــــــــــــلاوة

بفمـــي وليـــس بمنكـــر صـــدق (القطــــــا)

وقال سيف الدين بن قزل المنشد :

وقطـائــف مثــــل البــــــــــــدو ... ر أتــــت لنـا مـــن غيــر وعـــــــد

قـــد سقيـــت قطـــر النبــــــــا ... ت وطيبـــــــت بالمـــــــــاء ورد

فحسبتهـــا فـــي صحنهـــــــــــا ... لمـــا بـــــدت أقــــراص شهـــــد

وقال " جحظه البرمكي " في بخيل دعاه لأكل القطائف :

دعـانـــي صـديـق لـي لأكـل القطائف ... فـأمعنـت فيهـا آمنـاً غيـر خـائـــف

فقـال ، وقـد أوجعـت بالأكـل قلبـــه ... رويـدك مهـــلاً فـهـــي إحـدى المتالف

فقلــت لـه : مـا إن سمعنـا بهـالـــك ... ينـادي عليـه : يـا قتيـل القطـائـــف !

وقـال كشـاجـــم :

عنـــدي لأضيـافـي إذا اشتـد السغـب ... قطـائـف مثـل قـراطيـس الكتـــب

كـأنـه – إذ تبـدى مـن كثــــــــب ... كـوائـــر النحـــل بيـاضــاً وثقــــب

قـــد مـــج دهـــن اللوز مما قـد شـرب وابتـــل ممــا عــام فيــه ورســــــب

وجـــاء مـاء الـــورد فيـــه وذهـــــب وغـــاب فـــي السكـــر عنا واحتجـــب

فهـــو عليــه حبـــب فـوق حبـــــب إذا رآه والـــه القلــــب طـــــــرب

أطـــرب منــه إن أراه ينتهــــــــب كـــل امـــــريء لــذتــه فيمــا يحـــب

وقال زين القضاة السكندري :

لله در قطـائــــف محشـــــــــوة مـــن فستـــق دعـــت النـواظـر واليـــدا

شبهتهـــا لمــا بـــدت فـــي صحنهـــا بحقـــاق عــاج قـــد حشيـــن زبـرجـــدا

وقال أبو علي الحسين بن محمد التونسي :

وقطـائــف محشــــوة بلطـائـــــف طـــافـــت بنـــا أكـرم بهـا من طـائـــف

شبهتهـــا صفـــت علـــى أطبـاقهـــا بـوصـائــف قـامـــت بجنـب وصـائـــف

وقال سعد الدين العربي :

قـــال القطـائــف للكنـافـــة مـــــا بالـــي أراك رقيقـــة الجســــــــد

أنـــا بالقلـــوب خـــلاوتـــي حشيــــت فتقطعــــي مـــن كثـرة الحســــــد

وإن كان عاد فجمع بين القطائف والكنافة فقال :

وقطائف مقرونة بكنافة ... من فوقهن السكر المذرور

هاتيك تطربني بنظم رائق ... ويروقني من هذه المنثور

وكتب القاضي زين الدين أبي كثير زيد بن عبد الرحمن المغربي إلي صلاح الدين الصفدي ملغزاً في القطائف :

" **يا** مولانا أثقل الله بفواضلك الكوامل ، و أجمل بفضائلك الأوايل من الفضائل إن أمكنك أن تلمح هذا اللغز اللطيف ، وتعطيه حظاً من سيال فكرك الشريف ، تقلد المملوك بدماثة الفكر العميم ، وتحل بورود لفظه كما يتحلى بوجود شخصه بين يدي سيد كريم :

ما اسم يعتني الصائمون غالباً بتحصيله ، و تتنافس الأكابر في جملته وتفصيله ، خماسي الحروف في الترصيف و الترتيب ، سطح الشكالة في البساطة كرسي عند التركيب ، إن حذف خمساه رأيته طائراً وسيماً ، طالما قص الأثر فاهتدى به وغالب في طرق اللؤم تميماً ، و أن اختلس في أوله كان في النفور الحسنية كالبال في الليل البهيم ، وفي سورة القلم ناراً أحرقت الجنة التي أصبحت كالصريم .

عزمت على إهدائه غير مرة ... إلي بابك العالي فأمسكت عن قصدي

فقد قيل عادات البحاير أنهم ... بإهدائه أولى فما جزت عن حدي

فأوضحه لي قولاً و إن شئت صورة ... وإن شئت فارسمه فأني له أبدى

قال صلاح الدين الصفدي فكتبت له الجواب وجهزت له منه صحناً :

أمولاي زين الدين منك مهنـــدي نـــداه و إن كان الصلاح عـدا يهـــدي
بعثت بلغز قد حلا منك لفظـــــــه فأجمل ذكر الفضل فضلاً عن الشهد
فسامح فقد أوضحته لك صـــــورة على أنه لابد من شرح ما عنـــدي

يا مولاي لغزك هذا بديع المعنى ، بعيد المبنى ، يترشفه السمع سلافة ، ويتلقفه البصر ورد اختصاص أراد اقتطافه ، فأغربت في قصده ، و أحكمت عقد شده دلني على معناه ، حسن مبناه ، وقرب التبيان من معناه ، فلك الفضل في حله !

وقال ظافر الحداد :

جـــام حوى في الظرف كل بـاب مستملـــح منـه ومستطـــــــاب
فالحســن فيه واضـح الأسبـــاب منقطـع الأشكـــال و الأضـــراب
قطائـف لواطــف روابـــــــــي لـم تحــش بـل رصـت بلا أصحاب
فـي المسك و الفستــق و الجلبـــاب كـأنهـــا ألسنـــة الأحبـــاب
فـــي الشكـل و النكهـة و الرضـاب ملمسـهـا كوجنـــة الكعـــــــاب
فطعمهـــا كلـــذة العتـــــــاب مـــن بعــد صـد طـال واجتنـــاب

ومــــن طريف ما يروي أن المصريين تقدموا بشكوى منظومة إلي " المحتسب " عام ٩١٧ هـ ، يتظلمون فيها من ارتفاع أثمان الحلوى ، و إن جاءت الشكوى - القصيدة - مهلهلة المبنى والمعنى ، حيث قالوا :

لقــد جـاد بالبركـات فضـل زمـاننـا	بـأنـواع حلوى نشرها يتضــــــوع
حكتهـا شفـاه الغانيـات حـــــلاوة	ألـم ترنـي من طعمهـا لسـت أشبـــع
فـلا عيـب فيهـا غيـر أن محبهــا	يبـــدد فيهـا مـا لـه ويضيـــــــع
فكم (ست حسن) مع (أصابع زينب)	بهـا كل ما تهـوى النفوس مضيـــع
وكـم كعكـة تحكـي أسـاور فضـــة	وكـم عقـد حلـت بها البســط أجمـــع
وكـم قد حلا في مصر من (قاهريــة)	كذاك (المشبك) وصله ليس يقطـــع
وفـي ثـوبـه المنقـوش جـاء بـرونـــق	فيـا حبــذا أنــواره حيـــن تسطـــع
وقد صرت في وصف (القطائف) هائماً	ترانـي لأبواب (الكنافة) أقـــــرع
فيـا قاضيـا محتسبـــاً عســــــــى	تـرخـص لنا الحلوى تطيـب ونرتع !!

ويحضرنى ما ذكره كاتبنا الكبير الراحل " أحمد بهجت " : "لقد دخلت الكنافة والقطايف تاريخ المسلمين حين خرج الحب من القلوب .. وصار الاسلام سبحة معطلة وفانوساً أثرياً ! "

سيد قراء هذا الزمان

" الشيخ محمد رفعت " قيثارة السماء

رمضان .. شهر القرآن .. ومنذ عقود طويلة ، أصبح صوت الشيخ محمد رفعت فى وجداننا كمصريين : رمز لهذا الشهر الكريم ، وعلى مدار السنة عندما نستمع إلى تلاوته ننتقل بأرواحنا إلى أجواء رمضان .. ننتظر إنطلاق مدفع الإفطار ..!

وصف الشيخ محمد رفعت بأن : "دموع قلبه كانت تجرى فى نبرات صوته ، وهو يفسر القرآن بتلاوته الفريدة ، بما كان يملكه من خشوع وفهم وتجسيد صوتى للمعانى ، فيحلق بالقلوب والوجدان إلى آفاق الكون" .. وإلى عالم طاهر نقى ليس من عالمنا !

من حى السيدة الطاهرة "زينب" رضى الله عنها بالقاهرة ، إنطلق صوت الشيخ رفعت نغماً سحرياً ، نشر العبق و الأرج فى السماء والأرض ، يصدر عن قلب عامر بالإيمان ، شرق كالأمل ، فياض كالحياة ، تسلق صوته مئذنة جامع "فاضل باشا" الأثرى ومنها سرى عبر المذياع فى القلوب و الأسماع .

كان الشيخ رفعت – أسوة حسنة – لقارىء القرآن الكريم ، خُلقه القرآن ، تأنس إليه القلوب .. وحكى لى والدى – رحمه الله – أن الترام كان يمر بشارع درب الجماميز أمام جامع فاضل باشا و الذى إشتهر بين عامة الناس حتى يومنا هذا بجامع الشيخ رفعت (تجدر الإشارة إلى ما سجله الشيخ حمد الجاسر فى "سوانح الذكريات" عندما وصل القاهرة فى الثالث من ربيع الأول شنة ١٣٥٨ه وتوجه إلى مقر البعثة العلمية السعودية ، وكتب : على مقربة من شارع درب الجماميز حيث تنتشر المكتبات فيه وبقرب دار البعثه مسجد الشيخ محمد رفعت أشهر القراء فى ذلك العهد) وكان سائقوا الترام ومعظمهم من الأقباط يتوقفون رغبة منهم ومن الركاب ، وتتوقف حركة الترام فى الشارع ، من أجل أن ترقى أرواحهم لحظات إلى ملكوت السماء مع صوت شيخنا الجليل ، كان الجامع يغص بحشود "السميعة" فيفترش محبوه الشوارع المحيطة بالجامع !

عندما سُئل الشيخ متولى الشعراوى – رحمه الله – فى لقاء بالتلفاز عن رأيه فى مشاهير القراء ، قال : "إذا أردت أحكام التلاوة فالشيخ محمود الحصرى ، وإذا أردت حلاوة الصوت فالشيخ عبدالباسط عبد الصمد ، وإذا أردت النفس الطويل مع العذوبة فالشيخ مصطفى إسماعيل ، و إذا أردت هؤلاء جميعاً فالشيخ محمد رفعت" .

وٌلد الشيخ محمد رفعت فى مايو عام ١٨٨٢ بحى المغربلين بالقاهرة ، وإنتقل والده – ضابط الشرطة – بأسرته للحياة بمنزل فى شارع ممتاز بحى السيدة زينب ثم إنتقل بعد وفاة والده إلى المنزل رقم ٣٠ شارع الشيخ البغال وعاش فى هذا البيت حتى إنتقل إلى رحمة الله فى التاسع من مايو عام ١٩٥٠ وإفتتح بصوته الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ و لعدة سنوات إستمر البث الإذاعى يبدأ كل صباح بصوت الشيخ رفعت حتى أنهكه المرض !

فى كُتاب الأمير "بشتاك" الملحق بجامع فاضل باشا ، أتم شيخنا حفظ القرآن الكريم – وبعد أن أصيب بمرض فى عينيه حتى أصبح كفيفاً – فى سن التاسعه من عمره على يد الشيخ "هنيدى" الذى أدرك موهبة الشيخ مبكراً وتعهده بالرعاية والتوجيه حتى بلغ مبلغ الشباب فعينه قارئاً للسورة بجامع فاضل باشا ، وعندما إستمع إليه الشيخ "على محمود" إنتفض بدنه كله وخنقته العبرات وقال : "هذا الولد سيكون له شأن عظيم" وعاش الشيخ على محمود حتى أصبح للشيخ الصغير "شأن عظيم" حتى فاق جميع المقرئين فى زمانه وفى كل الأزمنة !

من الشرفة العلوية !

وعلى إمتداد عالمنا كان صوت الشيخ رفعت – ومازال –يأخذ بألباب الملايين حاملاً إليهم نفحات من رضوان الله ورحمته ، على الرغم مما أكده الموسيقار "محمد عبدالوهاب" وكان واحداً من مريدى الشيخ : "إن ما نسمعه حالياً من تسجيلات الشيخ رفعت لا يمثل سوى عشرة فى المائة من عظمة وجمال الصوت الحقيقى للشيخ رفعت" !.. وفى منزل الشيخ كانت الجلسة المفضلة لعبدالوهاب تحت أقدام الشيخ المتربع على "دكة" وهو يتلو القرآن .

وكان "عبدالوهاب" أحد رواد الشرفة العلوية بجامع فاضل باشا ، التى يجلس بها عدد من الباشوات "السميعة" وأجانب من جنسيات مختلفة ومن أقباط مصر ، وعقب إنتهاء الشيخ من تلاوته ينزلون ويزاحمون الجميع فى محاولة لتقبيل يد الشيخ !

لقد عشق صوته كثير من غير المسلمين ، ومنهم من أسلموا بتأثير صوت الشيخ ، ومن الطريف أن الفنان العظيم "نجيب الريحانى" المسيحى كان يستمع إليه بين رواد الشرفة العلوية وكثيراً ما شوهد وهو يبكى تأثراً .. وكان معه أيضاً القطب الوفدى الكبير الوزير القبطى "مكرم عبيد باشا" و دوره السياسى فى تاريخ مصر الملكية معروف ، كان صديقاً للشيخ رفعت وكان يتباهى أنه تعلم تلاوة القرآن على يد الشيخ رفعت كما كان يزين مرافعاته فى المحاكم وخطبه الشهيرة بآيات من الذكر الحكيم !.. أيضاً المهندس القبطى "جورج يوسف" الذى سجل – من الشرفة العلوية – على جهاز إسطوانات عتيق كثير من تلاوت الشيخ رفعت فى العشرينيات والثلاثينيات من العقد الماضى .

ويجدر الإشارة إلى ما دونه الأديب "إدوارد الخراط" عن الشيخ رفعت : "كان صوت الشيخ رفعت فى رمضان طفولتى ، يترقرق من صناديق الراديو الكبيرة فى الدكاكين والمقاهى والبيوت المفتوحة الشبابيك قبل مدفع الإفطار ، صوتاً سلسالاً جميلاً ومنذراً ، بحزن ، من عذابات الكفران بالنعيم ، صوته أبوى وعجوز وحنون ومتعب من عبء الرحمة للخاطئين" !

فى جوار "الدكة" !

فى أحد تسجيلاته بإذاعة القرآن الكريم ، عن ذكرياته فى شهر رمضان ، قال الشيخ "أبو العينين شعيشع" صاحب المدرسة الفريدة فى فن التلاوة : "إرتبطت بعلاقة وطيدة بالشيخ محمد رفعت بدأت فى عام ١٩٢٩ وحتى وفاته فى عام ١٩٥٠" و يضيف "كنت أتردد على مسجد فاضل باشا خصيصاً لأستمتع بصوت الشيخ رفعت فى سهراته القرآنية عقب صلاة التراويح ، كنت أحاول أن أجد لى موضعاً بجوار

"الدكة" التى يتربع عليها الشيخ رفعت ، ولم تكن هناك ميكروفونات فى ذلك الزمان .." وأختصه الشيخ رفعت بالرعاية وحرص الشيخ "شعيشع" حتى بعد أن إشتهر بين أعلام القراء أن يزوره فى بيته ويستمع إليه .. ونحن جميعاً – القراء – تلاميذ فى مدرسته العظيمة" ويشير إلى أن الشيخ رفعت "بما لديه من صنعة وقدرات شديدة الخصوصية إستطاع أن يصل بصوته إلى أقصى إتساع فى قدرات الصوت الإنسانى ، وهو صاحب مدرسة فى التجويد تعتمد على القدرة فى التحكم فى الصوت وتلوينه والتصرف فى المقامات الصوتية ، فضلاً عن – الشخصية المتميزة – لصوته ، العصى على التقليد ، مع إلتزام بأصول علم القراءات ومعانى الآيات" .

ذات ليلة من ليالى الشهر الكريم ، كان الشيخ يقرأ من سورة القصص الآية "فجاءته إحداهما تمشى على إستحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا" فوقف عند قولى تعالى "تمشى" ثم واصل "على إستحياء" فظن بعض السامعين أن الشيخ قد أخطأ ورجاه أن يصل ، فإبتسم الشيخ وواصل التلاوة إلى أن إنتهى ، ثم قال "أرى أنها قالت على إستحياء ولا أرى ما فهمت أنت أنها تمشى على إستحياء ، لأن الحياء فى القول ألزم منه فى المشى" فكان رداً طريفاً يدل على سعة فهم الشيخ وإدراكه لمعانى القرآن العظيم .

تراث الشيخ رفعت

من المعروف أن تسجيلات الشيخ رفعت الحالية لا تشمل سوى أقل من نصف القرآن الكريم ، وكانت التسجيلات تتم على جهاز إسطوانات شمعية أو على "شريط ماركونى" الذى يتطلب عدد من العمال لحمله ونقله !.. وإشتهر "زكريا باشا مهران" والمهندس "جورج يوسف" بتسجيل بعض من قراءات الشيخ رفعت وجمع شتات ما تبقى ثم نقلت على أشرطة ماستر ، وحرص محبيه وأنجاله : محمد وأحمد وحسين وسبعة عشر حفيداً على الحفاظ على ما تبقى من تراث الشيخ رفعت وإهداء نسخ منه للإذاعة ، وفى عقد الثمانينات ، تقدموا بالتعاون مع "جمعية محبى الشيخ محمد رفعت" بمشروع للحفاظ على ما تبقى من تراث الشيخ إلى "صندوق التنمية الثقافية" التابع لوزارة الثقافة ، ونقل هذه التسجيلات على إسطوانات مدمجة وفقاً لأحدث التقنيات وتوثيقها ، وتجميع متعلقاته (بعض ملابسه ومكتبة أسطوانات تضم قصائد لأم كلثوم و عبدالوهاب ، ورسائل من عشاق صوته من الهند إلى بلاد المغرب العربى) و أوراقه الخاصة فى عرض متحفى صغير ضمن "مركز تراث الشيخ محمد رفعت" بالإضافة إلى جهود إذاعة القرآن الكريم منذ نشأتها عام ١٩٦٤ بتجميع وتنقية ونقل تسجيلات الشيخ رفعت والتسجيلات النادرة

لأعلام ونجوم دولة التلاوة .. ويذاع تسجيل للشيخ رفعت صباح كل يوم فى تمام الساعة السابعة لمدة نصف ساعة ، وفى سهرة الأثنين من كل أسبوع لمدة ثلاثة أرباع الساعة، بالإضافة إلى القراءات المتفرقة على مدار اليوم ولجميع المقرئين ، وتحصى إدارة التنسيق بالإذاعة المصرية التسجيلات الصوتية للشيخ رفعت على النحو التالى :

- ٤٠ تلاوة مدتها ٤٥ دقيقة (بعضها من تسجيلات الإذاعة ومن مساجد وبعض بيوت العائلات الكبيرة) .
- ٦٠ تلاوة مدتها ٣٠ دقيقة .
- ٨٠ تلاوة مدتها ١٥ دقيقة .
- ١٠٠ تلاوة مدتها ١٠ دقائق .
- ١١٠ تلاوة مدتها ٥ دقائق .

كان الشيخ رفعت – رحمه الله – لا يقيم للمادة وزناً ، معتزاً بنفسه وبمظهره ، كريماً وفياً ، وكانت وزارة الأوقاف قد عرضت نقله إلى أحد المساجد الكبرى الشهيرة بالقاهرة يختاره بنفسه ، لكنه أبى أن يفارق مسجد فاضل باشا الذى ألفه و ألف ناسه .

فى عصر اليوم التاسع من مايو عام ١٩٥٠ نعى "عبدالوهاب يوسف" أحد رواد الإذاعة العظام الشيخ رفعت إلى شعب مصر والشعوب العربية ولم يستطع أن يتمالك زمام نفسه أمام الميكروفون فإنهار باكياً ، فأسرع المخرج الإذاعى الشهير "أنور المشرى" ليكمل : "أيها المسلمون ، فقدنا اليوم أعظم صوت رتل القرآن الكريم ، فقدنا اليوم أحلى الأصوات العربية ، فقدنا صاحب الحنجرة الفريدة التى إمتلكت قدرة فائقة على إيصال أعذب وأنقى الأصوات إلى الناس .. القارىء الشيخ محمد رفعت" وتبكيه القلوب فى كل أرجاء العالم الإسلامى .. فقد كان حب الناس له نابعاً من محبة و إكرام الله – تبارك وتعالى – له ، ولله در شيخ الأزهر الأسبق "مصطفى المراغى" حين قال عنه : "هو منحة من الأقدار حين تهادن وتجود ، بل وتكريم منها للإنسانية ، فهو خير من رتل القرآن و خير من تلاه إلى أن يشاء الله" !

سهرات الصالحين .. فى ليالى رمضان

رمضان .. شهر الهدى والنور ، والبر والتقوى ، رسالته : السمو بالروح إلى النور السماوى ..

وهو شهر القرآن .. وكم كان للقرآن ليال رمضانية – فى الزمان الجميل – هيأت قلوب أجيال لتلقى نفحات ربانية فى بهجة أخذت بمجامع القلوب ، فكانت زاداً لذكريات أحسبها من العمر ..

فى القاهرة ، كان باشوات ذلك الزمان يتنافسون على مشاهير قراء القرآن الكريم ليحيوا ليالى رمضان فى قصورهم ، التى تفتح أبوابها ليس فقط للضيوف المدعوين ولأصدقائهم ، بل أيضاً لعامة الناس ، للإستمتاع بليال تجلت فيها أصوات أعلام المقرئين ومنهم : محمود صبح ، اسماعيل سكر ، يوسف المنيلاوى ، على محمود ، مصطفى إسماعيل ، عبدالباسط عبدالصمد ، محمد صديق المنشاوى ، وغيرهم ... كما كان كبار

المنشدين "الصيتية" مثل : على محمود و طه الفشنى ونصر الدين طوبار و سيد النقشبندى يحيون ليالى رمضان فى قصور الباشوات والأمراء ، و دور الأعيان والعمد فى قرى مصر .

كما كانت تنتشر فى البيوتات القديمة ذات الأصول والتقاليد المتوارثة ، سهرات دينية عقب صلاة التراويح ، تبدأ بتلاوة من آيات الذكر الحكيم ثم تعقبها "الحضرة" وهى اجتماع فريق من الأحباء فى الله ، ينتظمون فى حلقات ذكر هادئة لطيفة يتخللها إنشاد ممن حسنت أصواتهم ، وجميع الحاضرين قد نزلوا من على الكراسى أو "الشلت" للجلوس أرضاً عل سجادة كبيرة ، وفى هذه السهرة يتناولون أطباق من الكنافة والقطايف وأقداح من شراب القرفة أو القهوة ..

نور على نور

كانت القاهرة تتألق فى هالات من النور ، وحتى قبيل إنتشار الكهرباء ، كان الحكام حريصين على إضاءة المنارات والقباب بالفوانيس والقناديل ، كما تزدان بها واجهات البيوت والميادين والأسواق ، كانت البيوت يشع منها عبق الزهور و شذا البخور وروائح الشواء والأطعمة الدسمة كلما إقترب المغرب ، وكان من عادة أهل القاهرة تبادل الدعوات على طعام الإفطار وقد فتحت الأبواب لعابرى السبيل ، وعقب صلاة التراويح ترتفع أصوات المقرئين والمنشدين شجية جليلة بلا مكبرات صوت !

كانت السيدات إذا برزن إلى الطريق فى رمضان وهم بـ"الحبرة واليشمك" لزيارة الأهل والجيران ، يسعين وبين أيديهم الخدم يحملون الفوانيس الكبيرة فتزيد الطريق نوراً على نور !.. وكانت المشربيات والنوافذ ينبعث منها نور المصابيح ، كما ينبعث منها النور الأعظم : تلاوة القرآن الكريم .. وينتشر هذا النور أيضاً من ساحات المساجد الكبيرة عقب صلاة التراويح ، خاصة مساجد : الإمام الحسين والسيدة زينب والإمام الشافعى وغيرها من مساجد أهل البيت ..

وكان أكثر البيوتات العريقة تبدأ سهرات رمضان مع إنطلاق المدفع ، حيث الأسمطة قد مدت بأشهى الأطعمة ، وعقب أذان المغرب ، يطوف أحد الخدم بطبق البلح الإبريمى الجاف فيأخذ كل منه ما يشاء فيما عرف بـ"شق الصيام" .. وسجاجيد الصلاة قد فرشت ، الرجال فى "السلاملك" والنساء فى "الحرملك" فإذا قضيت الصلاة إجتمعوا لتناول إفطارهم ، يعقبه أطباق من الكنافة والقطايف وأكواب من عصائر الفاكهة ، حتى صلاة العشاء تتلوها صلاة التراويح .. ثم تصدح من هذه القصور والدور أصوات المقرئين والمنشدين ..

فى قصر عابدين

كان الملك فاروق حريصاً على إحياء ليال رمضان ، بدءاً من الموائد التى كانت تصف فى ساحة سراى عابدين ، يجلس إليها الفقراء و عامة الناس لتناول فطورهم بكل ما لذ وطاب .. وعقب صلاة التراويح ، كانت تبدأ السهرات القرآنية التى يحضرها الملك بنفسه ، وكان "أحمد حسنين باشا" رئيس الديوان الملكى حريصاً على الإتصال بمشاهير القراء لإحياء ليال رمضان وعلى رأسهم : الشيخ عبدالفتاح الشعشاعى – شيخ القراء فى زمانه – والشيخ أبو العينين شعيشع و طه الفشنى و محمد الصيفى و مصطفى إسماعيل الذى أتى به الشيخ الشعشاعى من قريته "ميت غزال" إلى سراى عابدين ليحيى ليالى رمضان عام ١٩٤٣م ، فكانت بداية شهرته التى أسهم فيها أيضاً – على المستوى الشعبى – إحيائه ليالى رمضان من جامع السيدة زينب ومن جامع الإمام الحسين رضى الله عنهما ، حتى أصبح قارئاً للجامع الأزهر إلى وفاته عام ١٩٧٨م ، وكانت السهرات القرآنية بسراى عابدين تنقلها الإذاعة عبر موجاتها يومياً وغالباً ما تمتد لأكثر من ساعتين !

فى درب الجماميز

كان الشيخ محمد رفعت "قيثارة السماء" أسوة حسنة لقارىء القرآن الكريم : خلقه القرآن ، تأنس إليه القلوب .. وكم أحيا ليالى رمضان فى قصور الباشوات فكانت فرصة لعامة الناس أن يستمتعوا بصوت الشيخ رفعت والذى أصبح من معالم الشهر الكريم حتى يومنا هذا .. كما كان للشيخ رفعت سهراته القرآنية فى جامع الأمير محمود فاضل باشا بشارع درب الجماميز (والذى إشتهر عند عامة الناس بجامع الشيخ رفعت) فكان سائقو الترام – ومعظمهم من الأقباط – يتوقفون وتتوقف حركة الترام بالشارع بالإضافة إلى جمهور "السميعة" ممن ضاقت بهم جنبات المسجد فإنتشروا أمامه وحوله ، لكى يعيشوا لحظات ترتقى فيها أرواحهم إلى ملكوت السماء مع صوت شيخنا الجليل .

فى رحاب السيدة زينب

فى حى السيدة زينب الأكثر عراقة وتميزاً بين أحياء القاهرة الإسلامية ، كانت تنتشر قصور وبيوتات العائلات العريقة بتقاليدها المتوارثة ، قبل حملات هدم القصور والفيلات التى إجتاحت القاهرة فى السنوات الأخيرة !..

فى هذا الحى ولد الشيخ محمد رفعت ، والشيخ أحمد ندا ، ومنه إنطلقت شهرتهما فى العالم الإسلامى ، خرج أعلام فى السياسة والأدب والصحافة : يحيى حقى ، توفيق الحكيم ، فتحى رضوان ، على الجارم ، المازنى ، المنفلوطى ، عبدالعزيز البشرى ، بيرم التونسى ، حافظ محمود و كامل زهيرى وغيرهم ...

وكان مولد الأديب الكبير "يحيى حقى" بحارة الميضة خلف مسجد السيدة زينب : ينبوع إلهامه ووحيه الذى تدفق فى كتاباته ، وظل يذكر بيته القديم وعائلته ، وصوت "الشيخ حسن" المعروف فى الحى، يتردد فى أرجاء البيت فى ليالى رمضان ، وقد توافد إليه رجال الحارة ومن الجيران .. يمنون أنفسهم بليلة قرآنية ، وبأطباق الياميش وشراب القرفة !

وعاصر "يحيى حقى" نجم فن التلاوة والتواشيح الشيخ "على محمود" مقرىء جامع مولانا الإمام الحسين ، وبأسلوبه الفريد مع بطانته ، كان صوته يجلجل بين جنبات و أروقة الجامع فى ليال رمضان منشداً و مادحاً ، مما جعل منه أسطورة لن تتكرر فى هذا الفن .. وقد إنتقل الشيخ من حى العباسية الذى ولد به ، ليقطن بشارع الباب الأخضر بجوار ضريح سيد الشهداء إلتماساً لبركته ، وكان يصعد إلى المنارة القديمة ليؤذن للصلوات الخمس ، ويسبق أذان الفجر بتسابيح وإبتهالات توقف جميع السائرين حول المشهد الحسينى ، وكان عندما يقبل على ساحة الميدان "يخلع نعليه" تأدباً ويسير حافياً إجلالاً لسبط رسول الله !

فى صالون آل عبدالرازق

كانت سراى "آل عبدالرازق" بشارع جامع عابدين ، تواجه "باب باريس" الباب الجنوبى لقصر عابدين، قصر منيف عظيم بحديقته الغناء وأشجاره الباسقة ، عامر دائماً بحركة الوافدين إليه ، وبالخدم والسائقين والبستانية ، فكان من أعظم المنتديات السياسية والأدبية ...

إشتهر الصالون الأدبى لهذه السراى فى مجتمع القاهرة خلال النصف الأول من القرن الماضى ، فعميد العائلة "حسن باشا عبدالرازق" كان واحداً من الشخصيات الأكثر تأثيراً فى الحياة السياسية المصرية وخدمة القضايا الوطنية ، و ابنه د. على عبدالرازق صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم" الذى أثار ضجة فى ذلك العصر .. والإبن الأكبر "مصطفى باشا عبدالرازق" والذى تتلمذ على يد الإمام محمد عبدة وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة السوربون ، وعين أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق – جامعة ليون ، وعاد أستاذاً للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة ، وشغل منصب وزير الأوقاف سبع مرات متتالية إلى أن صدر الأمر الملكى بتوليه مشيخة الأزهر الشريف ، وتنازل عن لقب "الباشوية" مفضلاً لقب "الشيخ" ، كما كان من أبرز أعضاء مجمع اللغة العربية الملكى (مجمع الخالدين) .. لقد كان الشيخ مصطفى عبدالرازق : سيداً من سادات زمانه علماً و فضلاً و سخاء و نبلاً ، و طرازاً فريداً من رواد الثقافة العربية والإسلامية .

وتجدر الإشارة إلى أن أول فرع عربى لنادى القلم الدولى تأسس فى هذا الصالون الشهير ، كما عقدت بعض مؤتمرات نادى القلم الدولى فى هذه السراى ..

وكان هذا الصالون ملتقى أعلام السياسة والصحافة ونخبة المفكرين والأدباء .. وفى جولاتنا القاهرة ، قال لى الكاتب والمفكر ونقيب الصحفيين الراحل والصديق "كامل زهيرى" : كان من رواد هذا الصالون الذى مثّل "ارستقراطية الفكر" العميد طه حسين ، الفيلسوف أحمد لطفى السيد ، د. محمد حسين هيكل ، عبدالقادر حمزة باشا ، محمد فريد وجدى ، عباس العقاد ، أحمد أمين ، د. عبدالحميد بدوى ، حافظ إبراهيم ، أحمد حسن الزيات وغيرهم من الأعلام ، وفى ليالى رمضان ، كان ينضم إليهم : مصطفى المراغى ، عبدالمجيد سليم ، حسن مأمون ، د. محمد الفحام (وجميعهم تولوا مشيخة الأزهر) والشيخ العالم محمد عبدالله دراز ، مصطفى صادق الرافعى ، د. منصور فهمى (مدير دار الكتب) ، د. إبراهيم مدكور ، د. على بهجت و د. على إبراهيم باشا الجراح العالمى و أول عميد مصرى لكلية الطب وصاحب أندر مجموعة سجاد على مستوى العالم .. وغيرهم من العلماء ورجال الفكر ، وإستقطب أيضاً تلاميذ الشيخ من طلاب الأزهر .. وكانت السهرة الرمضانية فى سراى مصطفى عبدالرازق تبدأ عقب صلاة التراويح بتلاوة قرآنية من الشيخ عبدالفتاح الشعشاعى أو الشيخ أبو العينين شعيشع وغيرهما من أعلام القراء .. ثم تتألق السهرة والجمع فى مناقشات وحوارات تتناول جوانب من شخصية النبى – صلى الله عليه وسلم – وسير الصحابة وأعلام التابعين ، وفنون الإعجاز فى القرآن ، ومسائل فقهيه ، وعن إصلاح الأزهر وتطويره ، وفى التاريخ الإسلامى ، وفى الأدب العربى وإتجاهاته ، وفى الثقافة الإسلامية عامة وتأثير الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية ..

وخلال السهرة ، كان خدم السراى يقومون بتوزيع أكواب العصائر وأطباق الحلوى الشرقية وأقداح القهوة والقرفة .. وفى السحر ، عندما يتهادى صوت مسحراتى حى عابدين ، توزع أطباق الأرز باللبن مزدانة بالمكسرات وسلاطين الزبادى "الفخارية" .. ثم يتوجه الجميع إلى "جامع عابدين" الملاصق للسراى الملكية ، لأداء شعائر صلاة الفجر .. فكانت مسك الختام ..

ولما كان الشيخ مصطفى عبدالرازق ، معلماً وفيلسوفاً وصاحب رسالة هى التوفيق بين القديم والحديث وبين الشرق والغرب ، فقد كان حريصاً فى حواراته فى هذه السهرات وغيرها فى صالونه على تأكيد مبدأه الأساسى : أن هناك شيئاً يسمو فوق العلم والأدب هو "الأخلاق"

حاتم زمانه !

ومن البيوتات العريقة الشهيرة : عائلات "ذو الفقار" أصهار الملك فاروق و " محمود سليمان باشا" والد محمد محمد باشا رئيس الوزراء والوزير حفنى محمود و "التيمورية" التى أنجبت : الأدباء اسماعيل وأحمد ومحمود تيمور ، وعائلات : الشريعى والشريف والوكيل ويكن وعزام والمنشاوية والرضوانيةوالبكرى والبدرواى والشواربى وأبو علم وغيرهم .. إلى جانب بعض أمراء البيت المالك ، وكانت سرايات هذه العائلات تتوزع ما بين أحياء : المنيرة والعباسية والزمالك وجاردن سيتى ومصر الجديدة ، ولا يمكن أن نغفل العائلة الأشهر "الأباظية" الذين خرج منهم أعلام فى عالم البيان ووزراء منذ عصر الملكية وحتى يومنا هذا ..

كان "إبراهيم دسوقى أباظة" باشا عميد الأباظية ، وكيل مجلس النواب فى الأربعينيات من القرن الماضى وسكرتير عام حزب الأحرار الدستوريين ، كما كان أديباً وشاعراً وكاتباً صحفياً ، وهو والد الأديب الكبير "ثروت أباظة" ، إشتهر إبراهيم دسوقى بلقب "حاتم زمانه" وكان قصره بشارع الجنزورى بالعباسية ، وفيه تأسست "رابطة أدباء العروبة" تحت رعايته الأدبية والمادية وكان البعض يرى فيه صورة "الأمير العربى" الكريم ، والحديث عن هذا الرجل يستغرق مجلداً .. ولأنه كان سياسياً فقد كان وثيق الصلة بكل السياسيين – حتى المعارضين - ولأنه كان وزيراً فكان على صلة بكل وزراء عهده – حتى السابقين – ولما كان برلمانياً عريقاً فقد كان صديقاً لكل أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ، كما كان علاقاته رائعة بكل الصحفيين بمختلف إنتمائاتهم السياسية ، كما كان خبيراً زراعياً يعرفه كل الفلاحين فى بلدته "الشرقية"..

كان من عاداته فى رمضان : أن يخصص يوم لجميع السياسيين ، ويوم لجميع البرلمانيين ، ويوم للوزراء ، ويوم لجميع الصحفيين .. كان كريماً بلا حدود ، وموائد الإفطار الرمضانية كانت مضرب الأمثال ، كان حريصاً على إستقدام أشهر المقرئين طوال ليالى رمضان ، ومنهم الشيوخ : مصطفى إسماعيل ، عبدالعظيم زاهر ، كامل يوسف البهتيمى ، محمد الصيفى وغيرهم ، كمان كان يحرص على دعوة عدد من علماء الأزهر لإلقاء دروس فى التوعية الدينية ، وتمضى السهرات فى مناقشات حول تفسير بعض الآيات وتقوية الرابطة بين الشعوب الإسلامية ، وفى شئون السياسة والأدب والصحافة .. أما باقى أيام رمضان فكانت السراى مفتوحة لأهله وللفلاحين من الشرقية ، وللأحبة والأصدقاء فى القاهرة ، ولعامة الناس ، ويحيى هذه الليالى أشهر

المنشدين فى ذلك العصر : على محمود و طه الفشنى وإبراهيم الفران وغيرهم .. كان الباشا يسره أن يؤكل طعامه وأن تغشى داره فى الأيام العادية ، فمـــــا بالنا فى شهر رمضان !

فى تكية المولويه

كانت أشهر تكايا الصوفية ، وقد أعيد ترميمها بشارع السيوفيه بحى الحلمية الجديدة ، وكان الأمير "يوسف كمال" أحد اشهر أمراء الأسرة المالكة هو المسئول عن شئونها ويدعمها مادياً ، وكان يرأسها حاجى "سرى بابا" وكانت له صلات بالسلطات الحاكمة ، كانت التكية جنة وسط الرمال والصخور ، تغطيها الكروم وتحيط بها الأشجار المورقة ، وكان روادها من سكان أحياء القلعة والحلمية وعابدين وباب الخلق ..

وإشتهرت التكية بأحياء ليالى رمضان ، التى تبدأ بموائد الإفطار العامرة ، وعقب صلاة التراويح تتلى آيات من القرآن الكريم ، يعقبها حلقات الذكر ، قد يصحبها دفوق وآلات وترية ، وتنشد أشعار لأقطاب الصوفية .. ومن المدهش أن السير "مايلز لامبسون" المندوب السامى البريطانى وقرينته كانا حريصين على شهود ليالى المولوية ، كما كان يحضرها أيضاً بعض من أمراء وأميرات البيت المالك ، وكثير من الأدباء والشعراء !

ليلة مع الشيخ مصطفى إسماعيل

إنقضى عهد السرايات والبيوتات العريقة ، وراحت معها كثير من القيم والأشياء الجميلة فى حياتنا، ووجد الناس بغيتهم فى سهرات المساجد الكبرى يحيها مشاهير القراء وكبار المنشدين ، وإنتشر بين السميعة أن الشيخ فلان سيسهر الليلة فى جامع السيدة أو جامع الحسين أو زين العابدين فينتشر الخبر وتزدحم ساحات المساجد بمحبى الشيخ والسميعة من كل الفئات .

وأذكر فى الإحتفال بليلة القدر عام ١٩٧٤م فى ساحة مسجد السيدة زينب ونفحات عقيلة بنى هاشم تعبق الأجواء ، وجموع السميعة كأن النور غسل أحزانهم وهمومهم ، يغمرهم شعور بالسعادة والرضا ..

تألق الشيخ طه الفشنى وبطانته ، بروائع إنشاده ومدحه للرسول الكريم ، بصوته الرقيق الحنون وإمتلاكه لكل فنون الصنعة فإستولى على ألباب الناس ، وكان الشيخ مصطفى إسماعيل – عليه رضوان الله – هو قارئ الليلة .. كان الشيخ مصطفى يمتلك صوتاً فذاً وأسلوباً فريداً ، وكانت له حصيلة من العلم بالمقامات لا تتوفر لكثير من أقرانة .. وكان محبوه وعشاق صوته بالملايين فى مصر والعالم الإسلامى .. أبدع الشيخ فى تلاوته من سورتى النجم والقمر والأرواح مستشرفة إلى هذا الصوت الجميل النادر يسترسل فى تنغيمه وتطريبه ، والآذان مرهفة والقلوب خاشعة وما أن يكمل الشيخ الآية أو أكثر حتى تنطلق الحناجر بعبارات الإستحسان .. حلق الشيخ مصطفى بصوته إلى عنان السماء ثم يهبط إلى قرار قريب ، فنجد أنفسنا مسحورين بهذا الصوت الفريد وهذا الإيقاع العبقرى الجميل فى إمالة سائغة لأواخر الآيات الكريمة ، يهفو إليها السمع وتترشفها النفس ، فكانت ترتفع مع صوته نفوس السامعين ثم تهبط وهم خاشعون حتى يفرغ ذلك النفس الطويل المفتن فتعلو أصوات السميعة بلفظ الجلالة وكلمات الثناء على هذا التجويد الساحر العبقرى .. كانت ليلة أفرغ فيها الشيخ مصطفى إسماعيل كل فنه وبلغ صوته فيها غاية الحلاوة والطلاوة .. وعقب الإنتهاء من تلاوته ، رفع يديه بالدعاء لأئمة القراء الراحلين الذين تتلمذ عليهم وقرأ الفاتحة على أرواحهم تلاها بالدعاء لعامة المسلمين أجمعين ، وبمجرد أن هم بالقيام حتى هجم عليه سيل من المحبين يقبلون رأسه ويده .. وبصعوبة بالغة إستطاع شيخنا أن يتخلص من مظاهرة الحب التى أحاطت به !

ويمضى الزمان .. و أضحت تلك الليالى فى ذاكرة التاريخ ، وهدمت قصور و دور كانت عامرة ، وإندثرت عائلات عريقة وتقاليد جميلة توراثتها أجيال ، وسبحان من له وحده الدوام .

رمضان .. فى دفتر الذكريات الأوروبية !

حقق "أدب الرحلة" نوع من الإتصال الحضارى بين الشعوب وإكتساب المعرفة بالآخر، وهو ما دفع الرواد من الرحالة المستشرقين ـ فى رحيلهم المغامر عبر صحارى ومدن المشرق الإسلامى ـ إلى دراسة خصائص المجتمعات الإسلامية وطبائع أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، ورصدوا القيم الثقافية والدينية التى أولوها إهتماماً خاصاً ، وأضافوا لتلك المعلومات : ملاحظاتهم الخاصة وتفسيراتهم وتحليلاتهم لها ، وكان من بين ما رصدوه : مظاهر الإحتفال بشهر رمضان وتميزه بالخصوصية فى حياة المسلمين.

بوركهارت .. وأجمل ذكرياته فى مكة المكرمة !

درس الرحالة السويسرى الأشهر "جون لويس بوركهارت" اللغة العربية فى جامعة كمبريدج ، وتولت "الجمعية الأفريقية" البريطانية تمويل رحلته الإستكشافية فى جزيرة العرب وفى أفريقيا وصولاً إلى "تمبكتو" .. عكف على دراسة الإسلام وعلومه الشرعية حتى أشهر إسلامه وتسمى بـ"الشيخ إبراهيم" .. سجل الكثير عن حياة بدو الصحراء وعاداتهم خلال رحلته ، وكان وصوله إلى جدة فى يوليو عام ١٨١٤م ، وما دونه عن مكة المكرمة والمدينة المنورة يعد وثيقة هامة فى تاريخ المدينتين المقدستين فى ذلك العصر ، وبهرته مكة المكرمة حتى كتب :

"فى كل رحلاتى بالشرق ، لم أشهد أبداً من أيام اليسر والراحة والنعيم ما شهدته فى مكة ، ولسوف أظل دائماً أحتفظ بأجمل الذكريات عن الفترة التى قضيتها بها" !

أمضى بوركهارت فى مكة المكرمة ثلاثة شهور ، وصادف وجوده بها شهر رمضان ، وعاش فيها وتعايش مع أهلها ، حتى أدى مناسك الحج .

فور وصوله إلى مكة المكرمة أدى مناسك العمرة ، وكتب :

"إن آلاف القناديل التى تضيء الحرم المكى خلال رمضان ، جعلت منه الملاذ الليلى لكل الأجانب فى مكة (يقصد الحجيج من مختلف الجنسيات القادمين من شتى بقاع الأرض) فهنا يلتقون ويتحاورون إلى ما بعد منتصف الليل .. ينهمكون بخشوع تام فى الصلاة والدعاء وقراءة القرآن خلال ساعات الظهيرة ، بينما بعض من الهنود والزنوج يأخذون قسطاً من الراحة تحت أروقة المسجد .. عند غروب الشمس ، يتوافد الحجيج وأهل مكة لتأدية صلاة المغرب ، فى أكثر من عشرين دائرة حول الكعبة ، تضم نحو ثمانية آلاف من المؤمنين ، يجمعهم أكثر المشاهد رهبة وإجلالاً " !

وخلال شهر رمضان ، كان بوركهارت يكثر من زيارة قاضى قضاة مكة المكرمة وبعض من علماء الحرم المكى ، للإستزادة من علوم الدين والإفادة بآرائهم .. وأشار بوركهارت إلى أن ليالى رمضان فى مكة لم تشهد مظاهر البهجة الرائعة التى تميز مدن الشرق الأخرى .. وإلى خلو أيام العيد الثلاثة من مظاهر الإحتفالات والتسلية العامة !

إفطار .. مع الملك

فى عام ١٩٣٥ ، وعقب أن أشهر إسلامه الرحالة الأشهر " فيلبي " .. كان في معية الملك " عبد العزيز آل سعود " قادما من " نجد " قاصداً مكة المكرمة ، نزلوا جميعاً عند " السيل الكبير " ميقات الحجيج القادمين من نجد ، فاستبدلوا ثيابهم بملابس الاحرام تمهيداً لدخول مكة المكرمة وأداء مناسك العمرة ،

ثم توجهوا جميعا ـ الملك وحاشيته وفيلبي _ الي قصر " المعابدة " في آخر ليلة من شهر شعبان ،وبعد تناول العشاء ، غادر الجميع القصر ، وبقي الملك مع أسرته ، وتوجه فيلبي الي بيته في " جرول " وراح في نوم عميق ! .. وكتب فيلبي : " أيقظوني في الساعة الثالثة صباحا لأنضم لوزير المالية " عبدالله السليمان " علي الجانب المواجه من الشارع لتناول السحور لصيام أول يوم لي في رمضان ، والذي صادف شتاءاً بارداً خلال أيام يناير القصيرة . وعند الظهر أيقظني جرس الهاتف وكان المتحدث هو الملك ليدعوني للإفطار معه ويسأل عن حالي ، وكان الإفطار تمراً وماءً وعدة أقداح من القهوة قبل صلاة المغرب ، وبعدها نتوزع علي عدة موائد للإفطار ، بعد ذلك تنتظم جلسة مسائية مع الملك تنتهي نحو العاشرة والنصف ، أما جلسات الصباح وبعد الظهر فقد كانت أمراً معتاداً في رمضان ، وكانت تتخللها احياناً زيارة الملك الي الحرم لصلاة التراويح وهي عشر ركعات وركعة واحدة للوتر مع الدعاء الطويل ، وبعد ذلك يعود أهل مكة وجدة لأعمالهم التجارية ويحيلون الليل نهاراً إذ يبيعون ويشترون ويمارسون حياتهم الاجتماعيه حتي ساعة السحور وصلاة الفجر ، وبعدها يذهبون للنوم طويلاً ما استطاعوا لذلك سبيلاً ، وهذه العادات لم تكن مطابقة لما يجري في بعض العواصم الإسلامية مثل القاهرة واستانبول ، وتختلف في مكة عنها في نجد ! ..

وأشار فيلبي الي أن المشاورات السياسية لم تكن لتبدأ إلا بعد نهاية شهر رمضان ، غير أن الأمر إستدعي مناقشة مسودة إتفاقية مع الحكومة الايطالية كان سيوقعها الأمير فيصل – نائب الملك ووزير الخارجية – في روما ، كما كادت تحدث مشكلة سياسية عندما علم " فيلبي " بوصول السفينة المصرية " عايدة " الي ميناء جدة ، وعلي متنها أدميرال بريطاني يعمل في خدمة الملك فؤاد ، ولم يتم إخطار الحكومة السعودية رسمياً عن الزيارة لاصدار الأذن للسفينة ، وصدرت الأوامر الي المسئولين بجدة بعدم الاعتراف بوصول السفينة ومقاومة أي عمل يتصل بمسح الميناء أو التجول فيه وجاءت اعتذارات عديدة للحكومة السعوةدية عبر المندوب البريطاني ، " وانتهت المشكلة بأن أهدي الملك غنماً وأرزاً وخضاراً بكميات كبيرة لطاقم السفينة كإفطار رمضاني " !

ولما قارب رمضان نهايته بدأت العبادات تتركز في لياليه ، خلافاً لما عليه الحال خلال الثلث الأول والثاني من الشهر حيث يكتفي بصلاة التراويح والوتر مباشرة بعد العشاء ، أما في الثلث الأخير من الشهر

فيشهد الجميع المئزر توخياً لليلة القدر (وقد تكون في السابع والعشرين أو التاسع والعشرين من الشهر) التي هي خير من ألف شهر ، وتبدأ صلاة القيام حول منتصف الليل لمدة ساعتين بركعاتها الطوال . وفي أحد الأيام ذهب بعضنا الي مني بعد الظهر وعدنا للقصر للإفطار وصلاة المغرب والعشاء مع الملك صلينا الغرب ثلاثة ركعات كما هو معروف وبعده ركعتين سنة . وذهبنا بعد ذلك الي الحرم لصلاة العشاء التي تسبقها تحية للمسجد ثم نصلي العشاء وركعتين سنة بعده ثم صلينا التراويح عشرين ركعة ولم نصل الوتر ليإتي بعد صلاة القيام . وبعدها حضرت جلسة الملك المسائية ثم خلدت لبعض الراحة بمنزلي وعدت عند الساعة الواحدة صباحاً لصلاة القيام في القصر . كنا نصلي ركعتين تستغرق كل منهما عشر دقائق ، ثم نجلس للراجة لمدة خمس دقائق يتخللها شرب القهوة والشاي ، ثم نعاود الصلاة ونجلس لنرتاح قليلاً كالعادة حتي نكمل الصلاة ونختم بدعاء طويلاً لمدة ربع ساعة يتخللها تأمين من المصلين . وكان الإمام ضريراً سريع النبرة ةقد استغرقت الصلاة نحو ساعتين ، وحضر عدد قليل منا السحور مع الملك ثم انصرف كل منا الي مسكنه استعداداً لصلاة الفجر ثم النوم طويلاً . يلاحظ أن المسلم يمضي أربع ساعات من بين الساعات العشر بين الغروب والفجر في الصلاة ، وبالتالي يمضي أربعين ساعة خلال العشر الأواخر من رمضان في الصلاة ، وتلك عبادة صعبة لدرجة ما ،ولكنها موسمية وليست بسهولة الصلوات الخمس المكتوبة في اليوم والليلة . كما أنها تطوعية وليست مفروضة ، وقد حضرت القيام ثلاث مرات خلال العشر الأواخر ، ولكن الملك كان مثالاً يقتدي به شعبه لأنه واظب علي صلاة التراويح والقيام خلال كل شهر رمضان حتي أكمل الثلاثين يوماً .

رمضان .. على ضفاف البوسفور !

كانت رؤى الشرق تأسر "جيرار دى نيرفال" ١٨٠٨-١٨٥٥م بين ثنايا حكايات ألف ليلة وليلة .. ورحلته إلى تركيا وبلاد الشام ومصر عام ١٨٤٣م ضمنها كتابه "رحلة إلى الشرق" والذى كان مزيجاً من الثقافة الرفيعة والمغامرات الممتعة فى إطار قصصى جذاب وأسلوب ساخر تتخلله الإنتقادات اللاذعة والدعابات الرقيقة ..

فى إستانبول .. تلك المدينة التى تجسد الطابع التركى المتميز ، وتجمع بين "الفخامة والبؤس ، الدموع والأفراح ، الظلم والحرية" وأسواقها تشكل قلب مدينة شرقية ، ومساجدها الرشيقة البناء ، وأدهشته مناظر البوسفور السحرية .. فهو "لم يكن مضطراً ـ مثل الأتراك ـ إلى النوم طيلة النهار ثم قضاء الليل كله فى المتعة خلال شهر رمضان السعيد الذى يجمع بين الصوم واللهو" !..

عبر دى نيرفال عن إعجابه بشارع المساجد الطويل ـ خاصة فى الليل ـ والذى يشكل الشريان الرئيسى للمدينة والذى ينتهى بأسواقها الكبيرة ، وعلى طريق القنطرة التى تعبر القرن الذهبى "لم يكن يخشى السير على ضوء قمر شهر رمضان" منبهراً بالأبراج والأكشاك والحدائق والنافورات ومئات المآذن وتكية الدراويش "المولوية".. وأكد دى نيرفال على أن "الروايات الرائعة التى يقصها الرواة فى أشهر مقاهى إستانبول هى أبرز متع المدينة خلال شهر رمضان وأهم ما تتسم به لياليها من سحر"!.. وهذا المشهد الذى شغف دى نيرفال وجعله يخصص فصلاً كاملاً لهذا الروايات ، كان السمة الأبرز فى مدن الشرق فى ليالى رمضان فى عصر "ما قبل الراديو" !

وبحلول المساء "كان الإيرانيون ـ الذين كانوا كالأتراك ـ يصحبوننى معهم لشهود الإحتفالات التى تدوم ثلاثين يوماً ".. ولاحظ دى نيرفال إقبال الناس على الفاكهة والمرطبات والحلوى خاصة "البقلاوة" !.. وأن الشوارع تغص بالنساء ـ المحجبات ـ والأطفال أكثر من الرجال ، الذين يقضون معظم أوقاتهم فى المساجد والمقاهى .

وكتب دى نيرفال "إن هؤلاء القوم الطيبين لا يكتفون فى سهرات رمضان بالإستماع إلى رواة السير الشعبية ومشاهدة ـ الأراجوز ـ فإن لديهم أوقاتاً للصلاة تسمى : ركعات تراويح ، ترتل فيها آيات من القرآن ، وينبغى فى كل ليلة أداء عشر ركعات (لم يذكر الوتر) سواء فى المساجد وهو الأفضل ، أو فى البيت أو فى الشارع !".. وقال إن المسلم الحق يجب أن يرتل فى كل ليلة قدراً من آيات القرآن ، وأن الإستماع إلى الرواة أو الذهاب إلى المسارح والمتنزهات هو نوع من الترويح عقب أداء هذا الواجب الدينى !

وتحدث دى نيرفال عن الإستعدادت لعيد الفطر ، والإقبال على شراء الملابس الزاهية ولعب الأطفال خاصة ، وقال إن عيد الفطر لدى المسلمين يشبه عيد رأس السنة لدى الأوروبيين .. ثم "هلت ليلة العيد ، ورحل هلال رمضان اللطيف إلى حيث رحلت الأهلة السابقة وثلوج العام الماضى" !

" شريفة الامريكانية " في البحرين :

أما " كورنيلا دالنبرج " فهي واحدة من خدمن بالإرسالية الإنجيلية الأمريكية كأطباء وممرضات ومدرسات في البحرين ، واشتهرت باسم " شريفة الأمريكانية " وقامت برحلات إلي الكويت وإمارات الخليج وعمان وجزيرة العرب ، ومنذ أول رحلة لها إلي البحرين عام ١٩٢٢ ، كانت حريصة على تدوين انطباعاتها في مفكرتها اليومية ، ومثلما سجلت مشاعرها وهي تحتفل بـ " أعياد الميلاد " بين أصدقائها العرب في البحرين ، كتبت أيضاً عن مظاهر شهر الصيام : " صوت انفجار مدافع .. ثلاث طلقات أيقظتني من نومي في منتصف الليل ، كان ذلك دليلاً على بدء شهر رمضان ، شهر الصيام لذدى المسلمين ، هذه المدافع تطلق في الساعة الثالثة والنصف من كل صباح إيذاناً ببدء يوم صيام جديد ، والذي يمتد من الفجر حتى غروب الشمس ، حيث يمتنع المسلمون تماماً عن تناول الطعام والشراب ، ويحرصون على صوم هذا الشهر كاملاً ، حتى يكفر الله عن جميع سيئاتهم السابقة ، حيث يشير النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – إلي أن أبواب جهنم تغلق أثناء هذا الشهر وتصفد الشياطين ، وأولئك الذين يصومون الشهر سوف يدخلون الجنة من باب الديان ... عند المساء ، يقدم العديد من الأطباق في وليمة كبيرة ، وهكذا الحال في كل مساء ، حتى في بيوت الفقراء كانت تعد الأطباق الخاصة التي لا يستطيعون إعدادها في الأيام العادية .. لن أنسى تلك الأيام ، فالمقاهي تعج بروادها ، والقناديل تتأرجح من الأعمدة مضيئة الشوارع والأرض والصحراء القاحلة لمسافات بعيدة ، والناس يأكلون ويشربون ويتزاورون ويخرجون من مقهى إلي مقهى ، وأصوات متباينة تصلنا من مسافات بعيدة خلال الليل ، وتستمر الفرحة وصخب الحياة كل ليلة طيلة الشهر ، ثم تعم السكينة قبيل ساعتين تقريباً من الفجر ، حيث كان يمر المنادي وينادي

بمعاونة طبلة يوقظ بها الناس للسحور ، ثم ينطلق الآذان مرة أخرى معلناً يوم صيام جديد .. " ثم تتذكر فجأة المهمة الأساسية التي جاءت من أجلها ، فتكتب : " أن التقى والإيمان الشديدين بتعاليم الإسلام ، جعلتني أتساءل عما إذا كان بالإمكان أن ننجح في تغيير عقيدة أخواننا المسلمين العرب " !

ادوارد لين بين ليلة الرؤية .. وليلة القدر

يمثل كتاب الرحالة المستشرق البريطاني " ادوارد لين " نقطة تحول هامة في تاريخ الكتابة عن مصر خلال القرن التاسع عشر ، فقد كانت رحلته (١٨٣٣ – ١٨٣٥ م) منذ البداية موجهة للدراسة والاستكشاف ، وخلاصة القول ، أنه خرج بكتاب الرحلة من دائرة الإعلام الي دائرة العمل الفني المطبوع بشخصيته .

أشار " لين " الي أن الليلة التي يتوقع فيها بدء شهر رمضان تعرف ب " ليلة الرؤية " ووصف موكب المحتسب وأرباب الحرف والتجار ، ودراويش الصوفية ، والمشاعلية ، من القلعة الي " بيت القاضي " وعند ثبوت الؤية ، يخترق الموكب يحيط به حشود من الناس : شوارع القاهرة .

وأفاد لين عن الهدوء الذي يسود أسواق القاهرة وشوارعها حتي فترة ما بعد الظهيرة فتفتح المحلات أبوابها ، ويتوجه كتير من الناس الي جامع الامام الحسين للصلاة وتلاوة القرآن والاستمتاع الي درس العصر .. ويتناول المسلمون فطورهم عامة في منازلهم ، فتوضع صينية مفضضة تزينها أطباق المكسرات وبعض الحلوي و " قلل الشربات " كام يوضع عدد من الأطباق والأكواب تحسباً للزوار الذين يحضرون بغتة ، وعقب رفع أذان المغرب ، يتناول رب الدار وعائلته أو أصدقائه اكواب من الشربات وبعض من المكسرات وبعد فترة يتناولون الفطور الدسم من أطايب الطعام ، ثم يتوجه الجميع الي المساجد لأداء صلاة العشاء ثم صلاة التراويح .. وينقلب الليل نهاراً ، ويتدفق الناس الي الشوارع وتنتعش محال الحلوي والمشروبات ، وتزدحم المقاهي بروادها ، يستمعون الي رواة القصص الشعبية وعازفو الربابة ، ويقيم بعض الشيوخ حلقلت ذكر في منازلهم .

كما أفاد لين بأن لكل حي في القاهرة : سـحر خـاص ، يطـوف حـاملاً "بـازاً " أو طبلـة يضـرب عليهـا بعصا صغيرة أو جلدة ، وبرفقته صبي يحمل قنديلاً أو فانوساً من أعـواد النخيـل ، وينشـد بعضـاً مـن المـدائح النبوية ويذكر أصحاب الدور وأطفالهم ،ولا يذكر بالطبع أسماء النسـاء ، قائلاً : " أسعد الله لياليـك يـا فـلان " ، " إصح يا غفلان وحد الرحمن " ..

وأشار لين الاكثار من العبادة في آخر عشر ليال من رمضان ، كما يكثر إزدحام المصلين بالمسـاجد ، خاصـة جـامع الحسـين وجـامع السـيدة زينـب ، وتعـرف ليلـة السـابع والعشـرين بليلـة القـدر .. وأن بعـض دراويش الصوفية يـأتون " بوعـاء فيـه مـاء مـالح ، يتـذوقون طعمـه ، ليـروا إن تحـول الـي مـاء حلـو المـذاق ، فيتأكدون أن هذه الليلة هي ليلة القدر " !

بيـرتـون .. وترقب ساعة الإفطار !

رحـل الضابط والدبلوماسـي والرحالة الأشـهـر خريج جامعة اكسفورد " ريتشارد بيرتون " إلي القاهرة والحجاز عام ١٨٥٣ وقد أشـهر اسـلامه وأدى مناسـك الحج ، ولم يكتب أحد بقدر ما كتب " بيرتون " ولم يكتب عن رحلة مثلما كتب عن رحلته إلي جزيرة العرب .

واكبت رحلته إلي القاهرة شـهر رمضان ، فكتب بأسلوبه المميز : " تبدو القاهرة عند اقتراب ساعة الإفطار – ويا لبطء حلولها – وكأنها أفاقت من غشـيتها ، فيطل الناس من النوافذ والمشربيات ليرقبوا ساعة خلاصهم ! .. بعض الناس يصلون ويبتهلون وآخرون يسـبحون ، بينما آخرون يتجمعون ويتبادلون الزيارات لقتل الوقت حتى يحين موعد الإفطار ...

يا للسعـادة ! .. أخيراً انطلق مدفع الإفطار من القلعة ، وفي الحال يجلجل صوت المؤذن رخيماً جميلاً داعياً الناس للصلاة ، وينطلق المدفع الثاني من قصر العباسـية (سـراي الخديو عباس حلمي الثاني) فتعم الفرحة الصاخبة أرجاء القاهرة الصامتة ، ولا تعدم أذناك المرهفتان لحظة انتقال إحساس الترقب المبهج للسـانك الجاف ومعدتك الخاوية وشـفتيك الواهنتين ، وقد تشرب قلة ماء كاملة ... وتنظر بهدوء مباهج المسـاء !

والفقراء يتناولون افطارهم بنهم تام ، أما الأثرياء فيفطرون بوجبة خفيفة ، بعض من الفاكهة سواء طازجة أو مجففة ، والبعض يفضلون " المهلبية " وعقب أداء صلاة العشاء ، يجلسون لتناول إفطارهم ..

وبينما يتخذ البعض طريقه إلي المساجد لأداء صلاة التراويح ، ينخرط كثيرون في المسرات ، فيجلسون متزاحمين عند مداخل المقاهي يدخنون النرجيلة ويستمعون لحكايات رواة السير الشعبية ، وتظل الأسواق مفتوحة حتى ساعة متأخرة " !

ويشير بيرتون الي أن الفقراء يتناولون طعام الافطار بنهم تام ، بينما الأثرياء يكتفون بقليل من الفاكهة أو الحلوي لأو العصائر ، وعقب أداء صلاة العشاء ثم التراويح ، يتناولون طعام الإفطار .. وفي الليل ، ينغمس الجميع في المتع المتاحة ، وتزدحم الشوارع والأسواق بالناس ، كما تزدحم المقاهي بروادها ، ينهلون المشروبات المحلاة وأقداح القهوة ويدخنون النارجيلة ، ويستمتعون بحكايات الرواة وعازفي الربابة والمنشدين .. وتحدث أيضاً عن جولاته بشوارع القاهرة في ليالي رمضان ، خاصة الطرق المؤدية الي حديقة الأزبكية ، وصخب الزحام الذي يكاد يغطي علي صوت المؤذن في الفجر ، داعياً المؤمنين : " الصلاة خير من النوم " !

انطباعات محمد أسد :

أما العالم والمفكر " محمد أسد " فهو واحد من أهم الرحالة المستشرقين الذين لبوا نداء الإسلام ، والذي رأى فيه " نظاماً اجتماعياً وتصوراً للحياة يختلف اختلافاً جذرياً عن النظام الأوروبي " وكان شاهداً على حصار الغرب للحياة السياسية والثقافية الإسلامية .. في ربيع سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م كانت رحلته الأولى إلي القاهرة ، وسجل انطباعاته عن مظاهر شهر رمضان ، فكتب : " في اليوم الثالث من وصولي ، وعند غروب الشمس ، سمعت صوتاً قوياً لمدفع ينطلق من القلعة ، وأضاءت حلقات من المصابيح في الشرفات العليا لمئذنتي مسجد القلعة (جامع محمد علي باشا) سرت حركة غير عادية في شوارع القاهرة القديمة ، ايقاع يشي باحتفالية ، وصارت الضوضاء في الشوارع أعلى صوتاً ، أرى

وأسمع وأشعر بإيقاع حماسي مختلف في جميع الأنحاء ، كان سبب ذلك ظهور القمر الوليد ، أي بداية شهر عربي جديد ، هو شهر رمضان الذي يتمتع بقدسية خاصة لدى المسلمين ، ففي هذا الشهر يحتفون بذكرى مرت عليها ثلاثة عشر قرناً ، عندما نزل أول وحي على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم ، وفي هذا الشهر يصوم المسلمون صياماً كلياً عن الطعام والشراب ، باستثناء المرضى ، من لحظة انبلاج ضوء الفجر حتى غروب الشمس مدة ثلاثين يوماً تقريباً ، وخلال هذه الأيام يمضي الناس في شوارع القاهرة بوميض خاص في عيونهم كما لو كانوا قد رفعوا إلي مرتبة سامية ، في الثلاثين ليلة تسمع صوت المدافع التي تعلن عن موعد تناول الإفطار أو الإمساك عن الأكل عند الفجر ، وتسمع الإنشاد وحلقات الذكر ، بينما تتألق المساجد بالأضواء حتى الصباح " .

ذكريات أميرة .. فى عمان وزنجبار !

هى الأميرة "إميلى روث" أو سالمة بنت سعيد بن سلطان : سلطان عمان وزنجبار (١٨٠٤ – ١٨٥٦ م) غادرت وطنها عام ١٨٦٧م من أجل أن تتزوج من حبيبها الشاب الألمانى "هينريسن روت" فهجرت حياة القصور والرفاهية ، وعاشت فى ألمانيا ، لكن زوجها توفى فى حادث عام ١٨٧٠م وهى أم لثلاثة أطفال ، فعاشت حياة كفاح شاقة ، تنتقل بين مدن ألمانيا لتكسب بعض المال بتدريس اللغة العربية ، وعانت كثيراً بسبب وضعها الأرستقراطى مما كان يجرح كبريائها .. وهى فى مذكراتها التى كتبتها باللغة الألمانية ، دونت الكثير من الأحوال السياسية والإجتماعية فى مسقط وزنجبار فى عصر السلاطين العرب .. وتصنف "إميلى" بين الرحالات الغربيات ، ولكنها إرتحلت فى ديار أهلها قبل أن ترتحل فى بلاد أوروبا .

كانت إميلى تخاطب القارىء الأوروبى فى مذكراتها ، ولذلك فهى تشرح فريضة الصوم عند المسلمين "والذى لا يجب مقارنته بصيام الكاثوليك بالغ السهولة" !.. وأشارت بضرورة إمتناع ـ الشخص الراشد المعافى ـ عن الطعام والشراب عند سماع طلقة المدفع من سفن السلطان فى تمام الساعة الرابعة صباحاً ، كإشارة ببدء الصوم.. ويلزم الجميع بالصوم حتى العبيد ، وتحدثت إميلى عن الآداب الشرعية فى الصوم وكتبت : "فى هذه الفترة ، يعود المسلم الورع إلى نفسه ويحاول أن يكتشف أخطاءه

الروحية ويصلى طلباً للمغفرة ويجتهد فى فعل الخيرات ، وهكذا فإن لرمضان شيئاً وجدانياً ، معه يصبح الإنسان مهما كان قاسياً : ودوداً متسامحاً قريباً من ربه" ..

وأشارت إميلى إلى سمات الحياة الإجتماعية فى شهر رمضان ، ومنها تناول طعام الإفطار بشكل جماعى ، كما تكثر الزيارات العائلية فى أمسيات تتخللها التراتيل والأغانى الدينية والحكايات وأطباق الحلوى !..

فى الساعة الثانية عشرة ليلاً ، تدوى أولى طلقات المدفع لتهيئة الناس للسحور ، ويوقظ الأطفال الذين ناموا مبكراً .. وأفادت إميلى بأن الضيافة العربية التقليدية تبلغ ذروتها خلال رمضان "إنها الآن واجب دينى ، فكل رب عائلة يطلب من إمام الجامع أن يرسل إليه قبيل المغرب ، عدداً معيناً يشاركونه طعام الإفطار ، ليس فقط الفقراء ، ولكن هذا الأمر يشمل أيضاً الأثرياء ذوى الأصل الرفيع ولكنهم : غرباء يفتقدون أوطانهم!.. وهؤلاء من جانبهم لا يجدون أى غضاضة فى قبول دعوة الفقير المضياف" !

وأشارت إميلى إلى إنقضاء الأيام الأخيرة من رمضان فى الإستعداد للعيد والمشتريات ، فتعكف ربات البيوت على إعداد المعجنات "كعك العيد" وإعداد أو شراء الملابس الجديدة للأطفال ، أما الهدايا المحببة للرجال فهى الأسلحة بأنواعها "وقد يبدو غريباً للأوروبيين أن تهدى المرأة العربية إلى زوجها أو أخيها أو إبنها الراشد أو خطيبها : سلاحاً ثميناً .. ولا يبخل العرب حين يتعلق الأمر بشراء قطعة سلاح جميلة الصنع" !.. كذلك تهدى أيضاً : المصوغات الذهبية والخيول الأصيلة والحمير البيضاء!

كما تحدثت إميلى عن ليلة القدر "ذات القداسة الخاصة : الليلة التى نزل فيها القرآن على النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها يرجو المسلم أن تلبى دعواته الصاعدة إلى السماء مباشرة" .. وطبقاً للتقويم القمرى ، يجب رؤية الهلال الجديد لإعلان إنتهاء الصيام "ولحسن الحظ فإن سماء الجنوب التى تمتد فوق المسلمين صافية دائماً " !

فى الليلة الأخيرة من رمضان ، يعيش الجميع حالة ترقب فى إنتظار ثبوت رؤية الهلال الجديد ، عندها "تدوى المدافع من السفن الراسية أمام قصر السلطان ، ويسود المدينة هرج بهيج ، ويتبادل الجميع التهنئة : عيد مبارك" !

رمضـــــان .. في الأدب المصري المعاصر

عـــرض أدباؤنا في إبداعاتهم لكثير من التقاليد و العادات الموروثة وأنماط الحياة في مجتمعنا ، ومنها مظاهر الاستعداد و الاحتفاء بشهر رمضان – على الرغم من ندرتها – إلا أننا نجد أديبنا العالمي " نجيب محفوظ " قد استعرض استعدادات أسرة مصرية لهذا الشهر الكريم من خلال رائعته " خان الخليلي " فكانت لوحة متميزة غنية بالتفاصيل وتشابك العلاقات الإنسانية ، ثرية بالأضواء والظلال ، عامرة بنبض الحياة .. كما أفسح لنفسه المجال لتخليد صورة مصرية مليئة بالدفء و الحميمية .. تنسحب رويداً و بهدوء من واقعنا المعاصر !

نجيب محفوظ و .. " خان الخليلي " :-

إلـــي هذا الحي العتيق .. بكل ما يملكه من رصي تاريخي و فني ضخم ، أنتقلت أسرة " عاكف أفندي " من حي السكاكيني – هرباً من غارات الألمان خلال الحرب العالمية الثانية – و هو ما فسره رب الأسرة في تبريره لهذا الانتقال : " هـــذا الحي في حمى الحسين – رضوان الله عليه – و هو حي الدين و المساجد ، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام و هم يخطبون ود المسلمين " !

هنـــــا في جوار المشهد الحسيني ، و المآذن و القباب تملأ أجواء القاهرة المعزية وحيث الحي الشعبي القديم مازال يحتفظ لليد البشرية بقديم إبداعها في المهارة و الفن .. دارت أحداث رواية " خان الخليلي " .. و كانت هذه المشاهد الخاصة بالاستعداد لشهر رمضان فيقول نجيب محفوظ : " .. وأقترب رمضان ، فلم يعد يفصل بين هلاله و بين الطلوع سوى أيام قلائل ، ولكن رمضان لا يأتي على غرة أبداً ، و تسبه عادة أهبة تليق بمكانته المقدسة ، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك ، وكانت في الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر و جماله ، فجعلت منه يوماً حديث الأسرة ، قائلة : أنه شهر له حقوقه كما له واجباته ، وكان قولها موجهاً لأحمد (أبنها الموظف بوزارة الأشغال) فأدرك مغزاه ، وقال مدافعاً عن نفسه :

- رمضان له حقوقه ما في ذلك من شك ، ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق !

فقالت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياح :

- لا قطع الله لنا من عادة !

فاستيقظ لخله وقال بشيء من الحدة :

- ليمضي رمضان كما مضى غيره من الشهور ، وسنعوض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيام السلم !
- والنقل والكنافة و القطايف ؟!

و وقعت هذه الأسماء من نفسه موقعاً ساحراً – على استيائه – لا لاشتهائها فحسب – ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا ٠٠ فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان في قلبه :

- لندع الكماليات في ظروفنا الحضارة القاسية ، ولندع الله الكريم أن يعيننا على ضروريات الحياة ، وكان اعتماد الأب " عاكف أفندي " على ولده أحمد ٠٠ فأشفق عليه وقال :
- حسبنا قليلاً من الصنوبر و الزبيب لضرورتهما في الحشو ، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق ، و لنقنع من الكنافة بمرة واحدة ، ومن القطايف – وهذه لا تقلى بالسمن – بمرتين وليس ذلك عليك بكثير .

فهاله الأمر وأيقن أنه سينفق في هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر بالرغم من ضآلته ! ٠٠ غير أنه تذكر شيئاً لا يقل خطورة عن الكنافة و النقل فقال : واللحوم ؟!

فقالت أمه بما لها عليه من دالة :

- سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم ، و ما ذلك إلا أن قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك ! "..

وانشغلت الأم في الأيام الباقية بتهيئة المطبخ و تبييض الأواني وتخزين ما تيسر من النقل و السكر و البصل و التوابل ، وكان لمقدم رمضان في نفسها فرحة وسرور "فرمضان هو شهر المطبخ كما أنه شهر الصيام " أو لأنه شهر الصيام ٠ وأجمل من هذا أنه شهر الليالي الساهرة و الزيارات الممتعة ، حيث تدور الأحاديث على تسالي اللب والجوز والفستق .

" .. وجاء مساء الرؤية ، و انتظر الناس بعد الغروب يتساءلون ، وعند العشى أضاءت مئذنة الحسين إيذانا بشهود الرؤية – وقد اجترءوا بالإضاءة على إطلاق المدافع لظروف الطوارئ – و ازينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لألأ ، فطاف بالحي و ما حوله جماعات مطبلة هاتفة " صيام .. صياح .. كما أمر قاضي الإسلام " ! .. فقابلتها العلماء بالهتاف والبنات بالزغاريد و شارع السرور في الحي كلـــه .. "

وكان أحمد عاكف يتابع من النافذة ، فلم يتمالك أن يقول :

- أين من رمضان شارع قمر (حيث مسكنهم القديم بالسكاكيني) هذا الرمضان البهيــج ؟

فابتسم والده و قال : وماذا رأيت مما رأيت يا غلام ؟ .. أشهدت رمضان في حينا الجديد هذا قبل اندلاع الحرب ؟ ٠٠ أنه النور و السرور ، أنه الليل المنير اليقظان ، أنه الليل العامر بالسمار و المنشدين و اللهو البريء ، وفي أيام الفتوى والصحة ، كنت أسرى قبيل السحور بساعة في جمع من الأخوان من السكاكيني إلي حينا هذا ، نتسحــــــر كوارع ولكم رأس وندخن البوري في مقهى الحسين ، و نستمع إلي أذان الشيخ على محمود ثم نعود مع الصباح الباكر ..

- ثم مضى أحمد – كعادته الجديدة – إلي مقهى الزهرة ، ليجتمع بأصدقائه حيث دار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها ، فقال عباس بصوته المبحوح :

- لا تتعبوا أنفسكم في التفكير ، فلنا في سهرات رمضان الماضية أسوة ، نجيء إلي قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل إلي " هناك " لنصل سهرتنا بالسحور !

و تنبـــه أحمد إلي " هناك " هذه ! .. وتساءل : ترى هل يستبيحون المنكر في شهر التوبة ؟ على أن سبيله كان واضحاً ، حيث قرر السهر معهم بالمقهى يتسامر و إياهم حتى يعود إلي بيته فيمارس هوايته المفضلة في القراءة حتى السحور ، و هكذا إلي أن يختم الشهر .

و روى نجيب محفوظ كيف كابد أحمد عاكف في اليوم الأول من أيام الصيام ، وقد شق عليه ألا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الريق .. وعندما عاد من عمله إلي البيت و قد أنهكه التعب ، فاستلقى على فراشه وراح في نوم عميق صحا منه قبيل الفطار بساعة واحدة ، و في طريق عودته من الحمام شاهد والده في حجرته متربعاً على سجادة الصلاة يقرأ في المصحف ، بينما أمه في المطبخ قد شمرت عن ساعديها ، فوقف عند عتبة المطبخ و جال ببصره متشمماً الروائح الزكية ، وطاف بطبق كبير حافل بعناصر السلاطة الخضراء " خضرة يانعة و حمرة فاقعة ! " فانشرح صدره وتحلب ريقه . وأنتقل إلي "سلطانية الفول " فلم يستطع صبراً و زايل مكانه ، و في الصالة مر بسفرة الطعام و قد هيئت ، فوضع العيش على ركن منها و فرقت أمام كراسيها أكواب الماء و توسطها طبـــق ملآن بالفجل ! .. فهرع إلي حجرته ، وفتح النافذة ليقطع الوقت المتبقي بالنظر ، و قد أوشك الطريق أن يخلو إلا من باعة الزبادي .. و من خلال النوافذ المفتوحة للبيوت المقابلة ، شاهد موائد الطعام الحافلة و على الشرفات انتظمت " القلل " لتبرد ، و تناثرت أطباق الخشاف و أتى الهواء بروائح التقلية .. " فتاه في دنيا الطعام الساحرة " ! ..

وحـانـت اللحظة المرتقبة .. فدوى المدفع ، وتصايح الأطفال في الحارة ، وانساب صوت المؤذن جميلاً رائقاً " الله أكبر .. الله أكبر " .. والتف ثلاثتهم حول السفرة " ثم غيروا ريقهم على عصير قمر الدين

حتى رووا ظمأهم ، و أتت الأم بطبق الفول المدمس فأقبلوا عليه بنهم شديد و تركوه أبيض من غير سوء " ! فقال الأب :

- أظن الأوفق أن ندخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الأخرى وإلا امتلأنا به وحده !

فقالت الأم ضاحكة :

- هذا ما تقوله كل عام و لكنك لا تذكره إلا عقب الفراغ من الفول !

ولكـــن لم يزل في البطون متسع فجيء باللوبيا و الفلفل المحشو و اللحم المحمر ، وتعاونت الأيدي والأعين و الأسنان في عزم وسكون ! ..

وقبيـــل العشاء ، غادر أحمد البيت إلي مقهى الزهرة والتقى بأصحابه ، فراحوا يتسامرون ودار الحديث عن الصيام ، تخلله التندر على " أصحاب الكيف " !

" **ثـــــم** راح كمال خليل يتحدث عن ليالي رمضان منذ أقل من ربع قرن ، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقاليد الدينية ، و كيف كانت بيوت السراه تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين ، و تستقرئ مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر " !

وتمضـــي السهرة بالأصدقاء .. حتى مر بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالفوانيس .. هاتفين بأناشيد رمضان سائلين العادة " !

ولمـــــا خلا أحمد عاكف إلي نفسه في حجرته .. تناسى أحاديث شلة المقهى .. غير أنه لم يستطع أن يصفو للمطالعة ، لكنه ظل عاكفاً على كتابه ، فقد كان حريصاً أشد الحرص على ألا يمضى يومه بغير ثقافة يتزود منها ..

وتـــذكـر – فيما يشبه الدهشة – أن شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه ، ففي شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحب الأولى .. إحساس عجيب لا يتأتى الشعور بجدته مرة أخرى ، وفيه رأى الفتاة التي رغب

صادقاً أن يشاطرها حياته و أخفق ، و ها هو ذا رمضان من جديد ، و ها هو ذا قلبه ينفض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعاً دافئاً منعشاً ، و كان يلتمس وراء المصادفات حكمة خفية والأحلام هي الفن الوحيد الذي أتقنه في دنياه ! ٠٠ وغمغم في حيرة وسرور : " ماذا وراءك يا رمضان " ؟!

" **ثـــم** كانت ليلة القدر من الشهر المبارك ، فاحتفلت بها الأسرة احتفالا بدا في الدجاجة المحمرة التي ازدانت بها سفرة الإفطار و صينية الكنافة ... وراحت الست "دولت" تدعو لبعلها بالصحة و لولديها بطول العمر والسعادة .. أما عاكف أفندي – الأب – فذهب إلي مسجد سيدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القراء بالليلة المفضلة فكانت ليلة سعيدة ! ..

وجمعـت مائدة رمضان الأخيرة أسرة عاكف أفندي .. وقد انضم إليهم " رشدي " الابن الأصغر عقب عودته من مقر عمله بأسيوط .. و تبادل مع أخيه أحمد أخبار الحرب – الحرب العالمية الثانية – والغارات التي انتقلوا بسببها من حي السكاكيني إلي خان الخليل ورحاب سيدنا الحسين .. وتحدثا عن عالم الفكر والكتب والتأليف – أمنية أحمد عاكف – ولبثا يتحدثان حتى انطلق آخر مدفع إفطار .. فقدمت الأم صحاب السمك التقليدي وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ..!

في رحاب السيدة زينب :-

حـــي السيدة زينب الأكثر عراقة و تميزاً بين أحياء القاهرة الإسلامية ، فكان في ذلك العصر " حي الأغنياء الذين لا يعرفون كيف ينفقون ثرواتهم ، وحي الفقراء الذين لا يجدون قوتهم " ! لكن البيوتات القديمة ذات الأصول ظلت محتفظة بتقاليدها رغم عوادي الزمن ٠٠ وميدان السيدة زينب قد اجتمع فيه القديم و الجديد ، والدين والدنيا ، والطهر والفساد في هدوء وانسجام كأحسن ما يكون التعايش و الوئام ! ..

ومسجـد السيدة الطاهرة زينب ، تتسامى منارته في رشاقة نحو السماء ونفحات عقيلة بني هاشم تعبق الأجواء ، وعلى مدار العام ، يأتي أحبابها بالملايين من كل حدب وصوب ، كثير منهم

يفترشون الغبراء ويلتحفون بالسماء .. يكفيهم قرب الست .. ولمسهم لمقصورة ضريحها ن متوسلين في رجاء حاج بأم هاشم .. أم العواجز .. بنت الإمام و أخت الإمام ..

وفـــــي رحاب مسجدها العامر ، يخيل إليك أن النور قد غسل الناس من أحزانهم وأحقادهم ، يغمرهم شعور بالسعادة و الرضا !

وكمـــا كان لحي السيدة صفحات رائعة في تاريخ المقاومة الشعبية للاحتلال البريطاني .. فقد كان أيضاً وطن الطفولة وملاعب الصبا ومطالع الشباب لكثير من أعلام مصر في السياسة و الأدب و الصحافة و الفن .. أذكر – على سبيل المثال الشاعر على الجارم ، إبراهيم المازني ، مصطفى لطفي المنفلوطي ، عبد العزيز البشري ، يحيي حقي ، فتحي رضوان .. وفيه عاش الأديب الكبير توفيق الحكيم ثلاث سنوات من صباه قبيل ثورة ١٩١٩ في بيت أعمامه بشارع سلامة خلف جامع السيدة زينب ، هذه الفترة التي خلدها في رائعته " عودة الروح " أيضاً شيخ الصحفيين حافظ محمود .. وكاتبنا الكبيـــر كامل زهيـــري ..

يحيي حقي .. قنديل حي السيدة :-

فـــــي حارة " الميضة " ولد الأديب الجميل " يحيي حقي " .. وعاش فترة صباه في رحاب السيدة الطاهرة ، هذه الحارة التي اندثرت حيث دخلت في توسعة جامع السيدة زينـــب في الستينيات ، كتب يحيي حقي عن القاهرة الألفية " أم المآذن والقباب ، ومساجد آية في الجمـــــال .. مزار أهل البيت .. لا ينقطع الطواف حولها والتمسح بأعتابها ، هنا أعياد مولد النبي و رؤية هلال رمضان ، وجبر الخليج وطلعة المحمل وفنجرة شم النسيم ، ومواكب الطوائف و أبو الغيط ، ومواكب الطرق الصوفية بالبنادر و الدفوف والبيـــارق " ! ..

وفـــــي هذا الحي ، أبدع يحيي حقي رائعته الخالدة " قنديل أم هاشم " .. حيث الأسرة المصرية البسيطة تحتفي بالابن العزيز " إسماعيل " العائد من " بلاد بره " حيث درس الطب ، وبرع أديبنا

في تصوير ما يجول في نفس بطل الرواية من مشاعر نحو هؤلاء الناس ، و هو الذي عايش في إنجلترا مجتمعاً مغايراً تماماً لمجتمعه الشرقي ، فتضاربت القيم و العقيدة بداخله و تنازعته الأفكار و الأهواء ، و هو الذي " نشأ في حراسة الله ثم أم هاشم ، حياته لا تخرج عن الحي و الميدان " .

ويـأتـــي أول رمضان على " إسماعيل " عقب عودته من إنجلترا .. " فما خطر له أن يصوم ، ابتدأ يطيل وقفته في الميدان ويتدبر .. ويحدث نفسه : لماذا خاب ؟ .. ودار بعينيه في الميدان .. ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين ، ابن البلد يمر أمامه وكأنه خارج من صفحات الجبرتي " !

وحلـــت ليلة القدر .. " فانتبه لها إسماعيل ، ففي قلبه لذكراها حنان غريب ، ربي على إجلالها و الإيمان بفضائلها و منزلتها بين الليالي ، لا يشعر في ليلة أخرى – حتى و لا ليالي العيد – بمثل ما يشعر به فيها من خشوع و قنوت لله ، هي فى ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليل .. أين أنت أيها النور الذي غبت عني دهراً ؟ وغاب لحظة في أفكاره " لقد زالت الغشاوة .. لا علم بلا إيمان " .. إيمانه ببركة أم هاشم !

ودخــــل إسماعيل مقام الست الطاهرة – مطأطئ الرأس – وضوء خمسين شمعة قد زينت جوانبه .. و رفع بصره فإذا القنديل في مكانه يضيء كالعين المطمئنة التي رأت وأدركت و استقرت .. خيل إليه أن القنديل و هي يضيء : يومئ إليه ويبتسم !

وجـــــاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته و أخباره ، فيميل عليه إسماعيل قائلاً :

- هذه ليلة مباركة يا شيخ " درديري " أعطني شيئاً من زيت القنديل !!
- والله أنت بختك كويس .. دي ليلة القدر .. و ليلة الحضرة كمان !

فتحي رضوان .. ومسحراتي شارع سلامة :-

كـــــان فتحـي رضـوان ، وزيـر الإرشـاد القـومي فـي بدايـة عهـد ثـورة يوليـو ، والمحـامي والكاتـب الوطني الكبير ، من سـكان شـارع سـلامة ، وسـطر بقلمـه صـفحات رائعـة عـن حياتـه وذكرياتـه فـي حـي السيدة زينب في كتابه " الخليج العاشق " ..

وعــــن ذكريـات رمضـان فـي شـارع سـلامة ، كـان لفتحـي رضـوان هـذه الصـورة التـي رسـمها للمسحراتي ، فقال :

" **هــــي** ظاهرة معروفة لكل مصري في القاهرة وفي غيرهـا ،تلـك ظـاهرة المسـحراتي والـذي يطوف بطبلة صغيرة في إحدى يديه و جلدة في يده الأخرى يدق الطبلـة بالجلدة في ليـالي رمضـان داعيـاً إلي الاستيقاظ ، و تناول السحور و لكن مسحراتي شارع سـلامة و مـا حولـه كـان شخصـية فنيـة فـذة ، لا يضارعه في سحر غنائه مسحراتي آخر ، ممن سمعت في أحياء مصر و إسكندرية و طنطا و بني سـويف و أسيوط ، و هي بلاد أقمت فيها وصمت خلال إقامتي بها شهر رمضان ، و سمعت صوت المسحراتي ، فلـم أسمع فيها جميعاً صوتاً لمسحراتي ، كهذا الذي كان يوقظنا في الليل البهـيم ، فـي شـارع سـلامة لتنـاول طعامنا و لم يكن صوته عذباً ، إنما كان صوتاً حياً منعشـاً فياضاً بالبهجـة ، كـان صـاحبه شـاعراً شـعبياً يـنظم المعاني الجميلة ، في ألفاظ جميلة ، و يحيي بها أهل كل بيت وكان لدينا قط نحبه جميعـاً أسـمه " أصـلان " فطلبت إلي هذا المسحراتي الفنان أن يحييه فيمن يحييهم من أهل البيت ، و هو لا يدري أنه قـط ، فـراح طوال شهر رمضان يصف كل ليلة أصلان هذا وصفاً لو أدرك القط معناه لتدلل علينا فوق دلاله ، كان يقول لـه : " يا سي أصلان بك ، يا بن الكرم و الجود يا للي يمر عليك رمضان بـالفرح ويعـود ، وريحتـك الحلـوة فايحـة زي الورد و العود " ..!!

الحكيم .. والأسطى حميده .. في رمضان !

فــــي كتابـه " أهـل الفـن " .. و الـذي أهـداه إلـي " الأسـطى حميـده الإسـكندرانية .. أول مـن علمنـي الفـن " ! .. عـرض أديبنـا العمـلاق " توفيـق الحكـيم " لطائفـة " العـوالم " بأسـلوبه الأدبـي الفـذ ..

كاشفاً عن جوانب من أسرار هذا العالم .. وبالرغم من مرارة الحياة سعياً وراء الرزق .. إلا أن السمات البارزة لهذا العالم – أو على الأقل بالنسبة لجوقة الأسطى حميده – ستظل أصالة الفن وخفة الدم .. فتبتهج القلوب وتنتعش الأرواح !

كـــــان " الحاج محمد " المطيباتي – متعهد الأفراح قد اتفق على تحيي جوقة الأسطى حميده فرحاً بمدينة الإسكندرية – خلال شهر رمضان – وكان في وداع الفرقة بمحطة مصر ..

و وقف على الرصيف بجوار إحدى نوافذ عربة الدرجة الثالثة .. " يجفف عرقه ويسعل سعال أصحاب الكيف .. الذين يعيشون بأنفاس التعميرة " ! .. ثم صاح :

- يا .. الله .. رمضان كريم !

وألقى نظرة اطمئنان سريعة على الأسطى حميده وجميع أفراد التخت وقد انحشرن في مقعدين متقابلين ، تتوسطهن صرر الآلات .. ثم قال :

- أديني بلا قافية رستأتكم في ركن معتبر ! .. خليكو بقا كده بإذن الله لحد محطة سيدي جابر

فرفعت الأسطى حميده يديها إلي السماء وقالت :

- شي الله يا سيدي جابر .. الفاتحة يا ولاد لسيدي جابر !..

إلهي يجبر بخاطرنا .. بسره الباتع .. إلا يا حاج محمد .. دي المستعجلة دي ولا المفتخر ؟!

- المستعجلة .. هو من غير مؤاخذه المفتخر يبقى فيه " ترسو " ؟!
- هلبت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور ..
- على ابو التسعين .. حاتلاقوا حد من طرف بيت الفرح مستنظركم على المحطة .

وعندئذ رنت ضحكة سخرية من سلم " الرقاقة " العاجزة أردفتها بقولها :

- وأن ما كانش حد في استنظارنا يا ادلعدي .. دي ساعة فطار وكل من كان همه في بطنه !..

فالتفتت إليها الأسطى حميده وقالت :

- النبي تنسدي .. وتحطي على ميلتك برش .. العلوان معايه ..

وهنا دق جرس المحطة الأول فصاح جميع أفراد التخت في وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب :

- نشوف وشك في خير يا حاج محمد ..

ولكن الحاج محمد أشار إليهم بالسكون :

- هس .. لسه .. هس سمع .. لسه فاضل كمان من غير مؤاخذه جرس ..

ثم سعل وبصق وصاح :

- يا .. الله .. رمضان كريم !

فقالت الأسطى حميده و هي تبتسم بخبث :

- بحق يا حاج محمد .. دا أنت صايم .. إلهي يصبرك ..

فلم يجب الحاج محمد .. و لم يتنبه إلي ابتسامات الخبث والسخرية التي تبودلت بين جميع أفراد الجوق .. واستمر يتمتم بذكر الله والصيام ..

وفي هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد :

- هه .. يا جماعة .. مش لازمكم حاجة ؟..

فصرخت سلم الضريرة :

- حاج محمد .. يا حاج محمد .. لازمنا قلة ميه ..

فأجاب الحاج محمد منتهراً :

- قلة ميه إيه .. إحنا في رمضان يا وليه اتقي الله .. واختشي على عرضك ؟..

فهزت نجيه " الطبالة " رأسها وقالت :

- حكم .. بقا الميه يا حاج محمد و لا التعميره ؟!

فصاح الحاج محمد بغضب :

- تعميرة إيه يا مره ؟.. وحق صيامي ..

فقاطعته نجية :

- صيامك ؟ .. صيامك أنهو ده يا روحي .. ما تقولش كده أمال .. دانا شايفاك بعيني الصبح في إيدك الجوزة وقاعد تكح و تنبر ! ..

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الأسطى حميده مغيرة مجرى الحديث فضاً للنزاع .. وقالت بعد أن غمزت " الطبالة " نجية بطرف عينها :

- الحاج محمد صايم زي مانا صايمه ..

وهنا دق الجرس الأخير .. و علا الضجيج من كل جانب ..

وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت :

- نشوف وشك في خير يا حاج محمد .. وبين صياح الحاج محمد :
- مع السلامة ..

جلس أفراد التخت برهة من الزمن في سكون عميق كأنما فراق مصر و لو لمهمة قصيرة المدى أدخل على نفوسهن أثراً محزناً و وحشة مؤثرة ..

فقالت سلم العاجزة :

- كلها بكره ونرجع تاني لبلدنا

وقالت نجية " الطبالة " بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالي :

- وهي إسكندرية وحشه ؟ .. و النبي إسكندرية روح ..

وقالت فاطمة " الرقاصة " وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالي الملاصق :

- إسكندرية مريه وترابها زعفران ..

وهكذا أخذ يسري عن الجميع .. و تتلاشى آثار الوحشة .. فعاد الصفاء إلي وجه الأسطى حميدة وقالت :

- سلم .. لفي لي سجاره ..

تناولت سلم علبة الدخان و جعلت " تلف " سجاره بينما أخذت الأسطى حميده تلتفت حولها متصفحة وجوه المسافرين .. ثم نظرت إلي فاطمة و نجية وقالت بتهكم :

- حسره و ندامة على دول ركاب !

أصابت الأسطى حميده .. في الواقع أغلب الركاب كانوا من الصعايدة و الفلاحين ومع ذلك فأن الأسطى حميده بعيونها الكحيلة لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالي الملاصق أصحابه أربعة : ثلاثة أفندية .. ورابع يرتدي " بنش " وطربوشاً .

وإذا أرادت الأسطى حميده أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن هؤلاء الأربعة من حين أن تحرك القطار لم يفتروا لحظة عن النظر إليها و إلي هيئة التخت ما عدا سلم " العمياء " وإذا أرادت الأسطى حميده إفصاحاً فلتسل عيون نجية وفاطمة ..

" لفت " سلم السجارة ثم دقت على صدرها قائلة :

- يوه .. يا ندامة الشوم .. ما معناش كبريت ! ..

وفي هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ودق على جدار العربة " بكماشته " وصاح :

- تذاكر قليوب ؟..

فصاحت سلم وهي تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

- يا حضرة المفتش .. ما معاكش كبريت إلهي ما تغلب لك وليه ؟!

فأجاب المفتش ببرود :

- كبريت إيه ؟..

فقالت الأسطى حميدة متلطفة :

- ما تآخذناش بس نولع السجارة ..

فقال المفتش بتحفظ وبغير أن يلتفت نحوهن :

- انتم فاطرين رمضان ولا إيه ؟..

وكان قد وصل إلـي المقعد التـالي الملاصق فسـرعان مـا تنحـنح " لابـس البـنش " ورأى الفرصة سـانحة للكلام فقال :

- الفطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش

فلم يجب المفتش .. بل لزم بروده وتحفظه .. وجعل يؤدي أعمال وظيفته بجد جاف .. إلي أن ابتعـد .. فالـت الأسطى حميده :

- يا سم على ده مفتش !!

فتنحنح " لابس البنش " وقال :

- ما هو اللي زي ده من غير مؤاخذه فاهم نفسه الحكومة

فصادقت فاطمة على كلامه .. ثم أخذ الجميع " العوالم " من جهة و " الأفندية " من جهـة أخـرى يتحـدثون لحظة على حساب هذا المفتش .. إلي أن قال أحد الافندية :

- جرى خير .. الحمد لله ..

وقال الثاني بلطف :

- الكبريت معانه يا ستات ..

وزاد الثالث :

- ومعانه سجاير كمان ..

ثم تنحنح " لابس البنش " وقال :

- حضرتكم نازلين فين .. ولو فيها رزالة ؟..

فردت سلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجاير :

- سيدي جابر يا ادلعدي

فصاح الرجال :

- زينا بقا .. سكه واحدة إنشاء الله .. إحنا نازلين إسكندرية ..

وأضاف أحد الافندية :

- الليلة باذن الله نصلى التراويح في سيدي أبو العباس ..

مـــا غادر القطار محطة قليوب حتى كانت العلاقة قد استحكمت تقريباً بين اصحاب المقعد التالي الملاصق وبين هيئة التخت .. فتنحنح " لابس البنش " وقال :

- بقا يا أسطى حميده صلي على النبي ..

فقالت : اللهم صلي وبارك عليه ..

فاستطرد " لابس البنش " :

- بقا احنا ولا مؤاخذة ناس صايمين و الصايم له الحق في التسالي .. و الا أنا غلطان ؟!

وأردف أحد الافنديه :

- والله تكسبوا فينا ثواب !!

وزاد آخر :

- لأ .. و كمان يبقى زكا عن فطاركم ..

فأجابت الأسطى حميده وهي تزجج حاجبيها بعود ثقاب :

- صوتي مبحوح شويه ..

فقال " لابس البنش " :

- صوتك المبحوح ده سلطان الطرب ..

وقال أحد الافندية :

- أنا عايز اسمع : " في العشق قضيت زماني " لأن نعيمه المصرية ..

فقاطعته الأسطى حميده صائحة باحتقار :

- يا دهوتي .. نعيمة المصرية تعرف تقول : " في العشق قضيت " !!

فقال الأفندي بخبث :

- ما أنا بقول كده برضه !

وهزت سلم رأسها ثم قالت :

- يا حضرة الافندي اللي يسمعنا ما يسمعش نعيمة المصرية !

فقال الافندى :

- يا اسطى حميدة .. أنا محسوبك .. التقل على الصايمين حرام !

وبين رجاء الافندية وإلحاحهم .. أجابت الأسطى بدلال وتقل " بنت الكار " :

- حاضر .. إمسكي الرق يا سلم ..

وسرعان ما دوى في العربة صوت هيئة التخت بأكملها مع الآلات جميعها من عود ورق ودربكة :

في العشــق قضيــت زمـانــي

وهمـي اليـوم .. يكفـانـي !

فـي بيتنــا رجــل .. !

هـــــذه الرواية الشهيرة للأديب الكبير الراحل " إحسـان عبـد القـدوس " .. والتـي أرخـت لمرحلـة من الكفاح الوطني ضد الاحتلال البريطاني .. تدور وقائعها خلال شهر رمضان .

بطـــــل الرواية " إبراهيم حمدي " الذي قام باغتيال عبد الرحيم باشا شكري " رجل الإنجليـز فـي مصـــر " وقبض عليه و هو يحاول الهرب .. و " ضجت مصر كلها من حوله ، وأصبح اسـمه علـى كـل لسـان ، وصورته على الصفحة الأولى من كل جريدة و تطوع كثير من المحامين للدفاع عنه .. بنـات و شـباب يكتبـون له ويباركون اليد التي أطلقت الرصاص .. وعرف من خلال هذه الضجة أنه قد أصبح بطلا.."

هــــــو نفسه لم يتعمد أبداً أن يكون بطلاً .. و لـم يتخيـل أبـداً أن صـورته سـتحتل يومـاً الصـفحات الأولـى و أن الدولـة كلهـا ستقصـر اهتمامهـا عليـه ! .. و لكـن مـاذا يجديـه أن يعتبـره النـاس بطـلاً ؟ .. أنـه سيموت !! .. سيعلق في حبل المشنقة و وسام البطولة معلق على صدره !

لــــــم يعد يفكر سوى في الهرب .. و لكنه لن يسـتطيع الهــــرب مـن داخـل السـجن .. قرر أن خير طريق للهرب أن ينتقل إلى مستشفى قصر العيني وأدعى أنـه يصـاب بأزمـات فـي الكلـى .. و نشـرت الصحب أنباء مرضه و تتبعها الرأي العام واتهم الحكومة بإساءة معاملتـه فأرسـلت لـه طبيـب السـجن ، كمـا أرسـل له أهله طبيباً خاصاً ، وقرر الأثنـان ضـرورة نقلـه إلـي مسـتشـفى قصـر العينـي .. ويوضـع فـي غرفـة

خاصة تحت الحراسة في الوقت الذي بدأت فيه النيابة تعد تقريرها .. كان ذلك في أول شهر رمضان .. و"منذ اليوم الأول بدأ في تنفيذ خطته .. "

و وقــــع ضابط الحراسة الشاب تحت سيطرة الوجه المريح الهاديء .. ثم بدأ بطلنا يكتسب ثقة الجنديين أيضاً .. كان يعاملهما باحترام ويغدق عليهما بكل ما يصله من نقود و طعام وسجاير .. اطمئنوا إليه جميعهم .. وزاد في اطمئنانهم أنهم أحبوه !!

فــــــي ذلك اليوم .. كان قد أجهد ذهنه في تحديد المكان الذي لجأ إليه عقب هربه مباشرة.. و تذكر " محيي الدين مصطفى " زميله في الدراسة و أول دفعته .. وابتسم وهو يتخيل محيي عندما يلتقي به .. و ماذا لو رفض إيواءه .. محيي إنسان يزخر قلبه بالوطنية " لكنه عاجز عن تجسيم عواطفه في عمل إيجابي " .. وهو في هذه الحال من التفكير العميق .. يسمع نقراً على باب غرفته .. ثم أطل أحد الجنديين برأسه وابتسامته الواسعة تختفي وراء شاربه ، قائلاً

- موش لازمك حاجة يا أستاذ إبراهيم ؟

واعتدل إبراهيم في جلسته ثم قال :

- كتر خيرك يا شاويش .. بس خد البطيخة دي تحلو بيها بعد الفطار ..

وأشار إبراهيم إلي بطيخة موضوعة فوق الدولاب ..

ودخل الباشاويش إلي الغرفة متجهاً إلي البطيخة وهو يقول :

- لا والله .. لا يمكن !! ..

وقـــام إبراهيم من على مقعده ، كأنه يؤدي عملاً روتينياً ، واتجه إلي الدولاب وحمل البطيخة ، وقال وهو يناولها للباشاويش :

- والله انتم أحق بيها مني .. على الأقل أنتم صايمين .. خد يا شيخ ، ما فيش تكليف ! ..

- يا سلام عليك يا سي إبراهيم .. كلك كرم !

وخـــــرج بالبطيخة ، وأغلق الباب وراءه .. و أخذ إبراهيم يروح و يجيء في الغرفة وهو يشعر بهواء بارد يملأ صدره .. أن هذا الهواء البارد لم يهب عليه من قبل عندمـــا كان يقـــدم على مغامراته الوطنية .. و لكنه الآن و هو يهرب يحس بالهواء البارد .. ويخاف احتمال الفشل .. أن الهرب أقصى و أشق من الهدوم .. شيء لم يكن يعلمه ..

وتنبه على طلقة مدفع الأفطار ..

وأنتظـــــر حتى انتهى المؤذن من آذان المغرب .. ثم فتح باب غرفته ، والتقى بالجنديين وقد جلس كل منهما على مقعد و ركن بندقيته على الحائط ، وتوسطهما مقعد ثالث وضعا عليه طعام افطارهما ، و صاح أحد الجنديين بمجرد أن رآه :

- اتفضل يا سي إبراهيم بيه !

وقال إبراهيم و هو يضغط على كلماته كأنه يخشى أن تفر منه و تكشف عن نياته :

- عشت .. أما أروح أدور على واحد من الدكاترة يكون فاطر زيي !

ثـــــم اتجه إلي الغرفة التي يجلس فيها الضابط و كان هو الآخر يتناول إفطاره ، وصاح في لهجة حلوة بريئة ، فيها من الحلاوة و البراءة أكثر من اللازم .. صاح و هو واقف على بابها :

- بالهنا و الشفا !

وصاح الضابط :

- تعالى يا إبراهيم .. تعالى أقعد معايا !

و وضع إبراهيم ضحكة بين شفتيه وقال :

- لا .. أنا ما أقعدش مع صايمين زي حضرتك !

وأنحـــرف عن باب الغرفة ، و سار في الممر الطويل .. كان يسير في بطء .. ولكنه كان لا يريد أن يكون بطيئاً أكثر مما تعود في مشيته و لا أن يكون سريعاً أكثر مما تعود .. فجاءت خطواته بعضها بطيء وبعضها سريع ..

وانتهـــى من الممر الطويل .. وقبل أن يصل إلي السلم .. فتح باب حجرة لم يكن فيها أحد ، و نزع من فوق المشجب معطفاً أبيض مما يرتديه الأطباء .. و خرج و أغلق الباب وراءه ثم نزل السلم ، وقبل أن يصل إلي نهايته ارتدى المعطف .. وسار في ممر طويل آخر .. لم يكن هناك أحد .. كلهم مشغولون في تناول طعام الإفطار !!

ونجحـــت خطة بطلنـــا في الهـــرب .. وتمكن من الوصول إلي منزل زميله محيي .. كانت عائلة " مصطفى أحمد زاهر " والد محيي .. مجتمعة كعادتها عقب الإفطار ، في حجرة " القعاد " والراديو يلقي إليهم أغانيه ..

كــــــان الأب في جلبابه الأبيض الفضفاض ، وفوق رأسه الطاقية الخفيفة التي لا يخلعها إلا ليضع مكانها الطربوش .. و قد جلس على الأريكة " الاستامبوللي " و وضع ساقه تحته و اتكأ على أحد مرفقيه ، و بين يديه جريدة " الأهرام " ..

وكـانــت الأم الطيبة .. مكتنزة ، وبين شفتيها ابتسامة هادئة كأنه قطعة من فمها .. جالسة على الطرف الآخر من الأريكة وبجانبها " علبة الخياطة " وبين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها ..

وكـانــت سامية جالسة على مقعد خيزران ، وأصابعها تتحرك بسرعة بين خيوط التريكو .. ليست جميلة كأختها الصغرى " نوال " .. أو على الأقل ، لا تستطيع أن تلمح جمالها من النظرة الأولى .. أنه نوع من الجمال يكشف لك عن نفسه كلما نظرت إليه أكثـــر ..

وكـــــان محيي جالساً على مقعد " أسيوطي " كبير ، حتى ليتسع لشخص آخر بجانبه .. و كان يقرأ في كتاب ..

وكـانـــوا كلهم صامتين .. صمتاً هادئاً مريحاً ، كل منهم متفان في هضم طعـام إفطـاره بعـد صـيام طويل .. و كأن معداتهم تبتسـم و هي تقوم بعملية الهضم و ترسـل ابتسـامتها إلـي شـفاههم ليحمـدوا بهـا الله ..

وعنـدمـا سـمعــوا صوت جرس الباب ، لم يتحرك واحد منهم و لم يخرج عن صمته .. فقـط تحركـت " نوال " بعد أن ألقت المجلة التي كانت في يدها واتجهـت نحـو البـاب ..

لــــــم يكن واحد من أفراد العائلـة السـعيدة ، ينتظـر شـيئاً مـن وراء جـرس البـاب ، غايـة مـا كـانوا ينتظرونه أن يكون الطـارق هـو الكـواء ، أو يكـون البـواب يعيـد الأطبـاق التـي أرسـلوا لـه فيهـا طعـام إفطـاره كعادتهم في أيام رمضان ..

قـــــدم إبراهيم حمدي اعتذاره لزميله محي وأنه لن يسبب لأسرته أي إزعـاج .. فقـال لـه محيـي وقد بدأت صدمة المفاجأة تخف عنه :

- أتفضل .. وأشـار إلي مقعد من القش موضوع فـي الصـالة .. ثـم جلـس علـى مقعـد آخـر وقـال كأنـه يبحث عن شـيء يقوله :

- أنت فطرت يا أستاذ إبراهيم ؟

ابتسـم إبراهيم ابتسـامة مجاملة و قال :

- أنا فاطر ..!

ويحـدثــه عن هروبه من المسـتشـفى .. و سـبب اختيـاره لمحيـي بالـذات للاختبـاء عـنـــده .. وأن المسـألة لن تسـتغرق أكثر من أربعة أو خمسـة أيام حتى يسـتطيع الاتصال بزملائه ..

ثـــــم يمضـي بـه محيـي إلـي غرفـة " الضـيوف " .. أثـاث علـى الطـراز العربـي .. وآيـات قرآنيـة .. مسـاند المقاعد مكسـوة بقماش عتيق .. كان الوالد جالسـاً :

- أتفضل يا بني .. أتفضل !

وقبل أن يجلس إبراهيم .. سأله الأب :

- أنت فطرت ؟
- متشكر .. ماكنتش باقدر أصوم في السجن !

ثم استطرد كأنما يعتذر عن عدم صيامه :

- أصلي انتقلت للمستشفى !

فـــي اليوم التالي ، ولم يكن باقياً على موعد الإفطار سوى نصف ساعة .. أطلت " نوال " من باب غرفة محيي ، الذي كان جالساً مع إبراهيم ، و قالت و هي تتحرك في الغرفة كأن ليس فيها شخص غريب :

- بابا بيقول لكم أتفضلوا في أودة القعاد ! ..

وفي حديثه إلي إبراهيم ، يشير الأب إلي الظروف التي أصبحت أكثر صعوبة بعد البلاغ الذي إذاعته الحكومة .. وتطرق الحديث إلي ثورة ١٩١٩ .. وافتقاد الشباب إلي " راجل يمشوا وراه " :

- زمان في ثورة تسعتاشر كان فيه زعيم .. البلد كلها ماشية وراه .. كان فيه سعد زغلول .. كانت ثورة بصحيح .. و كانت البلد كلها يد واحدة !

ودخلت الأم ..

كانت خارجة لتوها من المطبخ و صهد الوابور يصهر وجهها المكتنز .. وبددت ابتسامتها الطيبة حالة القلق التي أحاطت بالرجال الثلاثة " وكأنها جاءت تحمل إليهم رسالة الحياة والسلام " ! .. و قام إبراهيم واقفاً كأنه التقى بإيمانه .. الإيمان الذي لا يداخله شك فيه .. إيمان يزوده بالحياة كلها .. الإيمان بالأم ..

وقالــت الأم في لهجتهـا المعجلـة ، وكأنهـا دائمـاً مشـغولة .. ودائمـاً لا تسـتطيع أن تقـف حتـى لا تقف الحياة نفسـها :

- فاضل أد إيه على المدفع يا جماعة ؟

ثم التفتت إلي إبراهيم و هي تضع يدها على كتفه :

- أتفضل يا بني .. أقعد .. أقعد يا ضناي .. ربنا يحميك .. ويحرسـك !

وقـــال محيي بعد أن نظر إلي السـاعة .. قال بسـرعة و كأنه يعلم أن أمه لا تنتظر أبداً جوابـاً علـى أسئلتها :

- فاضل خمس دقايق ..

وقالت الأم ، كأنها تلومه لأنه أجابها :

- طيب أتفضل حضرتك أفرش سـجادة الصلا لبابا .. ما هو كل واحد لازم يعمـل حاجـة ، البنتـين هلكـوا النهاردة يا حبة عيني .. أما أروح أغرف الأكل .. زمان البنات محتاسـين ! ..

وأنطلـــق صوت مدفع الإفطار ، بينما كان مقريء الإذاعة لم يختم التلاوة بعـــد ..

وقال محيي :

- أظن المدفع ضرب ..

- رد والده :

- استنى لما نسـمع الأذان

وارتفع صوت المؤذن .. و ظل الوالد لا يتحرك إلي أن انتهى الأذان ثـم تأهـب للصـلاة .. وفـي الممـر المـؤدي لغرفة المائدة ، التقى محيي وإبراهيم بسـامية و نوال خارجتين مـن المطـبخ وكـل منهمـا تحمـل طبقـاً مـن

أطباق الطعام .. وطلبت نوال فيما يشبه الهمس من إبراهيم أن يخبرها برأيه في المسقعة التي صنعتها بيديها !

والتفوا حول المائدة .. و جاءت الأم حاملة طبقاً كبيراً من الأرز وهي تقول :

- اقعدوا يا ولاد على بال بابا ما يصلي ..

ثم لمحت محيي و هو يمد يده إلي سلطانية المخلل فنهرته قائلة :

- ما تفطرش على مخلل .. خاف على معدتك يا بني .. ده حتى حرام عليك .. السنة بتقول إننا نفطر على بلح !

وقال محيي ضاحكاً :

- أصل أيامها ما كانش فيه مخلل !!

وقف إبراهيم حائر أين يجلس ، فطلبت منه الأم أن يجلس بجانب محيي .. ثم قالت و هي تملأ له كوباً من شراب قمر الدين :

- والنبي يا بني أنا موش صعبان علي إلا الست والدتك .. دي عمرها ما تقدر تتهنى على لقمة و أنت بعيد عنها ! .. وأحس إبراهيم بانقباض قلبه .. و مد يده يتناول كوب قمر الدين ونكس عينيه في طبقه لا يرفعها .. وجاء الأب .. وجلس على مقعده .. ثم رفع ملعقته وأسقطها في طبق الشوربة الساخن و هو يتمتم :

- اللهم إني لك صمت .. و على رزقك أفطرت !

وانهمكت الأسرة في تناول طعام الإفطار .. و تشهد المائدة حواراً طريفاً حول المسقعة التي صنعتها نوال .. و كان الحلو " كنافة " !

ثـــــــم كانت الكارثة التي حلت بالأسرة ، عندما عرف " عبد الحميد " بوجود "إبراهيم حمدي " في بيت عمه .. كان عبد الحميد بالنسبة للابنة الكبرى " سامية " ابن العم الذي التصقت به في طفولتها و صباها .. كانت تعجب به و بذكائه و جرأته .. حتى و هو يسرق قراطيس البسكوت من بائع الدندرمة ، ويعود إليها لتشاركه في أكلها و هما يتضاحكان .. و تطور الإعجاب إلي نوع خاص من الحب و أصبح معروفاً للجميع أنهما في المستقبل سيتزوجان .. إلي أن بدأت تسمع عنه مرافقته للراقصات وعن تدخينه الحشيش ثم رسوبه ثلاث مرات في التوجيهية .. فبدأت تحـــول أحلامها ومستقبلها بعيـــداً عنــه !

لكنه كان يعاملها على أنها مازالت شريكة مستقبله .. و تقدم لخطبتها من أبيها .. فكان الرد : الرفض الحاسم من الأب و العائلة كلها ! .. ومع ذلك ظل يتردد على البيت بصفته أبن العم ..

وقـــــام بزيارة عمه في مقر عمله .. تحدث كثيراً عن وطنيته ثم تحدث عن رغبته في الزواج من سامية .. و أن " وطنيته متعلقة بتحقيق هذا الزواج " !!

زواج بالتهديد .. و أدرك الأب أن عبد الحميد سيظل يهدده بإبلاغ الحكومة .. حتى يتزوج سامية .. و وافق الأب موافقة مبدئية حتى تمر العاصفة و " يبقى يحلها ربنـــــا " ! وأبلغ أسرته بما حدث و أن عبد الحميد سيأتي لزيارتهم عقب الإفطار ..

كـانـــت سامية في قمة شقائها و حيرتها من عبد الحميد .. و من نفسها .. وانطلـــق مدفع الإفطار .. و أنتفض قلبها كأن الطلقة أصابته .. و فتح الباب و أطلت أمها وقالت و هي ممسكة بيديها طبق طعام ، وفي طريقها لتضعه على المائدة :

- يلا يا سامية .. يا للا يا حبيبتي .. المدفع ضرب !

كـــــــان إفطاراً صامتاً حزيناً .. كان كل فرد منهم يشيع اللقمة إلي جوفه كما يشيع فقيداً عزيزاً .. حتى الكلمات القصيرة التي تعودوا تبادلها سكتوا عنها .. و تحاشوا جميعاً النظر إلي إبراهيم .. كأنهم يخشون لو نظروا إليه أن يقتلوه بعيونهم .. ما عدا نوال .. اختلست نظرة أو نظرتين ثم كفت ، حتى لا تفضحها عيناها ..

وكان إفطاراً سريعاً .. كأن كل منهم يريد أن ينتهي من تشييع الجنازة ليخلو لنفسه ..

وقامت سامية قبل أن تمد يدها إلي طبق الكنافة ، وصاحت وراءها أمها :

- مش تستني لما تحلي ..

وقالت سامية في حدة قاسية كأنها تشتمهم جميعاً :

- ما ليش نفس ! ...

وفي اليوم الذي قرر فيه " إبراهيم " مغادرة البيت ، بعد أن أعد أصدقائه خطة لتهريبه خارج البلاد .. أخبر محيي والده أن " إبراهيم حا يسيب البيت النهارده " ! ..."ساعة ما المدفع يضرب "!

اتجه إبراهيم إلي المكتب وأخرج مسدسه " براونج " الصغير وأخفاه في جيب سترته الخارجي ، و محيي واقف ينظر إليه في خوف وحذر .. التفت إليه إبراهيم قائلاً :

- أقدر أسلم على عمي قبل المدفع ما يضرب ؟

- مش لازمك حاجة يا ابني .. أقدر أعمل لك حاجة .. توصيني بحاجة ؟!

وقال إبراهيم في صوت مخلص :

- متشكر يا عمي .. حضرتك عملت لي أكتر مما أستحق ..

وقال الوالد :

- العفو ..

ودوى صوت مدفع الإفطار .. و ارتفع صوت المؤذن من الراديو ..

وقامت الأم قائلة :

- أما أقوم أغرف الشوربة .. يا للا يا جماعة !

وقام أفراد العائلة .. و وقف محيي فوق مسند المقعد وجذب سجادة الصلاة من فوق الدولاب ، وفردها على الأرض .. و وقف الوالد متوجهاً إلي الله ..

وأنتظـــر محيي و سامية وسامية و نوال أن يتقدمهم إبراهيم إلي غرفة الطعام ، ولكنه ظـل واقفـاً ، وقال :

- أتفضلوا انتم .. أنا حاسلم عليكم دلوقت ، و حانزل وانتم بتفطروا ..

كـانــت الخطة التي وضعها إبراهيم مع أصدقائه قبل أن يهـرب مـن السـجن تقضـي بـأن يـدبروا لـه وسيلة يستطيع أن يخرج بها من مصر كلها .. وكانـت الوسـيلة التـي اتفقـوا عليهـا هـي أن يتصـلوا بصـديق لهم في الإسـكندرية ، ابن أحد مقاولي شحن السفن ، ليساعد إبراهيم على التسلل إلـي إحـدى السـفن الراسية في الميناء ، و الاختباء فيها ، حتى يصل إلي مرسيليا و هناك يبدأ في وضع خطة جديدة ..

وخـــرج إبراهيم من بيت محيي مرتدياً بدلة الضابط .. ساعة الإفطار .. و لم يلمحه بواب البيـت فقـد كان مشغولاً في تناول إفطاره وسـار فـي خطـوات سـريعة نحـو شـارع النيـل و الطريـق خـال مـن النـاس .. وارتبكت خطواته قليلاً عندما لمح عسكري دورية ، جالساً على حافة " السور " المقام علـى ضـفة النهـر و هو يتناول طعام إفطاره .. رغيف عيش ، وقطعة جـبن و حزمـة فجـل .. واسـتطاع إبـراهيم أن يسـيطر علـى خطواته بسرعة ، و استمر في سيره .. و لمحه عسكري الداورية ، فوقف منتصباً يـؤدي التحيـة العسـكرية لحضرة الضابط .. و سقطت حزمة الفجل على الأرض !!

غراب .. وشباب إمرأة ..!

و للأديب الراحل " أمين يوسف غراب " رائعته " شباب إمرأة " والتي حولها العظيم " صلاح أبو سيف " إلي عمل سينمائي شهير هو أحد كلاسيكيات السينما المصرية ، وقام بأدوار البطولة نخبة من نجوم السينما على رأسهم الفنانة تحية كاريوكا ، شكري سرحان ، عبد الوارث عسر ...

وتبــــدأ الرواية بتصوير جوانب من حياة بطلها " إمام " و هو في مرحلة الطفولة ، يرتع و يلعب مع جارته الصغيرة " سلوى " في ملاعب الصبا بالقرية .. حيث كان ينتظرها على رأس الحارة ، و تغمره فرحة كبيرة لمرآها " ويذهب معها إلي الجرن يلعبان مع الصبية على ضوء القمر في رمضان : الاستغماية وجمال الملح ، وحلقة ومضرب ، إلي أن تدق طبلة عم نوفل المسحراتي أول دقاتها ، فينصرف كل إلي بيته ، فرحاً مبتهجاً بما ظفر به في هذه الليالي الجميلة من لعب ومرح و لهو بريء "!

وكـــــان لعم نوفل – ذلك الشيخ الضرير – مكانة ملحوظة في القرية .. فهو إمام المسجد و هو الذي يؤذن في الناس للصلاة .. و هو أيضاً " حانوتي " القرية .. يغسل الموتى و يكفنهم و يتلو على رؤوسهم القرآن .. وبالرغم من أن السنين قد أتت على كل شيء فيه .. و تقوس ظهره .. إلا أنه كان حركة دائبة لا تعرف الراحة و لا الملل .. وكان أيضاً يتلو القرآن كل صباح في بيوت أهل القرية بـ " المسانيه " أي نظير كيلة أو نصف كيلة من القمح أو الشعير كل سنة !

فـــــإذا أهل شهر رمضان .. فهو أيضاً " مسحراتي " القرية .. يجوبها كل ليلة بطبلته .. وبالرغم من أن هذا كان يرهقه كثيراً ، فقد كان يسعده كثيراً أيضاً .. فهو لن يسعد وحده .. و إنما سيشاركه جماعة كبيرة من الصبية و البنات و العجائز الذين يقطنون معه " دهليز المرعشلي " .. الذي يضم أكثر من عشرين غرفة ، أوقفها صاحبه على الفقراء الذين لا مأوى لهم من أهل القرية .. و كانوا جميعاً إذا أهلت عليهم بشائر رمضان ، غمرتهم فرحة لا حد لها وعاشوا جميعاً في سرور مقيم بسبب الصدقات الكثيرة التي كانت تنهال على عم نوفل في رمضان .. فكانت قلوبهم تطير من الفرح عندما يدخل عليهم عم " نوفل " عقب السحور حاملاً جواله المكتظ بالخيرات .. فيفرغه أمامهم على الأرض ، فيلتفون حوله كالقطط الجائعة .. يتخاطفون ما تمتد إليه أيديهم من كعك و منين وغريبة و خبز جاف وبلح وجوافة وعجوة و قطع

الجبن القريش وقثاء وعظم دجاج وقطع لحم ورؤوس فجل ..! وكان للصبي " إمام " نصيب من هذا الخير العميم ..!

كـــان الصبي – بعد أن يمضي نصف الليل – يرافق الشيخ يحمل له الفانوس ، وهو يدق طبلته ، فتفتح الأبواب وتمتد الأيدي إلي الجوال بما تجود به من الخيرات ...

وذات ليلة يرى فتاته " سلوى " تقبل عليه و هي تحمل له فانوساً اشترته له حتى يكون مثلها ومثل جميع الصبية الذين يلعبون بفوانيس رمضان في " الجرن " .. ولحظات من الخجل و الارتباك .. ثم تهللت أساريره و هو يتناول منها الفانوس .. ثم يشدها من ذراعها ويركض معها إلي ساحة الجرن التي كانت مكتظة بصبية القرية يحملون الفوانيس الملونة و يتحلقون بها في ساحة الجرن " الذي تراءى لهما من بعيد كساقية فوانيسها من النجوم الباهرة المتلألة في الليل ، فوقفا بفانوسيهما ينظران إلي مئات الفوانيس الأخرى في فرحة غامرة ، وكل آمال الصبي والصبية أيضاً أن يظل رمضان في القرية طبلة شهور السنة ، بل طبلة أيام العمر " ..!

لكـــن السعادة لا تدوم أبداً .. فلابد أن ينصرف إلي المسجد حيث عم نوفل ينتظره على باب المسجد ، يحمل جواله الذي صنعه على هيئة مخلاة علقها بحبل على كتفه ، كما علق الطبلة التي يحملها على صدره بحبل في الكتف الثانية .. و أمسك بيده اليمنى عصاه السنط الغليظة يدق بها الأرض ، ويقترب الصبي من الشيخ ويلف ذراعه الصغيرة حول ذراع الشيخ ويمضى بجانبه .. يستمع إلي سجعاته المعروفة المتكررة كل ليلة ، يرددها مترنماً بصوته الأجش المبحوح : " يا سيد فلان يا أصيل الجدود .. ياللي العطا طبعك وأصلك يجود " ..

وكـــان كل من في القرية – عند عم نوفل – أصيل الجدود .. وكانت لعم نوفل قدرة عجيبة في معرفة البيوت وأسماء سكانها .. فما كان على الصبي عندما يبلغ أول الزقاق ، أو الحارة ، إلا أن يقف به ويهمس له بأسم الحارة أو الزقاق فقط ، فيعرف هو على الفور بيوت الحارة أو الزقاق بيتاً بيتاً ، ويردد أسماء سكانها اسماً اسماً ، وهو يدق على الطبلة مترنما بسجعاته ، ويظل كذلك ولو وقف طول الليل حتى يفتح الباب ، ويخرج صاحب البيت أو صاحبته أو أي إنسان آخر ويناول الصبي ما يجود به ، فيتناوله

الصبي صامتاً ويضعه في الجوال ، ثم ينصرف إلي بيت آخر .. و كثيراً ما كان الشيخ يسأل الصبي بعد أن يغلق الباب ، عن الذي وضعه في الجوال ، فيخبره الصبي عن الصدقة التي تصدق بها صاحب البيت أو صاحبته ، خيارة ، قطعة جبنه ، قطعة عجوة ، كعكة ، شقة بطيخ ، وكانت قسمات وجه الشيخ تنفرد وتنقبض وفقاً لإجابات الصبي .

وظـــــلا كذلك يسيران إلي أن بلغا دوار العمدة ، وكان العمدة يتناول سحوره هذه الليلة على المصطبة أمام الدوار ، ورأى الصبي ما حفلت به " الطبلية " من طعام شهي ، فهمس بذلك سريعاً للشيخ . وقد كان الاتفاق بين الصبي والشيخ أن يهمس له الصبي بكل شيء . وما إن قال الصبي للشيخ ما قال حتى تسمر الشيخ في مكانه ، وقد تهلل وجهه ، وانفرجت أساريره ، وتطلق جبينه المترهل ، واهتزت يده مرتعشة على العصا وكأنهـــــا ترقص طرباً .. ومن ثم راح بصوته الأجش المبحوح يرسل في الليل عقيرته ، متغنياً بسيد القرية ، بل سيد القرى جميعاً ، وعمدتها الذي بعث الله به إليها ، ليهديها من ضلال ، ويخلقها من عدم ، معدداً مناقبه و أخلاقه وصفاته وكريم سجاياه وأفضاله على الدنيا كلها ، وحسناته على الناس والخلق أجمعين . ثم راح يصف كسمه ورسمه وجماله ، ثم أصله وفصله وفرعه و سلالته التي تنتمي إلي الأنبياء والرسل ..

وظــــل كذلك حتى استنفد الشيخ ما في جعبته .. و لم يبق فيها شيء يقال لأحد .. وقد أثلج هذا المديح صدر العمدة ، وملأ قلبه غروراً و كبرياء ، ومشاعره لذة وابتهاجاً ، فلم يصرفهما كالعادة سريعاً بشيء يجود عليهما به من الذي حفلت به " الطبلية " أمامه ، وإنما ظل يصغي إلي هذا المديح ، ويستمع في نشوة إلي هذا الثناء و إلي أصله الكريم الجدود ، وشجرته التي أصلها في الأرض وفرعها في السماء ، وسلالته التي تتطاول على الخلق أجمعين بانتمائها إلي الأنبياء و الرسل ، حتى تعب الشيخ وتصبب العرق من جبينه المتجعد ....

ولمـــــا بلغ الشيخ هذا الحد من الإعياء ، وعجز صوته عن أن يصل إلي الآذان واضحاً ، أشفق عليه العمدة إذ رفع يده و أشار إلي الصبي ، فترك الصبي الشيخ سريعاً ، وقفز إليه كما يقفز كلب الصيد إلي القنص ، ولما مثل أمامه مد الرجل يده إليه وأعطاه ورك دجاجة سمينة كانت في يده ، فتلقفها

الصبي غير مصدق ، ولما عاد إلي الشيخ لم يضعها في الجوال كبقية الصدقات الأخرى ، وإنما حشرها في جيبه سريعاً وحشر فوقها أيضاً ورقة صفراء خشنة كانت في يده ، وحشر هذه الورقة جيداً وبإحكام ٠ وهو لم يفعل ذلك خشية على جيبه أن يتلوث ، وإنما حرصاً على ألا تنفذ رائحتها الشهية إلي خياشيم الشيخ ، فيعرف الحقيقة و من ثم تأبط ذاع الشيخ وانصرف معه ٠٠ وفي الطريق ، وبعد أن ابتعدا قليلاً ، ارتسمت على وجه الشيخ هالة من نور ، و هو يلتفت إلي الصبي قائلاً : ماذا أعطاك سيدنا العمدة ؟

فقـــال الصبي في خبث وخوف وهو ينظر إلي عيني الشيخ المغلقتين ، وكأنه يخشى أن يرجع إليهما البصر : كسرة من الخبز وبعضاً من عظم الدجاج .

فتلاشــت تلك البسمة التي كانت تتألق على وجه الشيخ وقال مقطباً في تحسر شديد : لهم اللحم ، ولنا العظم !

الشرقاوى .. و ذكرياته فى رمضان

هو واحد من ألمع الأسماء التـي ظهرت في العصر الذهبي للأدب المصري ، بدأ حياته الأدبية بواحدة من روائع فن الرواية " الأرض " عندما نشرت في حلقات سلسلة بجريدة المصـري عـام ١٩٥٣ ثم ظهرت في كتاب الهلال عـام ١٩٥٤ وكـانت روايته الثانية " قلوب خـالية " ١٩٥٧ ثم " الشوارع الخلفية " عام ١٩٥٩ و " الفلاح " عام ١٩٦٨ .

ولد الأديب الراحل " عبد الرحمن الشرقاوي " في العـاشر من نوفمبر عـام ١٩٢٠ في مركز " شبين الكوم " بمديرية " المنوفية " وتخرج من كلية الحقوق جامعة القـاهرة عـام ١٩٤٣ ، بدأ بنشـر انتاجه في الصحف منذ عـام ١٩٣٦ وأشـرف علـي الصفحـات الأدبيـة لصحـف " المصـري " و " الشعب " و " الجمهورية " وخاصة علـي صفحاتها معارك أدبية دفاعـاً عـن الأدب والشعر الحديث ، وعين رئيسـاً لمجلس ادارة مؤسسه " روز اليوسف " عـام ١٩٧١ ثم سكرتيراً للمجلس الأعلي لرعاية الفنون والأدب حتي استقال عام ١٩٧٩ وتفرغ للكتابة بجريدة " الأهرام " في عام ١٩٧٤ حصل علي جائزة الدولة

التقديرية في الأدب وفـي العام التالي حصل علـي وسام العلوم والفنون مـن الطبقـة الأولـي ، وترجمـت بعض أعماله الي اللغات الأجنبية .

تحول عدد من رواياته الـي أفلام سـينمائية ، كمـا كـان شـاعراً متميزاً وكاتبـاً مسرحيـاً أيضـاً ومـن أشهـر مسرحيـاته " الحسـين شـهيداً " .. ومـلأ الصحافة المصرية بكتاباته السياسـية والأدبيـة والنقدية .

والموضوع الرئيسـي الذي شغل عبد الرحمن الشرقاوي هو القرية المصرية ، وفـي رواياتـه نجـد عناصـر مشـتركه مـن النـاحيتين الفكريـة والفنيـة ، وشخصية الشـرقاوي كمفكـر وفنـان تظهـر وتفـرض نفسـهـا بوضـوح فـي أعمـاله الروائيـه والمسـرحية ، ونظرتـه الواقعيـة الـي القريـة المصـرية حفظـت للشـرقاوي مكانـه الفنـان الرائـد ، وهـو صـاحب ثقافـة سياسـية عميقـة أفادتـه فـي اتسـاع رؤيتـه لصـراع المجتمع ومشاكل الانسـان ، لقد مزق الشرقاوي بوعيـه السياسـي هـذا الـوهم عـن " السـعادة التـي يعيشها الفلاح المصري " وكشف عـن الحقيقة الاجتماعية المرة بصدق وأمانة وشجاعة .

وقد اسـتخدم الشـرقاوي فـي أعمـاله الروائيـة شخصـية " الـراوي " الـذي ينطـق فـي معظـم الأحيـان بلسـان الشـرقاوي نفسـه ، معبـراً عـن آرائـه ومواقفـه ، وكانـت رواياتـه تسـجيلاً لحياتـه وتجاربـه وذكريـاته المختلفـه ، وقـد أتـاح لـه الجـانب الـذات فـي رواياتـه أن يفجـر فـي رواياتـه ينـابيع الحنـين الـي الماضي والتغني بالذكريات !

ولندع يراع الشرقاوي يحكـي لنا ذكرياته فـي رمضـان .. مـا بين القرية .. وقاهرة المعـز بأحيائهـا العتيقة ، فيقول : " مـا عرفت احتفالاً أنبض بالروعة ولا أشرق ببهجة كالاحتفال برمضان فـي قريتـي وفـي قاهرة أولاد البلد " ولا يدري الشرقاوي ماذا أصـاب الدنيا وماذا وهـي النـاس ، فالاحتفـالات بمقـدم رمضـان لم تعد تشبع فيها الفرحة المشوبة بالحنين الي عصور الورع وجلال التقوي!..

رمضان في القرية :-

ولشهر رمضان " خصوصية مصرية " فهو لم يرتبط فقط في الاذهان بالدين ومناسكه ، بل ارتبط أيضاً بعادات وتقاليد شعبية متوارثة أجيال ولدت وعاشت في ظلالها ، وذكريات رمضانية جميلة يسترجعونها من زوايا النسيان منذ عهود الطفولة والصبا ..

" **في** قريتي ، كان الناس يترقبون الشهر ، ويستعدون له بعد ليلة النصف من شعبان ، فينظفون الطرقات أمام البيوت ، وشراء الفوانيس للصغار ، وتوفير السكر والشاي والبن وما يشرب في أثناء سهر الليالي .. ومن تقاليد القرية كلما اقترب رمضان أن تفض الخصومات وأن ينصالح الناس مهما كان بينهم من ثارات و ضغائن !

وعندما تثبت رؤية الهلال يوقد كل صاحب بيت سراجا أمام داره ، وينطلق الصغار بالفوانيس .. وبعد صلاة العشاء والتراويح تعمر قراءة القرآن المجود أرجاء بيوت القادرين من أهل القرية ، حيث يتبادل الناس الزيارات .. وكان في قريتي داران تهتمان باختيار اثنين من أصحاب الصوت الحسن ليسهرا طوال الشهر ، احداها كانت دارنا ، والاخري دار العمدة ، وكان القارئ يقيم في قريتنا طوال الشهر المبارك ، لا يبرحها الي أهله الا ليلة واحدة في منتصف الشهر ثم يعود، وكان أهل القرية لكثرة اختلاطهم بالقاري يعتبرونه واحداً منهم ولانه يجيد تلاوة القرآن ويعرف تفسيره ، فقد كانوا يستفتونه في بعض أمورهم فيفتيهم! .. وكنا نحن الصغار نحاول أن نتعود الصيام ونقضي النهار نحاول أن نحفظ القرآن الكريم وأن نجوده ونقلد طريقة أحد القارئين المشاهير في التلاوة !

وكان من الأعراف المستحبة في رمضان ، أن يضيع القادرون طعاماً كثيراً طيباً ويمدون الموائد في القاعات الخارجية للدور ، ويفتحون الأبواب ليدخل كل صاحب حاجة من أهل القرية أو من أبناء السبيل وينظروا معاً .

وفي الصيف ، كانت الموائد تقام في الطرقات ، فلا يمر بها صائم الا طعم ، أو تناول بعض الطعام حتي يعود الي بيته ..

وأذكر أن السر في ليالي رمضان ، كان سمراً خصباً متقناً .. فبعد أن يفرغ القارئ من تلاوته وفي خلال راحته ، كانت الاحاديث تدور حول تفسير ما تلاه من القرآن الكريم ، وتذاكر بعض الاحاديث

النبوية ، وبعض طرائف الحكمة من عيون التراث .. واذا حدث اختلاف بين المتعلمين من أهل القرية حول تفسير الآيات يرجعون الي تفسير النسفي أو البيضاوي المنسوخين بخط اليد !

وكان الصغار يشعرون الي جوار الفرحة بطمأنينة غريبة .. ذلك أنهم سمعوا من الكبار الحديث الشريف الذي يعلمهم أن الشياطين تصفد اذا جاء الشهر المبارك ، وان للصدقة في هذا الشهر مكانة خاصة .. من أجل ذلك كانوا يجودون علي زملائهم الفقراء بكل ما يأخذونه من آبائهم من " مصروف " شخصي ..

وفي ليلة القدر ، وفي الليلة التي نظن أنها الأخيرة من رمضان أي ليلة رؤية هلال شوال كانت " الصواني " الحافلة بأطيب الطعام تحمل الي بناء واسع في القرية فرش بالحصير أو الأبسطة .. وتوضع الصواني علي الأرض .. فكل بيت قادر يخرج الصينية العامرة التي يجب أن يكفي ما فيها من طعام خمسة علي الأقل .. ويجلس أصحاب الصواني الي طعامهم ، ويتداعي علي هذا الطعام الطيب فقراء أهل القرية وأبناء السبيل ..

ما أحلي قاهرة ذلك الزمان !

وتذكر الأجيال الماضية صورة إستقبال رمضان باطلاق المدافع ، ومواكب أرباب الحرف ودراويش الصوفية .. وتألق القاهرة في ليالي رمضان ، وكأنها تحتفل بذكري ميلادها .. وحرص من الجميع علي قضاء سهرات رمضان في أحياء الحسين والسيدة زينب والمنيرة .. ويذكرنا " الشرقاوي " بالماضي الجميل ، فيقول : " في ليلة الرؤية ، كانت تخرج المواكب تضم الكبار والصغار ، يقودهم أهل الطرق الصوفية ، تسبقهم الدفوف والطبول الي المحكمة الشرعية العليا ، فاذا أعلن ثبوت الهلال ، علت الزغاريد ، ووزع الشربات والحلوي ، وسارت المواكب جميعا الي مسجد الامام الحسين ، وفي الساحة الواسعة أمام المسجد تقام الأذكار ، وتلقي الخطبة في فضل شهر رمضان ..

كانت الساحة التـي امام مسجد الحسـين تظفـر بأكبــر التجمعـات ، تليهـا السـاحة التــي تقـع أمــام مسـجد السـيدة زينـب ، ثـم غيرهـا مـن السـاحات فــي المسـاجد التـي تضـم مقامـات أوليـاء الله الصالحين ..

ولقد أذكر أن بيوت الحلمية الجديدة والمنيرة والسيدة زينـب كانـت فــي الأغلـب بيوتـا مــن طـابق واحد أو طابقين علــي الأكثر ، ثم حديقة واسعة ، وفــي الحديقة مكان خاص للضيوف ..

مـا زالت أذكر جمــال الهدوء ، وعبق الاشجار و الأزهار فـي تلك الأحياء .. وقد تحولـت هـذه البيـوت الآن الـي علب من الأسمنت المسلح تتكدس فيها الشـقق ، وترتفـع الـــي أكثـر مـن عشـرة طوابـق .. مـا أحلــي قاهرة ذلك الزمان .. ! .. كانت بيوت تلك الأحياء تشيع منهـا مع عبق الزهـور ، وشـذا البخـور . روائـح الشواء .. كلما اقترب المغرب :

وقت الافطار .. وكنت وأنت تسير في الطريق قبيل المغرب تلمح زحام النـاس داخـل تلـك البيـوت .. فقد كـــان مــن عادة أهل القاهرة فــي تلك الأيــام أن يتبادلوا الـدعوات علـي طعـام الافطـار .. وهـي عـادة أخذت تنقرض لأسباب كثيرة !!

وكـــــانت حـدائق المنـازل تعمـــر بالموائـد وقـد فتحـت الأبـواب ، ليـدخل منهـا مـن يريـد الافطـار ، فالدعوة عامة ..!

وكـــــانت بعض الدور تعـــد الموائد فــي الحدائق ، وفيمــا أمامها من طرقــات ، ليطعم كـل اصحاب الحاجات أو كل عابر سبيل ..

وبعد العشـاء تقـام صـلوت التـراويح فــــي المســـاجد ، وأحيانـا فــــي البيـوت .. ثـم ترتفـع أصـوات القــراء بتلاوة القرآن الكريم .. كانت الأصوات تتصــاعد من تلك الدور شجية جليلة بلا مكبرات الصوت!!..

وفـي أحياء الحلمية الجديدة والمنيرة وبركة الفيل والسـيدة زينـب أتـيح لـي سـماع القـرآن الكـريم من كبار القراء في ذلك الزمان ..

كان رمضان بهجة كبري للأطفال .. فما يكاد شهر شعبان ينتصف حتي تستعد واجهــات الحوانيت بزينتها التــي تستكملها وتسفـر عنهـا منذ ثبوت رؤية هلال رمضان .. وكانت الحوانيت تتفنن فــي عرض فوانيس الأطفـال وفـي زخرفتها بألوان خلابة ..

ويطوف الاطفال الحواري والطرقات وهم ينشدون أغانــي رمضانية جميلة توارثتها الأجيال ..

وهكذا حتــي يعودوا الــي دورهم قبل صـــلاة العشـــاء ، وقد مـلأ كل منهم يده وجيبه وفمه بالحلوي والمكسرات من جوز ولوز وبندق وما شابه ذلك .

لم تعد طرقات القاهــرة المزدحمة بالسكان ، والعمارات الشاهقة .. لم يعد هذا التغير في ظروف الحياة يسمح بهذه البهجة البريئة لأطفالنا !

وكان من تقاليد رمضان التزاور في البيوت ، والسمر البرئ بعد صلاة العشاء خلال الفترات التـــي يستـــريح فيهــا القراء .. ولكن أحدا لم يعد اليوم يدعو قارئا ليحيي ليالــي الشهــر المبارك بقراءة القرآن ، ولم تعد الندوات تعقد فــي الدور ، فالمساكن الجديدة فـــي العمائر لا تسمح بهذا ، والناس يمضون سهرات رمضان الآن ما بين مشاهدة التلفزيون والاستماع الي الاذاعة ..

كان من معالم سهرات رمضان التجمعات فـي المقاهي .. كانت هذه التجمعات تتحول الـــي ندوات ثقافية ودينية رفيعة المســتوي ، أبطالهـــا شـيوخ وأدباء كبار ، وشهودهـــــا هـم مرتادو هـذه المقاهــي .. وكان أشهر هذه المقاهي علــي الاطلاق مقهي الفيشاوي في حي الحسين ..

ومقهي الفيشاوي من أقدم مقاهي القاهرة ، وهـو قائم علـي مستويات مختلفة مـن الارتفـاع ، ملئ بالمرايا ذوات الأطـر المذهبة وبالمصابيح والمقاعد التـــي تشهد بدقة الصنعة وسمو الذوق وعظمة فن الزخرفة الاسلامية ..

وهو مقهي فسيح ينقسم الـي أركان .. لكـن المبـاني جـارت عليه الآن !! .. وبعد صلاة التراويح فـي رمضان كان زوار هذا المقهي يتوافدون أرتالا ، كل جماعة تجلس في ركن يضم عدة موائد ، ثم يبدأ الحوار الأدبي أو الديني أو حوار النكتة بين الحاضرين .. وكان لهذا الفن نجومه وأبطاله : وأما أعنـــي فن

النكتة اللفظية التـي تعتمد علــي براعة التلاعب بالألفاظ ، وذكاء توليد الكلمـات ، وعلـي سـرعة البديهـة .. وكان لهذه المساجلات بالنكت أصول وقواعد .. فالمجموعة تنقسـم الـي طرفين يتساجلان ، علي قمة كـل فريق رئيس ومعه من يختاره من المعاونين من أهل الظـرف وأصحــاب البديهة الحاضـرة . والطرفـان يتفقـان علــي اختيار مــا يسمونه القافية .. أي يختارون مهنة كالمحامـاة أو الطـب مـثلا ، ويلقـــي كـل طـرف نكتـة فيهــا ألفاظ تتصــل بالمهنة .. وكان البــاعة المتجولون يشتركون أحيـانا فـي سجـــال النكتـة وبصـفة خاصـة هـؤلاء الـذين يبيعـــون كتـب التـــراث ، وكتـب الأدب وكـانوا قـراء ممتـازين ، ولـديهم ذوق نقـدي .. وتمـــر الساعات حتــي يقترب موعد السحور ، فيدفع الفريق الخاسر ثمن الطلبات ! ..

ولقد تجد فـي ركن آخر مـن مقهـــي الفيشـاوي أو مـن غيـره مـن المقـاهي الكثيـرة فـــي حـــي الأزهــر بعض مجاذيب الحسين .. وهم رجال بلا عمـل تركـوا أنفسـهم وسـاحوا فـــي حـب الله الـــي جـوار الحسين !! وكـانوا يسمونهم الدراويش .. وكان من أشـهرهم أيام الحـرب العالميـة الثانيـة رجـل يرتـدي بدلـة صفــراء ، ويضع علـي كتفـه وصـدره مجمــوعة نياشـين ، هـــي فـــي الأصـــل أغطيـة زجاجـات الأشـــربة الغازية المحفوظـة ويسمـــي نفســه : " الماريشـــال " . ويصـدر تعليمـــات عسـكرية لغيـره مـن الـدراويش!! وكان صديقا لعدد من ظرفاء ذلك العصر ، وأكثرهم ممن أدركـتهم حـــرفة الأدب فهـم شعـــراء وكتـاب ، ولقـد أذكر أنهم كانوا فــي كل عــام يقيمون حفلة تكريم للماريشـال !

وكانوا يولفون فـي تكريم الماريشـال قصائد قصيرة كلها من الشعر الضاحك ، والماريشـال يتلقي مـا فيها من دعابة طيب النفس ، ثم يتلقـي آخر الليل ما يجود به هؤلاء الشعراء الظرفاء شـديد الامتنان !

وفــي أيام رمضان تعود النـاس فـــي ذلـك الزمــان أن يسـلوا بعـد أن يخرجـوا مـن أعمـالهم بقـراءة القرآن .. فمنهم من يذهب الــي المساجد ليصلــي العصر ، ويظل بعد الصلاة الـــي مـا قبيـل المغرب يقـرأ القرآن فـي مصاحف المسـجد .. ومنهم من يؤثرأن يعود الــي بيته بعد صـلاة العصر ليقرأ مـــا تيسـر لـه مـن القرآن الكريم .. ولكن الناس ما كانوا يتلون القرآن منفصلين : كل لحاله ، بل كانوا يتواعـدون منـذ اليـوم الأول فــي رمضـــان علي أن يختموا القرآن مرة علــي الأقل خلال الشـهر المبــارك ، فإذا التقوا كـل نهـــار تـذاكروا القرآن الكريم .. ومنهم مـــن كان يختمه مرتين أو ثلاثا ..

وكانت المســاجد ـ وما زالت ـ تعمر بالوعاظ منذ صـــلاة الظهر، حتــى قبيل الفجر .. و فـــى بعض المساجد كان يتطوع بعض كبار القراء بتلاوة القران قبل صلاة العصـــر ، ما بين رفع الأذان الـــى القيام للصلاة ، وأحيانا مــا بعد صلاة التراويح ، وقبل صلاة الفجر .. بعضهم كان يقرأ متطوعا قربى الى الله تعالى ..

الشهر المبارك فــى ذلك الزمان كان يضطرب بألوان البر والتــراحم ، فتعمر مساجد الله بالمصلين كما لا تعمر فى سائر شهور العام ، وتجرى الصدقات سرا وعلانية .. والناس أكثر حبا وايثارا بعضهم لبعض من سائر الأوقات ...

ان كثيرا مــن مظاهـــر الاحتفال برمضــان قد انقــرض الآن ، فلم يعد النـاس يســمرون منذ اقتحم عليهم التلفزيون بيوتهم وحياتهم ... ولم يعد الأطفال يتجولون فـــى الشـوارع بالفـــوانيس منذ ازدحمـــت الشـــوارع والطرقــات وحتـــى الأزقة بالعربات، ومنذ أصبح البيت الصغير الذى لم يكن يزيد عـن ثلاثة طوابق تسكنها أسر متعــارفة ، منذ اصبح ذلك البيت الصغير عمــارة ضخمة تسكنهـــا اســر لا يعرف بعضها بعضا ...

وكان من أبرز الصور الرمضانية فــى ذلك الزمان " المسحراتــى " .. وهو رجل مـــن أهـل الحـــى ، يطوف الحـــى بعد منتصف الليل الـــى مــا قبل الفجــر

لقـد اختفـى المســحراتى مـن أكثـر الأحيـاء ، وحـل مكانـه فـــى الاذاعـة أو التلفزيـون مغـن يـؤدى دور المسحراتى ..

ويا الله... كم كـــانت جميلة مثيرة للوحشة تلك الكلمــــات التـــى تعود أن يلقيها المسحراتـــى فـــى ايقاع حـزين ، وهـو يـودع الشـهـر الكريم فـــى الليالـــى العشـر الأواخر.. مـــا زلت اذكر مـن ذلك الماضى الجميل كلمات المسحراتى وهو يودع رمضان فى ايقاع موحش : (لا أوحش الله منك يا شهر الصيام !!) ...

حتـي إذا اقترب العيد ، نشطت الحركة في الطرقات طوال الليل .. ذلـك أن مـن التقاليـد اسـتقبـال العيد بنوع مـن الفطائـر اسـمه كعـك العيـد .. تجتمـع الأسـرة لتعد عجينتـه ، وتسـويه ، وتنقشـه ومعهـا الأطفـال الذين يغالبون النـوم ويشـتركون فـي اعـداد كعـك العيـد ، ولا يغمـض لطفـل مـنهم جفـن حتـي ينتهـي اعداد الكعك ، ثم تدفع الأسـر بالكعك الـي فـرن قريب ، ويعـودون بـه بعـد أن يخبـز ، والأطفـال ينتظرون لينثر عليه الكبـار مسحوق السكر ، فيأكل الأطفال سعداء مما صنعت أيديهم ..

ما برحت بعض البيوت تتمسـك بهذه العــادة ، ولكن العــادة الجميلة توشك أن تنقرض تحت ضغط ظروف الحياة !

ومهمـا يكـن مـن أمـر ذبـول هـذه العــادات الجميلـة ، أو انقراضـها ، فقـد تنقـرض منهـا الشـعائر والاشكال ، ولكن ما تحتويه يبقـي في الأعماق ، ويتوارثـه الصغار جـيلا بعـد جيـل : ان رمضـان هـو شـهر البركات والاخاء والتـراحم ، وهو فرحة الصغار والكبار علي السواء ..!

الغيطاني .. ورمضان .. مـن الـذي يتغيـر ..!

جمال الغيطـاني .. أحـد عشـاق القـاهرة ، رحـل كثيـراً فـي أزمانهـا المختلفـة ، واسـتعاد ملامـح حياتها – تحديداً – في عصرها المملوكي .. و من خلال قراءاته العميقة و حس مرهف بالتـاريخ و رؤيـة أدبيـة متفردة ، تحولت كتاباته إلـي متعـة فنيـة .. فيحـدثنا عـن رمضـان " الطفولـة النائيـة " فـي حـي الجماليـة .. متسـائلاً :

من الذي يتغير ؟ الإنسان أم الزمن ؟

ومـا الفرق بين الأحاسيس و المشاعر التي تـراود مـن كـان فـي مثـل عمـري الآن تجـاه الشـهر الكريم ؟ رمضان علامات الزمن البارزة في حياتنا ، بموقعه و مكانته وخصوصية أيامه و عبـق لياليـه . أجـدني

الآن أرحل إلي سنوات الطفولة ، و أقارن وأستعيد التفاصيل ، في الجمالية العريقة نشأت ، و في حواريها التي تنز جدران مبانيها بالتاريخ .

مــــا أسرع كر الأيام ، في الطفولة كانت الأسابيع المؤدية إلي رمضان تشهد انتظار الليلة الأولى ، خاصة بعد ليلة النصف من شعبان . هذه الليلة أبرز العلامات التي تسبق رمضان ، فيها تقوم الأسر كلها ميسورها و معسرها بالتوسيع . أي إعداد طعام يخرج عن المألوف احتفالاً بها ، و نرى رمضان قد أصبح قريباً ، حتى إذا دنت ليلة الرؤية تزدحم الحارة بالأطفال ٠ في العادة يرجعون إلي بيت الأهل مع نزول الليل ، ولكن في هذه الليلة مسموح باللعب و الضجيج و اللهو ، وبعد صلاة العشاء ندرك أن اللحظات الحاسمة تقترب ، و إذ يعلن ثبوت الرؤية تتناقل الأسر النبأ عبر الشرفات ، ونسمع التهنئة " كل سنة وأنت طيب " نخرج لشراء طعام السحور .. لقد ظهر باعة الفول ، وحوالي العاشرة أو الحادية عشرة يمر باعة الزبادي في الحارة ، يرتدي الواحد منهم جلباباً نظيفاً أبيض ويحمل فوق رأسه صينية خشبية مستديرة صفت عليها سلاطين الزبادي المصنوعة من الفخار ٠ كان " زبادي دسم " له رائحة أفتقدها الآن ، تغطيه طبقة القشدة السميكة ، فلم يكن لبن البودرة قد عرف بعد .. كذلك أكواب البلاستيك التي يباع فيها الآن .

فــــــي أول أيام الشهر الكريم تبدو النهارات ذات طبيعة خاصة ، فالهدوء سائد ، والكل مشغول بالسعي و إعداد طعام الإفطار ، مقاهي الجمالية كلها مغلقة نهاراً ، كذلك باعة الشاي الذين يقفون قرب تجمعات الحرفيين ، المتاجر أعادت ترتيب بضاعتها وعرضت أجمل ما عندها ، حتى إذا ما اقترب وقت المغرب خرج أطفال الحارة إلي المدخل حيث يقوم مسجد سيدي مرزوق نتجمع أمامه .. ها هو ذا " البولاقي " يعرض أنواع المخلل ، و كان رجلاً قصير القامة نحيلها ، لا أدري عمله الآخر .. و لكنه في رمضان يتفرغ تماماً لبيع المخلل .. فقط في رمضان . و أوان زجاجية مليئة بليمون كبير الحجم أصفر تبدو منه ذرات العصفر ، و أوان أخرى فيها باذنجان أسود مستطيل شق وحشي بقدونس أخضر ، و خيار ، و لفت ، وكان مقابل قرش صاغ يملأ طبقاً كبيراً .

المقاهــي تفتح أبوابها قبل المغرب ، ترش الأرض بالماء و تصف المناضد والمقاعد ، و إليها يأوى بعض الغرباء و أبناء السبيل ، يضع كل منهم أمامه طعامه الذي جاء به أو أرسل في شرائه من مطعم قريب ، ينتظرون مدفع الإفطار .

حدثنــي بعض العجائز و المعمرين في الجمالية ، أنه حتى ثلاثينيات هذا القرن كانت بيوت الأثرياء في المنطقة تفتح في رمضان ، و في الأفنية الداخلية تعد الموائد وعليها أطباق الطعام متاحة لأي فقير لا يملك زاد يومه ، أو أي عابر سبيل فاجأه ميعاد الإفطار وهو على الطريف يدخل فلا يسأل عن شخصه و لا عن مقصده ، يتناول إفطاره ثم يمضي وقد أدركت آثار من هذه العادة القديمة ، فبعض الحرفيين الكبار في خان الخليلي كانوا يقيمون مأدبة إفطاع جماعية ولكن لمرة واحدة في الشهر الكريم ، و لا أظن أن هذا التقليد مستمر .

يتــــردد صوت الشيخ محمد رفعت يتلو آيات القرآن الكريم ، و ما من صوت يعيد إلي كل ما أفتقده من أيام رمضان النائية هذه كصوت الشيخ محمد رفعت ٠ و عندما يرتفع صوت الآذان يصيح الأطفال مهللين وسرعان ما ينصرفون إلي بيوتهم لتناول الإفطار ، كثيرون منهم كانوا يصرون على الصيام برغم تحايل الأهل عليهم لصغر السن ، في رمضان يصبح للإفطار أكثر من معنى ، فأي طعام له لذة ، سواء كان فولاً أو طبيخاً فيه لحم و مرق ، فالطعام يعد بعناية ، و الأكل يسبقه شرب قمر الدين أو أي عصير ميسور . وفي معظم الأحيان تتطلع أنظار الصغار خلسة إلي صينية الكنافة المغطاة بشاش أبيض نظيف أو القطايف منتظرة دورها بعد الانتهاء من الطعام .

فـــــي الإفطار الرمضاني شعور بالأمن أيضاً ٠ فالأسرة كلها مكتملة مجتمعة ٠ في الأيام العادية قد يتأخر الأب في عمله ، قد يتناول الصغار طعامهم إذ يجوعون ، ولكن في رمضان ينتظم الكل حول المائدة و يلتئم الشمل ، لحظات الإفطار يخيم صمت عميق على الحارة ، صمت معقم ، ومازلت أذكر رنة صوت شحاذ شيخ كبير كان يمر في أثناء تناول الإفطار يتوكأ على كتف امرأة عجوز كان نداؤه حزيناً متعباً منغماً ، وكان عديدون يقدمون إليه ما تيسر .

الإذاعـــة أضافت إلـي علامـات الـزمن ، فمع مطلـــع الشـهر الكـريم تتـردد أغنيتـــان شجيتـــان .. " رمضـان جانـا " لمحمـد عبـد المطلـــب ، و " وحـوي يـا وحـوي " لأحمـد عبـد القـادر ، معهمـا نـدرك أن عامـاً قـد انقضى ، وأن رمضان جديداً قد أقبل ، ومع اللحـن المميـز لحلقـات ألـف ليلـة وليلـة ، تـأليف طـاهر أبـو فاشـا ، نـدرك أن وقـت الإفطـار قـد انتهـى و أن صـلاة العشـاء والتـراويح ، تتبـادل الأسـر الزيـارات كـان جيراننـا الأقبـاط يشـاركوننا مظاهر الاحتفـال بالشـهر الكـريم ، فلـم يجهـر أحـدهم بإفطـاره قـط ، و كـانوا يتنـاولون الغـداء عنـد حلـول المغـرب ، وفـي الحـارة يحمـل أطفـالهم فـوانيس رمضـان ويلعبـون معـاً ، صـورة مـن صـور التسـامح الـديني الجميـل ، و المشاركة الوجدانية التي عرفتها مصر على مر عصورها بين طوائفها المختلفة .

كـانــت فوانيس رمضان من الصفيح والزجاج الملون تنحدر من العصر الفاطمي ، بعضها صنع علـى هيئـة نجمـة أو مركـب أو طـائرة ، لسـنوات طويلـة اختفـت هـذه الفـوانيس وظهـرت أخـرى مـن البلاسـتيك مصنوعة في هونج كونج ! تماماً كتلـك الحـواري المصـنوعة التـي تعلـن عنهـا الفنـادق الكبـرى وتجعـل مـن موظفيها شحاذين لزوم الفلكلور ، وتحول الشـهر الكريم إلي ظاهرة سياحية .

وفـــــي ميـدان الحسـين يجـيء الـرواد مـن أهـالي الأحيـاء الأخـرى ، فـي القـاهرة كـان مقهـى الفيشـاوي العتيق بمقاصيره القديمة ، ملتقى الفنانين والشخصيات البارزة و الدراويش وأهـل السـبيل ، لـم يعد باق من الفيشاوي إلا شظايا مكان ، ولأنني لا أطيق الزحـام المفتعـل وظهـر أعـداد كبيـرة مـن الأجانـب في الليالي الرمضانية خلال السنوات الأخيرة ، فإنني أمضي إلي المقاهي الصغيرة في الحـي الأصـيل ، أو إلي حديقة بيت السـحيمي الـذي وصـل إلينـا سـالماً مـن العصـر العثمـاني ، وبقـى نظيفـاً جليلاً بحديقتـه النادرة ، بفضل عناية مديره الصديق محمد مجاهد ، هذا البيت وفنـاؤه الـذي تغطيـه الظـلال الثقيلـة الليليـة بمثابة ركني السديد الذي آوى إليه في رمضان ملتمساً الزمن الحلو القديم الذي لن يرجع أبداً .

نمضـــي الليلة ، ويقترب موعد مرور المسحراتي ، نطل مـن النوافـذ والشـرفات يظهـر عـم حسـن الباجوري مسحراتي حارتنا ، يقرع بعصاه الأبواب والنوافذ ، منادياً كـلاً باسـمه ، وإذ يصـيح " وحـد الله يـا أبـو جمال " أصبح فرحاً ، فقد سمعت أسم الوالد الكريم ، ومن قبلي و من بعدي صاح أطفال الحارة .

نتنـــاول السحور ، وبعده يمر أحد الرجال على بقية السكان منبهاً إياهم إلـي صـلاة الفجـر ، وفـي الصمت نسـمع أصوات القباقيب تخطو في صالات البيوت ، وصنابير المياه عند الوضوء ، فـي الحـارة يتجمـــع الرجال ، يمضون جماعة إلي مسـجد الحبيب سـيد الشـهداء ، ثم يغلبنا النوم ، فيهجع الصغار .

مـــــع الأيام الأخيرة كان الوالد يقول لنا مداعباً : إن الشـيخ رمضان يحزم متاعـه و يسـتعد للرحيـل ، و كنا بمخيلتنا نراه شيخاً مهيباً قد جاء فوزع السـور و الألفـة و البهجـة ، ثـم بـدأ يسـتعد للرحيـل ، ليجـيء من بعده شوال والعيد ، وعندما يرحـل رمضـان تخـيم علـى القلـب وحشـة ، ويفتقـد الفـؤاد أنسـه وحيويتـه وحركته ، ونتطلع بلهفة إلي عام جديد مقبل .

الأذان

فـــــــي ليالي رمضان لا أغمض عيني إلا بعـد اسـتماعي إلـي شـعائر صـلاة الفجـر مـن مسـجد الإمام الحسـين ، وأنـا فـي مسـكني بضـاحية حلـوان النائيـة ، وقـد كنـت أحضـرها وأشـهدها قبـل أن ينـأى المكان بي .

بمـــــن المذياع أيضاً أصغى طوال الليـل إلـي إذاعـة اسـطامبول ، عبـر المسـافات البعيـدة يصـلني أصوات قراءة القرآن الكـريم الأتـراك ، لـتلاوتهم إيقـاع خـاص ، ولتـراتيلهم الصـوفية مضـمون غـامض وحـزين ، أصغى إلي أناشيد جلال الدين الرومي ، إلـي الموسـيقى الصـوفية الخاصـة ، أمـا أذان الفجـر فقـد سـمعته أول مرة من مساجد استامبول عندما كنت أعبر البوسـفور علـى ظهـر سـفينة عـام ألـف وتسـعمائة وثمانيـة وسـبعين ، كان صوت المؤذن فيه شـجي ، وتلخيص للمصير الإنسـاني ، ينبعث من الأرض متجهـاً إلـي عنـان السـماء ، كأنه معبر عن حزن المخلوق الذي انفصل عن الخالق ، كأنه تعبير عن غربـة الـروح الإنسـانية فـي العالم المادي ، فيه قوة تعبر عن رغبة الإنسان في الوصول وتخطي المسـتحيل، وفيه حزن مقطر يعبـر عـن إدراك الإنسـان .. لعجزه وتقصيره ، كأنه شـكوى غامضـة تعبـر عـن انقضـاء الزمـان ومـرور الأيـام وانتهـاء أجـل الإنسـان الفرد عند مدى بعينه ، استغاثة مهذبة ، خجول ، طامعة في الرحمة .

إذ يرتفع هذا الأذان من الضفاف البعيدة ، يأتيني عبر بقايا الليل ، إذ يرتفع أذان الفجر من منابر مساجدنا ، يسود الليل صمت ، وتنزل في قلبي سكينة ، و أصغى إلي إيقاع الزمن الخفي الذي لا راد له ، و أتساءل مستعرضاً كل ما مر بي من أيامي الرمضانية :

من تغير .. من ؟ الإنسان أم الزمان ؟

الشمندورة .. ورمضان في النوبة الجميلة !

هـــــذه الرواية " الشمندورة " التي اجتذبت أسماع و أفئدة الناس .. عندما أذيعت كعمل درامي بالإذاعة في الستينيات من القرن الماضي ..

ومبـدع هذا العمل الأديب " محمد خليل قاسم " هو في تقديرنا رائد ما اصطلح على تسميته بـ " الأدب النوبي " ..

وقـــد روى هذه السيرة الشعبية النوبية – الشمندورة – بأسلوب فريد مغلف بالبساطة الشديدة هو أسلوب الشخصيات نفسها : برعي .. وداريا سكينة .. أحمد عوده .. الشيخ حسين .. الشيخ فضل .. أمين .. حامد .. شعبان .. بطه وسعديه وبخيته و " شريفة" حديقة أطفال النجع ! .. و بإيقاع روائي متدفق شكل " بانوراما " لطبيعة الحياة في النوبة المصرية ، كما كانت وثيقة تؤرخ لعصر من حياة الناس في قرية " قته " و ما جاورها من قـــرى : ابريم والدر ، والجنينه والشباك .. وكل النوبة الجميلة .. حيث البساطة والهدوء .. وأشجار النخيل .. وأكواب الشاي في الضحى .. و مشهد النيل والمراكبية وأغنياتهم الدافئة عن العذارى !

وجانـب من أحداث الرواية يقع في شهر رمضان .. فيعرض محمد خليل قاسم لعادات وتقاليد أهل النوبة وتفاصيل حياتهم خلال هذا الشهر الكريم .. ففي ليلة الرؤية .. و " داريا سكينه " عائدة من دكان " أمين " تاجر البقالة .. " يتناهى إلي سمعها وهي تنصرف صيحات الأطفال ، وتراءى لها على مد البصر في كل الطرقات هالات مستديـرة من الضوء تبرق في غبن المساء ، فتذكرت أبنها – جمال – في صغره ..

كان يلح عليها فتجلب له سلبة طويلة يشعل طرفها يوم رؤية الهلال و يطوح بها فوق رأسه ويدور بها وهو يرسل صيحات الفرح .. تماماً مثل هؤلاء الأطفال .. حتى البنات يلعبن بالسلب المشتعل .. ما أسرع ما يكبرون و يهجرون .. " !

ومــن المئذنة العالية خلف بيتها يرتفع صوت " نوح " يسبح و يكبر و يعلن في النجع كله رؤية هلال رمضان .. و يهتف في كلمات منغومة :

- يا عباد الله .. وحدوا الله ..

ويهبــط درج المئذنة في أناة و عند الباب نستقبله نحن الصغار بالتهليل و الصياح وتستدير به .. نرج الأرض بأقدامنا ، ونطوح فوق رأسه بهالات الضوء ثم نسري خلفه في الطرقات ندق بقبضاتنا على كل باب .. وحدوا الله .. يا عباد الله .

وبينمــا نحن لا نزال ندور يقودنا عم نوح : يا عباد الله ... وحدوا الله .. شهر البركات و الصيام .. مرحباً بك يا رمضان !

وكعاداتهـم في كل رمضان ، يتجمع رجال النجع في العصارى ، في الساحة الممتدة بين الدكان و الشونة يسلون صيامهم بقراءة الأوراد جلوساً على الأبراش الخوصية الملونة ، و من حولهم صوان نحاسية صفراء رصت فيها القلل القناوي ذات الأغطية النحاسية البارقة في وهج الشمس الغاربة ، بينما تنهمك فضيلة في المطبخ شأن كل زوجة ، في التشطيبات الأخيرة لمختلف الأطعمة التي تقدمها في الإفطار لزوجها ، وتفكر في جارتها أم سعدية و فنونها في الطهي ، و في تعليقات الرجال في الساحة على شطارة هذه أو تلك في نوع محدد من الطعام ، فتتفنن وتبدع ، وتشعر بالزهو حين تتناهى إليها كلمة طيبة قالها الشيخ فضل أو شليب في طبق قدمته ، وتحس بالحزن حين تتسرب إليها كلما استهجان قالها أبي أو أحمد عودة :

- لماذا لم تغسلي القلة .. و الأبريج ساخن .. فتطرق وتشتم ابنتها الصغيرة ..

- يا للعار .. كسفتينا يا بنت !! بلي الابريج في الماء البارد و زيدي السكر قليلاً ، ولماذا لم تقدمي لهم شعرية يا بنت في رمضان المفترج .

فتلوي الفتاة شفتيها و تذرف دمعة ثم تعتزم زيارة بطة أو سعدية لترى كيف تعدان إفطار الرجال ..

فمنذ شهر أو يزيد استعدت كل امرأة لهذا الشهر : تتلقى طرود قمر الدين ، وتفتل الشعرية من دقيق القمح ، وترعى حقول الفجل و الطماطم و البصل و الرجلة لإعداد السلطات والمشهيات اللازمة وتفرك بالرمل أغطية القلل لتلمع ، و تدفن حبات الليمون في الطين ، تعصر منه قطرات في الماء ، و تخمر دقيق الذرة تدحو منه ابريجاً شفافاً مززاً تنقعه في ماء مسكر ، تملأ منه سلطانيات بيضاء ، و تتركها في مهب النسيم ثم تقدمه شراباً مرطباً للزوج أو الابن يتبلغ به في المساء و يبل له ريقه بعد صيام مرهق أما هي فقد تتجرع رشفة من هذا الابريج ، وقد تكتفي بالماء القراح أو بحفنة من التمر تزدردها .. المهم أن يرضى الرجال المتجمعون في الساحة ، المهم أن تسلم من سخرية فضل وشليب والمحامي ، و من ثرثرة الولد الصغير " سعيد " شقيق سعدية الذي يتخذ مكانه – من دون كل العيال – بين الرجال ، يستمع إلي نوادرهم و يتلصص على كل أناء ، و ينقل كل كلمة إلي أمه .. فتكون الفضيحة التي تسري كالنار ..

لكنها تلقي نظرة على ما أعدته و تتنهد في ارتياح و تهمس لنفسها :

- و لا فضيحة و لا حاجة ! ما زلت أقدم أشهى طعام لزوجي وضيوفه ..

و تلقي نظرة أخيرة لتتأكد ثم تأمر ابنتها :

- هيا فأن الشمس تكاد تغيب !

وتلقي بقطع الخبز " الكابيد " في الفالاكا .. فتعوم على " الباميا " .. و تغطي الفالاكا و سلطانية الابريج و السلاطة بأطباق خوصية مزخرفة ، ثم تخرج تتقدم ابنتها ، وقد حملت الفالاكا على

رأسها دون أن تسنده بيدها ، فاليمنى مشغولة بسلطانية الابريج ، واليسرى ممسكة بطرف الجلباب خشية أن تتعثر في الجرجار الطويل وتصرخ في ابنتها :

- هاتي أنت طبق السلاطة .. عجلي .. مالك تقفين مثل العبيطة ..

وتخطو على الطريق خطوة خطوة و تتوقف على حافة الساحة وتهمس :

- هوي .. هوي !!

و تظل تردد : هوي .. هوي دون أن تذكر أسم الرجل ، فيبتسم أحمد عودة و يقول :

- يا سلام يا ست فضيلة .. مكسوفة مثل العروسة !!

فيضج الرجال بالضحك ، و ترمقهم الزوجة في غيظ و تهمس :

- هوي .. هوي .. الأكل سيبرد ..

فينهض برعي بسرعة و يتلقى عنها ما تحمله ، فتعود متثاقلة تصيخ السمع إلي كلمات الرجال .

وفي الساحة رفع الشيخ فضل غطاء " الفالاكا " و هو يتلمظ وأعاده و نظر ليرى الشمس الغاربة تكاد تختفي بين غابات النخيل ، فيعاود التسبيح بينما أبي يتوضأ ويتجه هو الآخر إلي الشمس يرجو أن تغيب بسرعة ، فلا تبالي به بل تخرج من بين الأشجار كرة حمراء تلقي اشعاعاتها الذهبية على السعف ، و الكراديف .. وترسم ظلال البيوت والناس طويلة ..

وسعيد الصغير يجلس بجوار الشيخ جعفر الذي تحفز نافذ الصبر من الشمس التي لا تريد أن تغيب و يسب عم نوح الذي لا يرضى أن يؤذن ، فيميل إلي الصغير :

- ولد .. كيف حال أمك ؟

- الحمد لله ..

- وهل تصوم أمك ؟

- تصوم ..
- وأنت ؟

يتردد الصبي قليلاً قبل أن يقول :

- أنا أيضاً أصوم والله والله العظيم ..

فيضحك الرجل ويمسح على شعر الصبي ...

و ها هي أمة تقبل بالأكل ، و تتوقف عند حافة الساحة و تنادي :

- هوي .. هوي ..

لعلهــا تتخيل زوجها ، فلا تذكر أسمه ، فالصبي هناك ليمثله .. و يضحك فضل وأبي وينهض إليها أحمد عودة ويتلقى عنها طعامها و هو يهمس :

- أتعرفين ماذا قال جعفر لسعيد ؟
- ماذا قال ؟ لعنة الله عليه ..
- سأله من الذي يغطيك بالليل ؟

فترسل ضحكة و تسب الشيخ جعفر .

- رجل ضلالي ! لا يصوم رمضان !
- والله أنا صائم .. أما زوجك هذا فهو المفطر ..

ويشير إلي الصغير : أما أنت فلا تصومين .

- أنا ! فشر .. زوجتك هي التي لا تصوم .
- والله أنها تصوم حتى في الليل .. لا ترضى أن أمسها بحجة الصوم .. والمصيبة أنها تصوم كل شهور السنة !

فتضــــج الساحة بالضحك من جديد ، و تنسحب أم سعدية هانئة تبتسم لنفسها ..

وتختلــح الشمس ثم تصفر و تتكـيء علـى الرمـل وتغيـب و تنطفـيء فيرتفـع صـوت نـوح بـالآذان و تنطلق معه صيحات الأطفـال ، و قبـل أن يكمـل تسـبيحته تنـدفع الأيـدي إلـي سـلطانيات الابـريج ، و تعـب الأفواه ثم تزدرد حفنة من التمر ، و يقوم الرجال للصلاة ، ثم يعودون في شوق إلي السـلطات و آنيـة الأكـل ، ويرين الصمت لحظة ، لا يسـمع المرء فيها غير صوت المضغ ، وخرير المـاء فـي الحلـوق ، ثـم يرتفـع صـوت الشيخ شليب :

- قال النبي :
- عليه الصلاة و السلام ..
- قال : تحدثوا على الطعام و لو بثمن أسلحتكم ..

وينتهــــي الإفطار ، ويواصل الرجال أحاديثهم الشجية عـن الأرض والطوفـان ، وبركـات أفنـدي أثنـاء رشفات الشاي ثم يقومون لصلاة التراويح ..

وتمضــي أيام رمضان تباعاً ، ينامون فـي النهـار ، لا يعملـون إلا قلـيلاً و يسـهرون الليـل كلـه إلـي السحور ، بين حلقات الذكر و الاستماع إلي القرآن يتلوه الشيخ يعقوب عليهم فـي السـاحة مـرتين أو ثلاثـاً في الأسبوع ، و قد يديرون أقراص الحزمة بمليم يادره ، أكل الباشوات و الأمـرا ، أو يسـتمعون إلـي أسـاطير البطولة ، يتلوها عليهم المحامي أو المأذون مـن كتـب صـفراء : غـزوة أحـد .. غـزوة بـدر .. أبـو زيـد الهلالـي سلامة .. وعنترة ..

فـــــي الأيام الأخيرة من رمضان يتطلـع النـاس إلـي العيـد بأمـل ، ويراقبـون السـماء فـي لهفـة ، ينتظرون ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، فتتحول رءوسهم دائماً بعـد صـلاة التـراويح إلـي الفضـاء ، وتحدق العيون في كل نجمة و نتوقع أن تنشق السماء عندها عن القدر نفسه !

فيواصلون السهر ، وقد أعدوا دعاء موجزاً مقتضباً يهتفون به جميعـاً دفعـة واحـدة أمـام القـدر حـين يتجلى لهم !

وينصرفون إلي شئون العيد ، و يدلفون إلي المتجر و يقطعون أمتاراً من الدبلان والبفتة والباتستا و الشيت و الطرح الملونة و قدراً من السكر والشاي ، ويعودون إلي بيوتهم ظامئين يقولون لأنفسهم : أيام خمسة ثم ينتهي الصيام و يهل العيد .. مرحى !

الحركة دائبة بين الدكان و البيوت و جزارة عبد الله و دكانه عم شاهين الترزي . والفتيات في البيوت يطرزن ، و ينظفن كل ركن في البيت ، لاستقبال العيد و يسهرن على ضوء الفوانيس ، لكشكشة الجلابيب عند الصدر و تطويقها بزيق أحمر ، و يجددن تسريحة الشعر بعد بله بمنقوع الشاي ، و الصغار ينشرون جلابيبهم على الصدور ويقذفون بها بعيداً .

- جلابية صالح أحسن من جلابيتي .. أريدها بياقة ..

حتى أمي تنصرف لمشاغل العيد ، و تراقب ابنتيها و هما تعدان ملابس العيد لها ولجدتي ولنفسيهما فترشدهما وتنهاهما عن تحزيق الجلباب عند الصدر ، و الكشكشة في الجرجار يجب أن تكون عريضة حتى لا تجمع التراب و الشوك ، و يجب أن تتسع حتى لا تشتبك بالخلخال ، ثم بخي يا بطة طاقية حامد و أطويها حتى تلمع .. تقول هذا وترمقني في حنان وتشمل وجهي بنظرتها الطويلة المشفقة ثم تسأل :

- حامد .. ماذا تتمنى على الله في ليلة القدر ؟

حقاً ماذا أتمنى ؟ المدرسة ؟ .. أي شيء ؟ حرت كيف أجيب ثم قررت مثل المحامي أن أطلب من القدر أن يكف الطوفان أذان ، لكنها انشغلت عني قبل أن أجيب لتلقي نظرة على جميلة و هي تجرب جلبابها .

وإذا ما كان المساء خلوت إلي بطة أو شوش في أذنها :

- ماذا نتمنى يا بطة في ليلة القدر ؟..

فتركت الأبرة في الغرزة ومالت بوجهها وقالت :

- أمنا يا حامد مريضة .

أمنـــــا مريضة ! .. يالي من غبي ! .. لماذا لم أفكـر فـي هـذا ؟.. سـوف نطلـب مـن الله أن يمـن عليها بالشفاء ، فلا تنتابها الاغماءة و لا ترسم على الأرض تلك الخطوط .

واستقـــر الـرأي واتفقنـا أنـا و بطـة أن نســهر كـل ليلـة فـي فنـاء البيـت و أن ننـام مباشـرة بعـد الإفطــــار و ننسحب بعد أن نصحو إلي الفناء نتلفع بحرام ثقيل لننتظر طاقة القدر حين تفتح .

قررنـــا أن نحظى وحدنا بشرف هذا الدعاء ، فلم نفض بـه لأحـد .. لا لأبـي ولا لشـقيقتنا .. وحـين تشفي الأم سيكون في مقدورنا وحدنا أن نتباهى و نحظى بأكبر قدر من عطفهـــا .

وأخذنـــا منذ تلك الليلة ننام بعد الإفطار ، ثم نصحو و نتوضأ و نصلي ونسهر في الفناء ، ثم شـعرت أننا بعيدان عن السماء ، فأخذنا في كل ليلة نتسلق جذع النخلة و نهبط منه إلـي السـقف ، و نرتكـز هنـاك في صمت نرقب السماء و نتطلع إلي الشرق و الغرب و في كل اتجـاه .. وقـد تنـام بطـة فألكزهـا بكـوعي و قد أنام فتزغدني هي لتوقظني .

قلـــت لها مرة : ولكن هل يطلع القدر لنا نحن الصغار ؟ .. سيطل على الكبار يـا بطـة ولـيس لنـا ! قالت : كم أنت عبيط ! أنه يطل على الصغار ما داموا طاهرين .. ألم نتوضأ ؟ .. ثم زغـدتني و هـي تهمـس : لا تشغلني فقد تنشق السماء و أنت تثرثر فلا نراهـــا .. أصمت ولا تتكلم ..

والتصقنـــا تحت الحرام نلتمس الدفء ، وعيوننا تتفرس في السماء التي بدت صافية كعـين الـدين . زرقاء ، مزدانة بالقمر و بآلاف النجوم تبرق هنا و هناك ، و تنهض إليها مئذنـة الجـامع : كتلـة طينيـة سـوداء طويلة ، مدببة – يتصل النور بينها و بين الصخرة المعلقـة علـى كتـف الجبـل ، بينهـا و بـين غابـات النخيـل ، والنجع صامت إلا من همهمات عند دكانة الترزي ، وأدعيـات التـراويح تنبعـث مـن الجـامع ، وضـحكة خليـة ، وآهة مكتومة ، السماء كبيرة واسعة ، و قد خلا الفضاء في شهر رمضان مـن مواكـب الجـن الـذين يحـاولون تسلق الملكوت الأعلـى واختـراق السـماء . انهـم محبوسـون فـي قمـاقم بـأمر الله ! بصرانا لا يكـلان ، بـل يتفرسـان . و نحن صامتان نكاد نسمع دقات قلبينا ، يفزعنا مـن أحلامنـا سـعال الجـدة وهمهمـة " جميلـة " في منامها .

وفـــــي منتصف الليلة الثانية قبل الأخيرة من رمضان ، كنا لا نزال نتفرس في السـماء ، و نحملـق بعيوننا في النجوم ، و في الزرقة المعتمة المحيطة بأنوارها البارقة .

وفجـــأة ، و بينما نفتح أفواهنا لنقول شيئاً انشقت السماء عن خط لامع بارق يجر ذيلاً طويلاً مـن خلفه ، ذيلاً من النور الزاهي ، تزايلت النجوم فيه و تلاشت الزرقة الصافية في حواشيه .

وشملتنـا نحن رعشة أفاقت منها بطة تصيح : حامد .. حامـد .. ليلـة القـدر يـا ولـد ؟ فـدب الارتبـاك في جسدي ، و أحسست بشيء يقف في حلقي مثل الخازوق ، أحرك لساني فلا تخرج الكلمات مـن فمي ، ثم تألقت الدموع في عيني ، وبطـة مازالـت تصرخ : ليلـة القـدر .. آه .. لقـد اختفـى كـل شــيء ، و عادت السماء إلي زرقتها المعتمة ، و عـادت النجـوم تتـألق والقمـر يسـطع .. وحينـذاك عـاد لســاني إلـي حركته و اختفى الخازوق من حلقي فرحت أهتـف ، واقفاً علـى قـدمي ، مطوحاً بيـدي للسـماء : أمـي .. أمي .. أشف يا رباه أمي .. ثم اختنق صوتي بالبكاء ، و تهاويت علـى سـقف البيـت ، و ارتمـت بطـة فـوقي وهي تبكي وتصرخ : رباه .. أشف أمي يا رباه .

وصمتنـــــا ، وفي قلبينا احساس بحزن ثقيل يجثم علينا ، و على الكون كله ، حزن تضاعفه قتامـة المئذنة والصخرة المعلقة على كتف الجبل ، حزن يتسرب إلي كل ذرة من جسدينا . ثم تحـول الحـزن إلـي ندم شديد ينيخ على صدرينا .. ألم نغفل ؟ .. ألم نعجز عن الدعاء حينما انشـقت السـماء لنـا؟ .. تعيسـان منحوسان .. لم ننتهز الفرصة المتاحة .

وانكفأنا نبكـي و نصـرخ إلـي أن تنبهـت جميلـة التـي اسـتيقظت لتعـد السـحور إلـي صـوت بكائنـا فراحت تنادي :

- من الذي يبكي فوق السطح .. من ؟

وصمتنا فجأة حين وقفت تحتنا مباشرة تستمع إلي وشوشاتنا ثم أصابها الذعر فراحت تهمس لنفسها : باسم الله .. باسم الله .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأقبلت عليها الجدة من الداخل تقول في صوت متثائب :

- جميلة .. أين حامد .. أين بطة ؟
- أليسا في الدهليز يا جدة ؟
- كلا .

وصمتت لحظة ثم أضافت :

- البنت العفريتة سحبت أخاها لتسهر في انتظار ليلة القدر .. شعنونة ..

ورفعت جميلة رأسها إلي السقف و قالت : بطة .. أنت يا ولد ؟

فأجبنا بعد صمت ، ثم تسلقنا جذع النخلة من جديد إلي الأرض ، وارتميت في أحضان جدتي وأنا أصرخ : ليلة القدر .. انشقت السماء .. لكننا .. سامحيني يا أماه ، فأدركت الجدة كل شيء من كلماتي المتقطعة ، فتحسست شعري و ساقتني إلي العنجريب ، ولم تتركني إلا وأنا أغط في نوم عميق لم أفق منه إلا حين طرق " نوح " بقبضته على باب بيتنا يدعونا للسحور ، و مضى ينشد في طرقات النجع أنشودة الوداع : لا أوحش الله منك يا شهر الصيام .. لا أوحش الله منك يا رمضان .

لا أحد ينام فى الأسكندرية .. ولا فى ليل رمضان !

أديبنا الكبير السكندرى "إبراهيم عبدالمجيد" الذى عاش طفولته وشبابه فى مدينة التاريخ والفن والجمال ، وقد تركت مؤثراتها وشخصيتها الفريدة على كثير من أعماله ومنها "لا أحد ينام فى الأسكندرية" ، ففى عام ١٩٤٠ والحرب العالمية الثانية فى أوارها ، وبطل الرواية "مجد الدين" الذى رحل من قريته إلى الأسكندرية برفقة "زهرة" زوجته وابنته "شوقية" وقد حل عليهم شهر رمضان وهم فى هذه الظروف الصعبة "لم يكن مجد الدين يتوقع أن تبكى زهرة بهذه اللوعة ساعة إنطلاق المدافع فى المساء معلنة أن

غداً هو أول شهر رمضان" كان يشعر بإمتداد الحزن بداخله وأن "رمضان هناك فى قريتهما التى يحنو عليهما فيها جميع تراب الأرض" !.. وقام جاره وصديقه الخواجة "ديمترى" وقرينته "الست مريم" بزيارتهما للتهنئة بحلول رمضان ، وما أن بدأت السهرة ، حتى عرض "ديمترى" على مجد الدين : "ما رأيك فى جولة معى بالشوارع الآن؟ رمضان يحب السهر" بينما توجهت "زهرة" مع الست مريم إلى حجرتها للإستماع إلى الراديو !.. إلى أن أتت "الست لولا" جارتهما فى السكن قائلة : "الأفندى بتاعى خرج يسهر مع أصحابه على القهوة ، عمل حجته رمضان" !.. وإستمتعن جميعاً بالسهرة الرمضانية ومعهن "ايفون" و "كاميليا" ابنتا الست مريم ، وقامتها بشوى "أبو فروة" على السبرتاية !

فى العام التالى ١٩٤١ ، توالت غارات المحور على المدينة و "إزداد الهم على الناس لدخول رمضان للسنة الثانية بلا أنوار ولا سهر ، وإرتفعت أسعار كثير من السلع ... والولائم الملكية لم تعد تكفى لإسعاد الفقراء ، ففى الأسكندرية لا توجد إلا وليمة واحدة أمام جامع المرسى أبو العباس ، بينما هى منتشرة فى القاهرة ، ولقد إفتتحها وكيل المحافظة وأكل مع الفقراء ، وإعتذر عن عدم حضور المحافظ لسفره إلى القاهرة ليبارك الملك بحلول شهر رمضان ... ولم يختلف رمضان عند مجد الدين عن العام الماضى" !.. كان الملك فاروق قد إعتاد إقامة موائد إفطار وسهرات قرآنية لعامة الناس فى ساحة قصر عابدين ، وفى عدة أماكن بالقاهرة والجيزة .

كان مجد الدين وصديقه "دميان" يعملان بمصلحة السكك الحديدية ، وفى العام ١٩٤٢ ، إنتقلا للعمل على مزلقان "العلمين" وتحتشد الرواية بالأحداث التى تجسد الحرب الرهيبة وكل تفاعلاتها ، وفى ليلة غرة رمضان فوجىء مجد الدين بدميان يقول له : "سأصوم معك الشهر كله" !.. "صيامنا صعب يا دميان إنقطاع عن الطعام والشراب طول النهار" ؛ "هذا أفضل من أن يأكل كل منا وحيداً فى الصحراء" !

وقد عاصرت تلك القيم الجميلة بين المسلمين والأقباط ، يوم كانت تسود التقاليدالأصيلة المتوارثة المجتمع المصرى دون النظر إلى الدين : مسلمين وأقباط ويهود ، وعرفت أقباطاً كانوا يصومون شهر رمضان ويبتهجون لقدومه وسهراته ، ومنهم عم "صالح" الذى ظل يصوم رمضان أكثر من ثلاثين عاماً وكان قد نذر أن يصوم رمضان إلى أن يتوفاه الله "إذا رزقه بولد" !.. وقد تحققت أمنيته بفضل من الله سبحانه وتعالى .

سالمه والحاج جابر فى رمضان

تركزت أعمال الأديبة و الرحالة "أليفة رفعت" فى حياة المرأة المصرية ، فى بيئات مختلفة ، خاصة الريف المصرى ، وفى صور متباينة ، لكنها عميقة وصادقة ورائعة .. وفى قصتها الجميلة "نخلة سالمه" روت حكاية البدوية "سالمه بنت شيخ العربان عمران" من قبيلة الهوارة الأشراف ، راعية الغنم التى أعجب بها الحاج "جابر الحندوس" فأيقظ أنوثتها .. وبإيجاز أصبحت زوجته الرابعة ، ولكل غرفتها الخاصة فى الدار الكبير ، الأولى الحاجة زكية ابنة عمه ، والثانية سميرة أم الأولاد والثالثة فكيهة الإسكندرانية أم البنات ، والجميع ينعمون فى ثراء الحاج ونفوذه الممتد بالقرب من بحيرة قارون ، وبرعت الأديبة فى سرد تفاصيل الحياة اليومية للحاج جابر ونسائه ، ولا شك أنها تأثرت فى بعضها بلمحات من سيرة النبى – صلى الله عليه وسلم – خاصة عندما كبرت الحاجة زكية و إشتد بها المرض ، فوهبت ليلتها لسالمة ، أصغرهن وأحبهن إلى قلب الحاج ، تماماً كما فعلت السيدة "سودة بنت زمعه" عندما وهبت ليلتها للسيدة "عائشة" أن المؤمنين ..

وعرضت الأديبة لطقوس شهر رمضان فى دار الحاج جابر وكان أبرز مظاهره : توقف مشاحنات نسائه وإعتكافه بالمندرة ، فكتبت : "عندما حل أول رمضان تغيرت الأحوال فى البيت الكبير ، فلم تعد تسمع أصوات مشاحنات النساء ولا ضجة لعب العيال ولا حركة عمل الأجراء ، وأجل الحاج أعماله خالياً إلى ربه معتكفاً بالمندرة طوال النهار والليل ، حتى إذا ارتفع آذان المغرب خرج إلى أهله يشاركهم تناول جرعة ماء وتمرة يغيروا بها ريقهم .. وفتح باب المندرة من ناحية الطريق ، وخرج الخدم بصوانى الطعام يدعون المارين الأغراب لطعام الحاج ، وتحت شجرة التوت وحتى حافة النافورة تبسط سجاجيد الصلاة . ووقف الحاج يؤم افراد عائلته من الرجال والعيال والخدم ووراءهم تقف النساء مع خادماتهن مصطفاً ليؤدى الكل صلاة المغرب جماعة ، حتى إذا انتهوا طويت السجاجيد سريعاً وفرشت الحصر ورصت فوقها الوسائد حول طبالى تحمل صوانى الطعام . فتربع حولها أفراد العائلة يدنون جانبهم الأيمن من الصوانى ويأكلون بأصابعهم ما تصل إليه من أصناف الأكل ، ويروح الشيخ يداعبهم متفكهاً فى سماحة ويحثهم على إلتهام

الكنافة و إرتشاف أقداح قمر الدين . وفى إنتظار صلاة العشاء والتراويح راحوا يجولون متسامرين بالساحة حتى يهضم الطعام وعندما ارتفع أذانه كانت الحصر والوسائد قد جمعت وبسطت سجاجيد الصلاة مرة أخرى فاصطفوا وراء الحاج يستمعون لصوته المرتجف خشوعاً وهو يقيم الصلاة مكبراً وتالياً للذكر الحكيم .. أدوا الصلوات كلها بنشاط بسجداتها الكثيرة . يكتمون الضحك كلما تأوهت فكيهة من ثقل ردفيها . وقال الحاج لها : ابقى أقعدى فى آخر الصف جنب الحاجة زكية وصلى وانتى قاعدة . ربنا مش عايزنا نشقى ونتعب فى الصلاة .

وبعد هذا رجع الحاج للمندرة حيث ينتظره الرجال ليقيم الذكر حلقات تتلو حلقات ويستمعون للتواشيح الدينية والمدائح النبوية ويصل صداها للنساء وهن فى غرفاتهن فى إنتظار طعام السحور ، وعندما يحين موعده تفرق عليهم الخادمات سلاطين الزبادى فيأكلن وينزلن مرة أخرى للساحة فى إنتظار صلاة الفجر وبعدها يأوين لمضاجعهن حتى ميعاد صلاة الظهر فينزلن يصلين وراء الحاج ، وبعدها تفرغ سالمة لعملها فى غرفتها وتنشط فكيهة وبناتها وسميرة بالمطبخ أما الحاجة زكية فتجلس فى فراشها تقرأ ما تيسر من آيات الله . هكذا مرت أيام رمضان سريعاً وحل العيد فأدى الحاج الزكاة وفرق العيدية على أفراد العائلة كلها وإلتهموا تلال الكعك والغُريبة التى تفننت فى صنعها فكيهة" .

أحمد بهجت .. ومذكرات صائم

والكاتب الصحفي الكبير الفيلسوف الساخر " أحمد بهجت " في كتابه " مذكرات صائم " تخير شخصيته صائم ينطبق عليه قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : " رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش " ..

ونلمس فى ثنايا الكتاب تراثنا الشعبى المتواصل و المنحدر من أصلاب " الفلاح الفصيح " و عبد الله النديم " و " بيرم التونسي " .

ويقول " أحمد بهجت " : إن شهر رمضان ـ عندى ـ من الشهور الأثيرة ، وهو شهر يرق فيه القلب وتسمو فيه الروح ، ويمكن للانسان أن يعثر فيه على ذاته الحقيقية كعبد لله . ويضيف أنه يكتب " مذكرات صائم " ولا يكتب عن الصوم ، فهناك فرق هائل بين موضوع الصوم وشخص الصائم .

وعن رؤية الهلال فى مصر المملوكية .. يقول أحمد بهجت :

كان أحد أجدادى الذين عاشوا فى عصر المماليك رجلاً قد أدركته حرفة الأدب ، وكان يكتب خواطره فى الحياة بأسلوب المقامات .. وقد ترك هذا الجد أوراقاً متفرقة وقليلة .. من بينها ورقة صفراء تحكى عن رؤية هلال شهر رمضان فى ذلك الزمان .. قال جدى : " فلما جاء اليوم التاسع والعشرون من شهر شعبان ، إستعد المصريون لاستقبال أفضل الشهور .. ففيه على الأقل تسجن الشياطين ، ويقل ما يلقون من ظلم المماليك .. وفى وقت الأصيل عقب صلاة العصر ، خرج موكب الرؤية كالمعتاد ، وكان يتقدمه فى طريقه إلى جبل المقطم ـ شيخ مهدم محطم ـ يؤمن الجميع بأنه شيخ مطمطم ، وكيف لا وهو المصدر المسئول عن رؤية الهلال ، وهى وظيفة شريفة لطيفة وعال ، يتوارثها شيوخ أسرته من أجيال وأجيال .

والعجب العجاب .. أن هذا الشيخ المهاب ، كان لا يبصر ما تحت قدميه .. بسبب رمد مزمن أصاب عينيه .. لكنه رغم ذلك العمى الأكيد ، كان قادراً على رؤية الهلال من بعيد ... وطالما إنفرد برؤيته ، لم يسع الحكام إلا الأخذ بشهداته .. وإعلان بدء شهر الصيام .

ويزول العجب إذا عرف السبب .. فقد كان الشيخ يستعيض عن نظره الضعيف المضعضع ، بعينى مساعد شاب له يتبع ويخضع .. فإذا رأى الشاب الهلال عرف منه ذلك فى الحال .. ثم إدعى منه لله : إنه هو الذى رأه .. وصدق الكل دعواه .

ويشاء السميع العليم .. أن يتغيب الشاب عن الموكب فى ذلك اليوم العظيم .. وكانت لذلك حكاية ولا كل الحكايات .. ليس كمثلها فى الماضيات ، فقد حدث قبل ذلك بأيام معدودات ، أن كان الشاب يسير فى إحدى الحارات ، فوقعت عينه على إحدى الفتيات .. ذوات الملايات .. ولم تكن كأترابها من

السـمراوات ، الممتلئة بهن الطرقات .. بل كانت بيضاء كالفضة النقية .. أو طبق المهلبيـة ... وبـدا لـه وجهها تحت ملايتها السوداء .. كأنه البدر فى الليلة الظلماء .

وما كادت تبادله النظرات ، وترد على دهشته بالابتسامات .. حتى شعر بقلبه يهـبط إلـى رجليـه ، وبعقله يطير فى الهواء مرفرفا بجناحيـه ... وهـل هـو إلا مصـرى ككـــل المصـريين .. إذ يقفـون أمـام النسـاء البيض خاشعين مبهورين ، فاللون الأبيض عندهم هو لون الغزاة الحاكمين .. وأن يظفر أحـدهم بـإمرأة بيضاء فذلك هو الفوز المبين .. وبلوغ القصد والمراد من رب العالمين ..

ومن تبادل النظر والابتسام ، إلى تبادل التحية والسـلام والكلام ، إلى التواعـد علـى اللقـاء بعـد أيـام .. وقع الاثنان فى حب نصفه وجد ونصفه هيام .

ولسوء حظ المصـريين التعسـاء ، كـان التاسـع والعشـرين مـن شـعبان هـو اليـوم المحـدد للقـاء ، فتغيب الشاب عن موكب الرؤية فى ذلك العام .. ولـم يجـد الشـيخ بـداً مـن الاعتـراف بأنـه عجـز عـن رؤيـة الهلال ، فتأخر الصيام يوما بلا نقاش ولا جـدال ، وقـال المماليـك للمملـوكين : أنـتم الكسـبانين وقـال أحمـد بهجت بقادر على الإحساس بالحب أو الهوى .. بل أحس بالبرد ... جلس يقـرأ قبـل النـوم .. ثـم غلبـه النـوم .. نام قبل أن يشرب .

فى الصباح ، أدرك أن صلاة الفجر قد فاتته .. وتذكر الآخرة .. ثم أخرج المسبحة من الـدولاب بعـدما نفض عنها التراب .. ثم تأمل نفسه فـى المـرآة قبـل أن يخـرج إلـى المصـلحة الحكوميـة .. مطمئنـاً علـى " مظهره الرمضانى " .

فى مدخل البيت : انهمك " عبد العزيز " البواب فى صلاة عميقة ولا يجرؤ أحـد مـن السـكان علـى ازعاجه أو توجيه العتاب إليه ، وقد ثبتت حقوقه فى الصلاة .. وزاد عليها حـق جديـد : هـو تـرك السـلم بغيـر كنس أو مسـح .. وفى الحـارة ، فـوانيس رمضـان تتـدلى مـن الـدكاكين والبيـوت .. و منضـدة خشـبية عليهـا ستة براميل للطرشى .. ولافتة من قماش تضـم تهنئـة لسـكان الحـارة الكـرام بحلـول الشـهر الفضـيل مـن

مرشح الحى الذى سقط فى الانتخابات ست مرات ... ويبدو أن الكناس صائم كبواب بيتنا .. الترام مزدحم كالعادة ولم يخل الجو من مناوشات بين الركاب الصائمين و الكمسارى الصائم أيضاً .

وعندما عاد إلى منزله : لم يكد يفتح الباب .. حتى استقبلته سحابة ضبابية من روائح الشواء و المسلوق والمحمر والحلوى .. " زوجتى فى غرفة القيادة فى المطبخ .. شمت زوجتى رائحتى رغم روائح التقلية فأسرعت ترحب بى .. نظرت فى وجهها الطيب ونقلت بصرى لمائدة الافطار .. تعتبرنى زوجتى أهم موظف فى الحكومة المصرية ، بل تعتبرنى الحكومة ذاتها .

نحن فى انتظار مدفع الافطار .. اكبر أبنائى ينظر فى ساعة الحائط ، ويكاد يدفع بنظراته عقارب الساعة ، تأملت مائدة الطعام ، على المائدة أهداف استراتيجية كاللحم والبطاطس وأهداف تكتيكية كالفول والسلطة ، وأهداف تكميلية كالكنافة والقطايف .. كمية الطعام تؤكد أن رمضان كريم ، لا تطهو بغير السمن البلدى فنحن قوم محافظون .. انطلق مدفع الافطار وبدأت العمليات العسكرية .. رحت أراقب أبنائى وهم يأكلون بحب .

قالت زوجتي : ربنا يخليك لينا **.** سررت من دعائها .. و مددت يدي إلي ثلاث بلحات جافة .. هذه البلحات الثلاث تذكرني بطعام رسول الله – صلى الله عليه و سلم – تعودت أن أفطر على البلح عملاً بالسنة .

وسط مائدتنا العامرة ، تبدو البلحات الثلاث غريبة و لا تكاد تظهر .. هذا ما بقي من الإسلام في بيتنا . انتهيت من الطعام .. وأحسست برغبة فى النوم .. وما كدت أدخل غرفتى حتى دخلت ورائى زوجتى وبيدها طبق الكنافة والقطايف .. عبثاً حاولت أن أبحث عن الكنافة والقطايف فى صدر الاسلام .. لقد دخلت الكنافة والقطايف تاريخ المسلمين حين خرج الحب من القلوب .. وصار الاسلام سبحة معطلة وفانوساً أثرياً !

ليالى رمضان فى دمشق

فى زمانها الجميل !

قال عنها رحالة الإسلام "ابن بطوطة" : "و دمشق هى التى تفضل جميع البلاد حُسناً وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها" .. وكتب "ابن جبير" عنها : "وأما دمشق فهى جنة المشرق ومطلع نورها المشرق .. وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلت موضع الحُسن بالمكان المكين .. إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت فى السماء فهى تساميها"..

وعبر دخان مبخرة شرقية ترحل إلى دمشق فى زمانها الجميل .. كيف كانت ؟ .. وكيف كان يستقبل أهلها أيام هذا الشهر الكريم ، ونستعرض العادات والتقاليد الشعبية المتوارثة التى ميزت حياة الدمشقيين خلال شهر رمضان ، ولدوا وعاشوا فى ظلالها .

دمشق فى نهاية القرن التاسع عشر كانت تجسد مشهداً رائعاً لمدينة ألف ليلة وليلة الغارقة فى واحة خضراء من الحدائق والبساتين الرائعة والمتنوعة ما بين لوز وتين و رُمان وأشجار المشمش والتفاح و كروم العنب .. ونهر بردى وهو عصب الحياة فى دمشق ، وعلى ضفتيه تتناثر المقاهى والمتنزهات الجميلة تظللها أجمات الأشجار ، ومجموعة من البحيرات الصغيرة المحاطة بأدغال كثيفة ، وبين دمشق وتلك البحيرات تمتد المنطقة الخصبة الشهيرة بـ"الغوطة" والتى تضم عدة قرى تحيطها أشجار الحور والجوز والطواحين وأكواخ الصيادين ومشاتل البرتقال والرُمان والمشمش والكرز والتوت والزيتون والليمون وغيرها ..

ومثل جميع المدن الإسلامية ، تتمحور دمشق حول مسجدها الجامع "الأموى" تحيط به الأحياء والدروب والأسواق وعدد من القصور الفاخرة .. وأسواق دمشق حظيت بإهتمام ودراسة الباحثين الأجانب ، وهى عبارة عن دروب وأزقة متداخلة فى جميع الإتجاهات تتصل ببعضها عبر مفارق وممرات مظللة وتكثر فيها الخانات والأروقة التى تظللها أشجار الحور والكافور ، وأسواق دمشق صاخبة بالحياة ، والدمشقيون ذوو طبع مرح وكانوا يحبون الحياة فى أجواء الفرح والمتعة والطرب والرقص خاصة فى المساء ، وأصبحوا يعيشون الآن على وقع الرصاص والدمار والمشاهد الدموية اليومية !

من أبرز أسواق دمشق "خان أسد باشا" عبارة عن بناء قديم وجميل من الأحجار الضخمة ، تحيط بقبته المركزية أروقة وممرات وسلالم حجرية تقود إلى حوانيت ومخازن تتكدس فيها شتى أنواع البضائع .. ثم سوق "الحميدية" الشهير ، المسقوف ويمتد طولياً لنحو كيلو مترين ويغص بمتاجر الملابس والمنسوجات ، ومحال الحلوى : الفستقية السمسمية ، الجوزية ، اللوزية ، ومنها ما يباع على عربات صغيرة .. أيضاً أسواق : البزورية ، الهال والسوق الطويل .. وأحياء : القيمرية ، الشاغور ، العمارة ، باب بريد ، الحيمرية وباب مصلى .. وبعض الخانات : النشا ، الدخان وقصر العظم .. وفى هذه المدينة التى كان يسكنها التاريخ .. انتشرت الحمامات بطراز الدمشقى الفريد وثراء نقوشها وألوانها .. ويشتهر سوق "البزورية" بتجارة المكسرات بصفة خاصة ، من فستق وبندق وجوز ولوز وما يصنع منها من حلوى ، بالإضافة إلى الفواكة المجففة والعصائر والبهارات وقمر الدين .. وسوق "الصاغة" وهو عبارة عن رواق

طويل مظلل تنتشر على جانبيه العقود وحوانيت صغيرة ، وفيها كنت تشاهد الدمشقيات من الطبقة الراقية محجبات بمعاطفهن البيضاء والنقاب الشفاف الأبيض أيضاً .. ولا يمكن أن نغفل "سوق الكتب" والمخطوطات خاصة نسخ القرآن الكريم .

ذكريات رمضانية

وشهر رمضان ، كما هو واحة للعبادة ولعمل الخير والتقرب إلى الله .. فهو أيضاً فرصة للفرح والتواصل الإجتماعى .. وفى دمشق ، كانت الإستعدادات لهذا الشهر الكريم تبدأ منذ منتصف شهر شعبان ، بتعليق الزينات والتفنن فيها على واجهات المنازل ومنارات المساجد وفى الشوارع والحارات ، وتتنافس العائلات الدمشقية الثرية فى تجديد فرش المساجد وتزويدها بالقناديل الجديدة والمسارج الفضية ، وكالعادة يبدأ تخزين المواد الغذائية والمكسرات .. وتتعد مظاهر الأحتفال بليلة الرؤية ، فى أضواء القناديل والفوانيس الملونة ، وألعاب الفروسية بالسيف والترس ، وتطلق المدافع ويتبادل الجميع التهانى "شهر مبارك إن شاء الله" ، ويحرص الدمشقيون على السهر جماعات ليلة الرؤية ، سواء فى الدور والبيوت أو فى المساجد أو فى المقاهى .. حتى موعد السحور .

المسحراتى

ولكل حى : مسحراتى خاص ، يضرب بدقاته التقليدية على "البازة" وأحياناً يدق أبواب المنازل ويترنم بأهازيج متوارثة بسيطة المعانى ويحث الناس على القيام وطلب المغفرة ، وينادى الرجال باسمائهم ويتفنن فى توزيع "التحايا" داعياً لهم ولآلهم بطول العمر وسعد الأيام وأن تتحقق لهم الأمنية بالحج إلى بيت الله .. ويتكون السحور عادة من أكلات خفيفة : جُبن وزيتون ولبنة وقمر الدين ، وشراب التمرهندى ، ومربى المشمش أو التفاح .. وعقب السحور يذهب معظمهم إلى المساجد لقراءة القرآن والتعبد بالنوافل من الصلاة والدعاء حتى آذان الفجر .. وللمهنة أصولها وأسرارها ، يتوارثها الخلف عن السلف وشروطها: الأمانة والعفة والتدين ومعرفة دروب الحى وأزقته وبيوته وعائلاته ، وفى كل ليلة يعود المسحراتى مملوء الوفاض بالحلوى والمكسرات والنقود ، وفى نهاية الشهر الفضيل له الكعك والعيدية !

فنون ست البيت

وتبدع "ست البيت" الدمشقية فى إعداد مائدة الإفطار .. بينما الأطفال فى الساحات والحارات ينتظرون إنطلاق دوى المدافع ، لتنتقل الفرحة إلى أجواء البيوت ، ست البيت أمضت نهارها فى تحضير المشروبات وأشهى الأكلات والحلويات التى تتفنن فى صنعها ، وتصف منقوع قمر الدين أو عصائر الفواكة أو شراب العرقسوس والتمرهندى وشراب الورد على حواف "نافورة" البيت ، وتزدان الموائد بأنواع الشوربة والسلطات و "الفتوش – سلطة فاتحة للشهية تتكون من كسرات من الخبز المحمص مضاف إليها الخيار والبندورة والبقدونس والخس والنعناع والخل و زيت الزيتون والتوابل" ثم الأطعمة المختلفة من المحاشى بالأرز واللحم وأطباق الخضار المطبوخ ، والكبيبة الشامية ..

ومن التقاليد التى أشتهر بها الدمشقيون والسوريون عامة ما يعرف بـ"السكبة" أى تبادل الأطعمة المحببة بين الأهل والجيران .. وأكثرهم يفطر على البلح و رشفات من منقوع القمر الدين ثم يصلى المغرب فى البيت أو المسجد .. وعقب تناول الإفطار ، توضع أباريق الشاى على "السمارو" التى كانت منتشرة ، وإلى الحين ، يتناولون الحلوى بأنواعها وعلى رأسها : الشمس والتفاح والكرز ..

ثم يخرج الرجال والشباب إلى المساجد لصلاة العشاء والتراويح ، وقد تتوجه بعض السيدات لزيارة الأهل والجيران – زيارات تبادلية – أو لشراء بعض حاجات البيت ، وعقب صلاة التراويح ، يتوجه الرجال لقضاء سهرة رمضانية لدى بعض الأصدقاء ، أو يجتمعون بأحد المقاهى والإستماع لـ"الحكواتى" .. فى ذلك الزمان ، قبل سيطرة التلفاز والفضائيات على حياة الناس !.. والبعض من الشباب يقضون سهراتهم الجماعية فى إحدى الساحات برقص "الدبكة" على أنغام الأغانى الشعبية المتوارثة ، وبعض الألعاب المسلية .

المشمش الحموى والفستق الحلبى

"الغوطة" كانت من أهم معالم دمشق ، كالجامع الأموى ، وهى بستانها وسهل غذائها وسلة فواكها ، وكانت مساحتها فى ذلك العصر نحو ٣٠ ألف هكتار ، وتنتشر مزارع الفواكة فى الغوطة الشرقية ، وأهم منتجاتها تمر المشمش ، المتوطن فى غوطة دمشق منذ قديم الزمان ، ويوجد منه نحو عشرين نوعاً أشهرها : الكلابى والبلدى والعجمى والحموى والتدمرى والأمريكانى و الفرنساوى .. وأفضل ما يمكن تحويله إلى قمر الدين هو : الكلابى والحموى (نسبة إلى حماة ثانى أكبر المدن السورية بعد دمشق ، وهى بلدة النواعير) ويصنع منهما أيضاً المربى ، أما البلدى وسائر الأنواع فهى للأكل والنقوع ..

ويصنع نحو ١٠ آلاف طن من قمرالدين ، يصدر معظمه إلى دول الخليج العربى و مصر ، والبعض منه إلى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، ويصدر نوى المشمش ، الذى يشبه حبة اللوز إلى السويد وبعض دول أوروبا حيث يصنع منه السكاكر والمعجنات بعد معالجته من المرارة .. وتنتشر معاصر النوى ، حيث يستخدم زيت النوى – بعد معالجة المرارة – فى الطعام ، وكنت ترى تلال قشور نوى المشمش المعدة للتصدير إلى بعض البلدان ، حيث يستخدم بعد طحنه فى تبطين بعض الآبار النفطية ، كما يستخدم أيضاً بديلاً للفحم حيث يحتفظ بالحرارة بشكل جيد ، كما يستخدم أيضاً فى نوع من الخشب المضغوط ، ويقول الدمشقيون أن المشمش ثمرة مباركة ، متعددة الفوائد ، غنية بالحديد والفيتامينات ويقى الجسم من الإنهاك والشعور بالتعب خلال الصيام ، والعرقسوس هو أحد المشروبات المفضلة بعد شراب قمرالدين ، ومثلما نشاهد فى مصر ، نجد باعته يجوبون الشوارع والحارات بطاساتهم النحاسية يوقعون بها أنغاماً مميزة "عطشان تعالى إشرب وخد منى كباية" و "العرقسوس شفا النفوس" !

أما الفستق الحلبى ، الذى جابت شهرته الآفاق وتعدد أنواعه منها : الماوردى والعاشورى والباتورى والعليمى وناب الجمل وفستق بوظة والسودانى ، وموسم قطافه فى الصيف ، وهو عنصر أساسى فى صنع الحلويات السورية ، خاصة الفستقية والمعمول والكنافة والقطائف والبرازق وكرابيج حلب و "حلى سنوك" و "كل و اشكر" !

الحكواتى

كان لليالى رمضان بهجتها ورونقها ، وبعض العادات والتقاليد تغيرت بتغير الأزمان والأجيال .. كان الدمشقيون يحرصون على الإستماع إلى "الحكواتى" مثلما كان القاهريون يستمعون إلى "شاعر الربابة" فى المقاهى أيضاً ، ينشد السير الشعبية الشهيرة فى جو من البهجة الغامرة حتى السحور .. كان الحكواتى من أبرز مظاهر ليالى رمضان ، تماماً مثل قمر الدين والكنافة والقطايف وفوانيس الأطفال وفرحتهم الملونة .. حيث كان يتصدر المقاهى ، على مقعد من الخشب المخروط "الأرابيسك" يزدان بطنفسة نُقشت عليها رسومات ملونة من الخيال الشعبى .. أو فى إحدى الأحياء القديمة ، مرتدياً الزى المميز لأبناء الشام – فى ذلك العصر – السروال الأسود الواسع وصديرية ومعطفاً وشماغ .. وكان يروى شفاهة أو يقرأ من كتاب : بعض السير الشعبية الشهيرة مثل أبو زيد الهلالى و الظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وعنترة بن شداد وحكايات من ألف ليلة وليلة .. بينما تنتشر قرقرة النارجيلات وطلبات القهوة العربية والتركية !

وفى "ليلة القدر" يحرص الدمشقيون على أحياء هذه الليلة المباركة ، والعشر الأواخر من رمضان ، ومنهم من يعتكف بالمساجد ، والجميع عقب صلاة التراويح ما بين مصل أو قارىء للقرآن والأوراد والأذكار والدعوات ، كما يحرص البعض على شهود إحتفالات الطرق الصوفية فى الزوايا والتكايا والخانقاوات .. بينما ينشغل السيدات والبنات بإعداد الكعك والمعمول وأنواع من الحلويات ، وتجهيز الملابس الجديدة ، إستعداداً لفرحة العيد ، مع إعداد الرياحين وباقات الزهور وزجاجات ماء الورد لزيارة مقابر الأحبة ..

هكذا كانت مظاهر رمضان فى دمشق ، فى الزمن الجميل .. تُرى هل سيعود "الحكواتى" فى ليالى رمضان ليحكى تغريبة الشعب السورى فى سنوات سندان إستبداد النظام ومطرقة الجماعات الإرهابية !

رمضان .. فى القدس الشريف

القدس الشريف .. مدينة السلام والتاريخ والإستمرارية الفريدة والسحر الخاص .. هويتها العربية منقوشة على أحجار أسوارها وبواباتها ومساجدها وكنائسها ومدارسها وأديرتها وأسبلتها وشوارعها وخططها ، على كل منها صفحة من صفحات التاريخ ، وفى كل عصر من العصور تجد مكاناً للقدس فى قلب كل عربى .. ففيها تجلت حكمة الأنبياء ، وشهدت جبالها و وهادها دعوة المسيح عليه السلام ، وإليها كان "الإسراء" بخاتم الأنبياء – معجزة الإسلام الكبرى – ومنها كان معراجه إلى السماء ، وهى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ..

وتمثل المدينة المقدسة : معيار قوة العرب والمسلمين ، فإذا ما أعدنا قراءة التاريخ سنجدها آمنة زاهية فى ظل قوة العرب و إزدهارهم ، ونجدها "أسيرة عاجزة" فى ظل الضعف والإنهيار الحضارى ، وهى قلب قضية العرب والإسلام بكل أبعاد المواجهة الحضارية والثقافية والسياسية مع عدونا التاريخى .

ولرمضان فى رحاب المسجد الأقصى ومدينة القدس : عطر خاص ، ولايامه ولياليه حكايات ووقائع حفظها التاريخ الرواة .

ليلة الرؤية

جرت عادة أهل مدينة القدس أن يرقبوا هلال شهر رمضان بالعين المجردة ، كما جرت العادة أن يجتمع مفتى المدينة و أعيانها و قضاتها و مخاتير القرى وأئمة المساجد والخطباء والوعاظ فى ساحة المسجد الأقصى انتظاراً للتحقق من ثبوت رؤية الهلال .. ويقول الكاتب الفلسطينى د . محمد عيسى صالحيه : و كنت ترى جماعات من الرجال والفتيان قد إرتقوا جبلاً أو تله أو منارة .. حتى إذا رأى أحدهم الهلال ، وتوثق الأخرون ، انطلق " فارس النظر " يسابق الريح ليزف النبأ العظيم والبشرى بثبوت الرؤية .. وهناك عند هيئة المجتمعين ، يدلى بشهادته .. فيصف شكل الهلال ولونه ، ظهوره على قرنه أو على خاصرته .. مثل " فص " البرتقال أو " شقحة " البطيخ .. ويسجل كل هذا فى محضر رسمى ثم يصدر الاعلان بثبوت الرؤية .. فتضاء مآذن و قباب الحرم القدسى الشريف .. وتنطلق أول طلقة من مدفع " باب الساهرة " أحد أبواب القدس العتيقة ، وهو مدفع تركى قديم إرتبطت شهرته بشهر رمضان وكان القائم على خدمته " طوبجى " عجوز يحشوه بالخرق والبارود ويطلقه طبقاً لأوقات محددة مسجلة لديه .. وكأنها حياة جديدة دبت فى روح المدينة ويركض الأطفال فرحين بالنبأ السعيد ، ويتبادل الجميع التهنئة " شهر مبارك إن شاء الله " .

إستعداد .. وتنافس !

كعادة المسلمون فى كافة أرجاء العالم الاسلامى ، كان المقدسيون يحرصون على الاستعداد لاستقبال الشهر الكريم من ليلة النصف من شهر شعبان .. فتزدحم أسواق المدينة بالبضائع والناس ، كل يسعى لتجهيز بيته بما يحتاجه من المسلى وأرز والسكر والدقيق والبهارات ، والمكسرات ومنقوع قمر الدين والتمر هندى والعرقسوس والحلاوة والشاى والبن .. وكانت تصرف رواتب إضافيه وكميات من السكر والياميش لآرباب الوظائف وطلبة العلم والمجاورين والأيتام والقراء بالتكايا والزوايا ..

وكانـت عـائلات القـدس الشــهيرة تتنـافس فـى تجديـد فـرش المسـجد الأقصـى ومســجد قبـة الصـخرة وسـائــر مسـاجد المدينـة ، وتزويـدها بالقناديـل الجديـدة .. كـذلك كـان المسـئولين بـإدارة الأوقـاف الاسلامية وبلديـــــة القدس ينشطون للتفتيش على القناديل وفوانيس الإضاءة وإصلاحها وتخصيص ما يلزمها مـــن زيت الوقود ، ويفرش السجاد والبسط والحصر الجديدة ، وهـــى تقاليد متأصلة ، أشـار اليهـا الرحالة الفارسى الشهير " ناصر خسرو علوى " والذى زار القدس فى الخامس مـــن رمضان سـنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م ، وقد أبدع فى وصف المسجد الأقصى ، فقال : كانت مساجد القدس تزدان بالفرش الثمينـة من أفخر الأنواع ، والقناديل والمسارج الفضية تزيد المساجد نوراً وتلقى عليها مزيداً من الهيبـة والجـلال " ..

وقبيل بدء الشهر الكريم بعدة أيام ، كان الأقوياء مـــن الشباب يجرون مدفع الإفطار ويرقون بـه تلة بالقرب من " باب الساهرة " يرافقة أعيان المدينة وشيوخها ، تحيط بهـم فرحة الطفولة ، ومن خلـف الرواشن ، ذوات الخدور يرقبن المشهد ، بينما يردد الجمع الأهازيج : أهلا رمضان .. سـهلا رمضان

بكره بتـهــل .. والخــير بيطل

والمدفع طالع .. عالتلــة طالـع

وتنتظم فى شوارع المدينـة الأفران المؤقتـه لصنع القطـايف ، وترتفــــع الـدكك لبيـع شـراب الخروب ، وتتبارى محال الحلوى فى الاعداد لصنع الحلويات الشامية الشهيرة : كـــــل و اشـكر ، البـرازق ، المعمـول ، الكنافـه ، كـرابيج حلـب ، حلــــى سـنونك ، المطبـق ، المـدلوق ، البرمـــا ، أصـابع زينـب ، المشبك ، الفستقية ، الجوزيه وغيرها...

المسحراتى

تعود المقدسيون ـ فى سالف الزمان ـ على المرور المنتظم للمسحراتى فى حارات القدس القديمة ، ضارباً طبلته ومردداً كلماته البسيطة المعتادة فى نغم متميز مع إيقاع الطبلة ، يشق سكون الليل :

يا نايم وحد الدايم .. يا نايمين وحدوا الله

يـــا عبــــاد الله .. وحدوا الـــلــه

كان المسحراتى يتفنن فى الأداء واستخلاص المعانى لحث الناس على الصيام والقيام وطلب المغفره ، كما يتفنن فى انشاد قصص المعجزات وتوزيع " التحايا " .. وقد يطرق الأبواب : " إصح يا أبو العبد " وفى كل ليلة يعود المسحراتى مملوء الوفاض بالحلوى والأطعمه والنقود وفى نهاية الشهر له الأجرة والعيدية . وللمهنه أصولها وأسرارها ، توارثها الخلف عن السلف حتى أصبح نسباً ، الأمانه والعفة والتدين ومعرفة دروب البلدة وأزقتها وبيوتها وعائلاتها .. وأشهر من تولى مهمة التسحير بالمدينة ، فى العقدين الثالث والرابع من القرن الماضى " الشيخ أدهم " والذى كان له أيضا دور هام فى نقل الرسائل بين القيادات الوطنية الفلسطينية خلال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ .

فى رحاب الأقصى

ما من رحالة أو زائر للحرم القدسى الشريف فى شهر رمضان .. إلا و كان ملء قلبة مشهد من الروعة والجلال .. الساحة الفسيحة للحرم والأسوار والمشاهد الأثرية التى تحيط بقبة الصخرة .. وروعة التكبيرات تنساب من داخل الأقصى وكأنما هى آتية من عالم الغيب ، والقناديل الخافقة فى أرجائة كأنما ترعد من جلال التكبير .. " والظلال تفضل الضوء فتكتب سطراً من الجمال رائعاً أو تخط آيه من آيات السجده فى هذا الحرم العظيم يقرؤها كل ذى قلب فتسجد جبهته أو يسجد قلبه " !

ويحرص المقدسيون على الصلاة بالمسجد الأقصى وساحته خلال أيام رمضان ، وفيه كانت تعقد حلقات دينيه فى تفسير القرآن والفقه وعلم الحديث وسيرة النبى .. يتولى التدريس فيها نخبة من العلماء الأجلاء المشاهير من فلسطين والدول العربية والاسلاميه ، ولكل منهم يوم محدد ، وكانت

هذة الحلقات الدينية تعقد فيما بين صلاتى العصر والمغرب .. كما كانت تناقش فيها أيضاً الأمور الدنيوية ، فالأوضاع السياسية لـــــم تكن مستقرة ، مما جعل هذة الحلقات متنفساً لتزويد المواطنين بشحنات وطنية ضد الانتداب البريطانــــى وارهاب العصابات الصهيونية ، من هذة الحلقات خرج الشيخ الشهيد " عز الدين القسام " وغيره مـــن أبطال المقاومة الاسلامية الفلسطينيه .

وكانت " المملكة المصرية " حريصه على إرسال نجوم " دولة التلاوة " الـــــالمسجد الأقصى فى رمضان .. وعلـــــى رأسهم الشيخ مصطفى اسماعيل والشيخ محمد صديق المنشاوى والشيخ عبـــد الباسط عبدالصمد والشيخ أبو العينين شعيشع .. وكـــــم ترددت أصواتهم الملائكية .. الخالدة .. بين جنبات وأروقـــة الأقصى .

كما كانت صلاة التراويح بساحة الأقصى مشهداً إيمانياً رائعاً ، يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل .. والبعض كان يواصل تعبده حتى صلاة الفجر .. وكثير ما كان يأتى إلى القدس مسلمون مـــــن مختلف بقاع العالم الاسلامى للاعتكاف فى العشر الأواخر من رمضان بداخل المسجد الأقصى ..

أما يوم الجمعه من أيام رمضان ، فكان عيداً عظيماً فـــــى هذا الحرم المبارك .. والجموع تزحف مستبشرة شطر المسجد الأقصى ، يهتدى بسيرها من لا يهتدى طريقه .. تمر بهذة العقود الحانية علـــى طريق التاريخ " الطريق المدرج " تحمل الأبنية العالية كأنها عقود السنين تنوء بما تحمل من أحداث ومواقف ، ومـــا أدراك ما يوم " الجمعه اليتيمه " فـــــى المسجد الأقصى .. عيد إسلامى يشارك فيه الجميع ، الرجال والنساء والاطفال ، ويحرص على شهودها ضيوف الرحمن من أرجاء فلسطين والعالم الاسلامى .. بينما فرشـت ساحة الحرم بالسجاد والحصر ، يرضـــى بها من أشفق من الزحام داخل المسجد .. والجمع قد تبوأ مكانه فـــى هذا المحشر وقد أحكمت الصفوف .. جماعات من النساء اصطفت فى جانب من ساحة القصى بيـــن اشجار باسقات وعمد جميلة تعلو بئراً من آبار الحرم .. وجماعه أخرى مـــن النساء أيضاً انتظمت عند العقود المشرفه على الدرج المؤدى من باب القبة القبلى الـــى المسجد الكبير .. وعقب إنقضاء الصلاة ، تنتشر الجموع لا يدركها البصر .. سيل يتدفق من أبواب وساحة المسجد .. وأسارير الوجوه خاشعه فرحه مستبشرة بوعد الله .

كان خطيب المسجد الأقصى يعرف دائماً بحلة خضراء وعمامه صلاحية ، وهو زى يتوارثه خطباء المسجد الأقصى منذ عصر الناصر صلاح الدين ، وهم من بنى كنانه ، توارثوا هذا المنصب وانه لشرف عظيم .. كانت خطابة الجوامع الكبيرة منصباً رفيعاً فى تاريخ المسلمين ، وكثير من العلماء يلقبون بالخطيب ، وهذه المناصب يتوارثها الابناء عن الآباء وتحرص الأسر على شرفها ، وينصرف المقدسيون الى الاكثار من الخيرات والصدقات وكافة مظاهر التوسعه على الفقراء فى هذا الشهر الكريم .. ومن تقاليدهم أيضاً ما يسمى بـ " السكبه " تبادل إهداء الأطعمه المحببه بين الأهل والجيران .

وكانت عائلات القدس الشهيرة تقيم ولائم الإفطار للمفتى والعلماء وأرباب الوظائف وشيوخ الطرق الصوفيه ونقيب الاشراف ولعامة الناس .. كذلك كانت تعقد موائد إفطار جماعيه ، حيث يحضر كل رجل أطيب ما عنده ليفطر جماعه مع رجال الحى ، سواء فى بيت أحدهم ، أو فى إحدى المضافات ..

الحكواتى

كان كثير من رجال القدس وشبابها يفضلون قضاء سهراتهم الرمضانية فى المقاهى أو " المضافات" يستمعون الى شاعر الربابة أو " الحكواتى " .. الذى كان يتصدر المقهى ، مرتدياً زياً مميزاً : السروال الأبيض الواسع وصديرية حمراء ومعطفاً وشماغ (غترة) وكان يخصص لـه مقعداً عالياً يزدان برسومات من الخيال الشعبى ، وينشد فى جو من البهجه والانسجام بعض من السير الشعبية مثل تغريبة بنى هلال وسيرة الظاهر بيبرس والزير سالم وعنترة بن شداد والأميرة ذات الهمه .. وحكايات من ألف ليلة وليلة .

ومن أشهر المقاهى بمدينة القدس والتى كانت تقدم هذا اللون من السهرات الشعبيه ، مقاهى ، البساطى ، زعتره ، ومقهى صيام بمدخل باب العامود .. وكان أشهر الحكواتية الشيخ " صالح خميس " .. كما كان يعقد فى ليالى رمضان خاصة ما يعرف بـ " السامر " وهى احتفالات شعبيه ساهرة ، كانت تعرف أيضاً بـ " السحجه " و " الدحية " .. وتؤدى فيها أغانى وأشعار " المواليا " بشكل

جماعى وبالتناوب بين فريقين متقابلين مصحوبـــــاً بالتصفيق و بأشـكال بسـيطة مـن الـرقص الشـعبى : الدبكة ، شمالية ، شعراوية ، كرادية ، طيارة ، ابراهيميه .. وما بين العتابـا والميجنـا .. يعـزف علـى الشـبابة والمجوز .. ومن الأغلنى الشهيرة التى تحتضن آمال الشعب وحنيتـه : " الدلعونـه " .. و " بـارودتى حبـوبتى .. ما احلى طلق زنادها " و " يارب تكبر مهرتى .. تكبر ونا خيالها " !

خواطر رمضانية .. لقنصل مصر فى القدس عام ١٩٣٥

كان " أحمد رمزى بك " قنصلاً عاماً لمصر فى تركيا ، كما كان قنصـلا عامـا فـى سـوريا ولبنـان ، ثم صدر القرار الملكـى بتعيينه قنصلا عاما لمصر فـــــى القدس وعموم فلسطين ، بالاضافة الـى شـهرته كمؤرخ ومحقق للخطط .. وقد دون ذكرياته عـــن أول زيارة له للمسجد الأقصـى وكانـت فـى شـهر رمضـان ، ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٥ .. كتب أحمد رمزى بك :

" وصلت الى مدينة القدس فى نهاية سنة ١٩٣٥ لأتولى عملاً جديـداً ولألقـى وجوهـاً جديـدة ، وكـان أول ما قمت به هو توجهى لزيارة المسـجد الأقصـى وكـان ذلـك فـى شـهر رمضـان .. دخلتـه وقـد غمرتنـى نفحه مـن نفحات الله ، جعلتنى أشعر فى قرارة نفسـى بحوادث التاريخ الجلى ، وكـأن كـل ركـن مـن أركـان هذا المسجد يشير إلـــى ، وكان كل حجر من أحجار قبته يحادثنى ، ثلاثة عشرة مائه مـن السـنين ، تركـة ضخمه من الجهاد والمجد ،هـــل يدرك أهلها مـا هـى ؟! .. هـل تكـون للأمـم الاسـلاميه التـــــى نعـيش وسطها ونحيا لها عودة ؟ وهل تقوى أذرعتها ونفوسها الواهية على حمل الأمانـة ؟ .. لـم تعـد تفكـر فـــى شـىء سوى ملاذها وتكالبها على المـادة ومـا تسـوقه اليـه غرائزهـا ، حينمـا فقـدت كــــل عناصـر القـوة والانفة وانحطت الــــى درجة الجماد فلم تعد تهمها هـذة المسـاجد والمـدارس .. كنـت أطـوف بالمسـجد وأنا أتأمل كـــل ذلك وأقول متـــى تتحرك أمم العروبة وتنهض من كبوتهـا وتسـتيقظ مـن نومهـا العميـق .. ان كل ما أراه أمامـــى يدعو الى الأسـى والألم ، وهم بعيدون كل البعد عـن حيويـة المبـادىء التـى قامـت عليها الرسالة المحمدية الكبرى .

سرت فى انحاء الحرم وهو متسع الأرجاء وتخيلته فى نفسى بفيض مصفوف المصلين ، كان يبدو لى صحنه ووجهاته وجوانبه يوم الفتح الاكبر ، يوم دخله سلطاننا صلاح الدين بجند مصر فأقام أول صلاة للجمعه فيه ، وكيف تبارى العلماء والفضلاء فجهز كل منهم خطبة بليغة طمعاً فى أن يكون خطيب ذلك اليوم ! .. كنت أفكر كيف أذن المؤذنون على منائر المسجد الأقصى وأسواره فارتجت المدينة بأصوات التكبير والتهليل ، ومر أمامى كيف تقدم الملك السلطان المتواضع بقبة الصخرة فرسم للقاضى محيى الدين محمد بن زكى الدين علـــى القرشى أن يخطب ، وكيف ألبسه العماد الكاتب جبة سوداء من تشاريف الخلافه العباسية فلبسها وصعـد المنبر واستفتح بسورة الفاتحه ثم شرع فى الخطبه فبدأها " الحمد لله معز الاسلام بنصره " وصلى علـــى نبيه الذى أسرى به ليلاً من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى وعرج به الى السموات العلى الـــى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى .. وذكر أبا بكر وعمر و عثمان وعلى و صلى على آله وأصحابه والتابعيـن ، وقال : " أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغايه القصوى لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضاله وردها الى مقرها من الاسلام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ... لقد جددتم للاسلام الخيبريـــه والمعارك الخالديه .. "

كان كل هذا يمر أمام عينى ورأسى مطرق وأحبس الدمع فى عينى حتى انتهيت فدخلت الى المحراب لأقرأ أثر السلطان المجاهد بحروف ذهبية : " أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذى هو على ال مؤسس عبدالله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة" فأديت تحية المسجد فى هذا المحراب الخالد ترحمت على بانيه وعلى أرواح الشهداء وشعرت براحه تملأ نفسى حينما خرجت ماراً بمدرسة قايتباى سلطان مصر ، وقد غمر الايمان نفسى وتملكتنى نشوة لم أتمالك لسانى عن التعبير عنها عندما إلتقيت سماحة مفتى فلسطين الأكبر ...

اننا نعيش ايام مملوءة بالألام والاحزان ، ولكن المستقبل لله وحده ، وهو الذى ذكرنا فى محكم أياته ، وأنزل سكينته على قلوبنا وخط فى سجل القدر أن هذه الارض لنا ، وأن الايام التى وعدنا بها آتيه لا ريب فيها"

مضى على هذه الخواطر بكـل مـا تحملـه مـن مـرارة ــ اكثـر مـن سـبعين عامـاً ــ وقامـت دولـة العصـابات الصهيونى واستولت على كل فلسطين مثلما استولت علـى كثيـر مـن مكونـات الحضـارة العربيـة وابـداعات تراثها ، وأصبـــح حلم " اسرائيل الكبرى " هو الهدف الاستراتيجى الذى يخطـط لـه زعمـاء الارهـاب فـى تـل أبيب بمقتضى حقوق تاريخيه وهمية و ارث سماوى مزعـوم .. وأصبحنا نشـارك العالـــم فــــــى مـؤامرة الصمت على تهويد القدس واعلانها " عاصـمه موحـدة أبديـــــــة " لدولـــة الارهـاب ! .. ومازلنـا نسـتجدى السـلام .. ونطرق أبواب " البيت الأسـود" بينما أبواب القدس وساحة الأقصـى مخضـبة بالـدماء .. هـل لنـا أن نأمل فى يوم تعود فيه فلسطين الغربية الـى شـعبها .. وان يعـود " الحكـواتى " فـى ليـالى رمضـان ليـروى تغريبة بنى فلسطين !

وقائع الزمان .. فى شهر رمضان

عرفه عبده على

الاحتفاء بشهر رمضان له دلالته فى عقيدة المسلم ، لما لهذا الشهر الكريم من منزلة عظمى منذ كلمات الوحى الأولى ،كما أنه شهر الوقائع والآحداث الهامة التى هزت العالم الاسلامى ، والتى برزت بشكل خاص فى عصور التقدم و الازدهار ، كان شهر رمضان شاهداً عليها ، فلم يختص فقط بالجانب الروحى من العبادة - الصوم - وإنما تميز أيضاً بالعزائم الصادقة التى ارتقى بها الصوم إلى أوج الارادة وذروة الإيمان فى صور مشرقة من الفتوحات والجهاد - الحقيقى - لإعلاء كلمة الله وراية الحق .. وكما كتب المستشرق الألمانى فون شليجل :" بروح الدين والخلق العربى البدوى الذى حفظ نقاؤه فى ظل الحرية العريقة ":

* تنزلت الكتب السماوية على أنبياء الله عليهم السلام فى رمضان ، فقد ورد فى تفسير القرآن الكريم لابن كثير ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :" أنزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرأن لأربع وعشرين من رمضان " وقال تبارك وتعالى :" شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان " سورة البقرة ، آية ١٨٥ ، وسُميت الليلة التى بدأ فيها نزول القرآن بليلة القدر إجلالاً لمكانتها وقدرها :" إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر " وكان بداية نزول الوحى إيذانا ببداية تاريخ جديد للانسانية . وكان أول ما نزل به جبريل عليه السلام على النبى الكريم وهو يتحنث فى غار حراء :" اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم " سورة العلق ، الآيات ١-٥

* فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة / ٦٢٢ م كانت سرية حمزة بن عبد المطلب ، وهى أول سرية عقد لواؤها فى الاسلام ، وكانت بعد سبعة أشهر من هجرة النبى إلى المدينة المنورة واستهدفت عير لقريش ، اشترك فيها ثلاثون رجلاً من المهاجرين ولم يحدث فيها قتال .

* فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان ، كانت غزوة بدر الكبرى ، والتى جسدت أوثق علاقة بين الصوم والجهاد ، كما كانت مشهداً رمضانياً امتحنت فيها عزيمة عباد الله الصائمين وأخذ فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأسباب النصر وإطمأن إلى إيمان أصحابه بنصر الله واتخذ لجيشه بمشورة أصحابه الموقف الملائم و صف الصفوف بنفسه ، وفيها تعززت مكانة المسلمين الذين سطروا صفحة باهرة فى سبيل الدعوة وخرجوا منها بانتصار تاريخى عظيم ودعم حربى واقتصادى وحرب أعلنت على الأمية ، حيث قام الأسرى العاجزين عن الفداء بتعليم جمع من المسلمين القراءة والكتابة ، وكان منهم زيد بن ثابت .

* فى العاشر من رمضان من السنة الثامنة الهجرية / ٦٢٩ م فتح النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة المكرمة ، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية . كان المسلمون عشرة آلاف من الصائمين ، دخلوا مكة ، وتوجه الرسول إلى الكعبة المشرفة فطاف بها سبعاً . وكان لهذا الفتح العظيم أثره وفضله فى توحيد العرب وانضوائهم تحت راية الاسلام وانتشاره فى جزيرة العرب ثم فى أرجاء العالم :" انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدك من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ".

* فى رمضان من السنة التاسعة لهجرة ، كانت غزوة " تبوك" آخر الغزوات التى تمت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

* فى رمضان سنة ٤٠ هـ استشهد الامام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، بطعنة من خنجر مسموم بيد عبد الرحمن بن مجلم أحد الخوارج ، وهو يستعد للصلاة فى مسجد الكوفة ، ومناقب الامام علي اكثر من أن تحصى ، وقد أخلف تراثاً هائلاً فى الآداب والفقه والقضاء وعلم الأخلاق ، وباستشهاده انتهى عصر الخلفاء الراشدين ، لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الاسلام .

* فى شهر رمضان سنة ٥٣هـ كان فتح العرب لجزيرة رودس .

* فى رمضان سنة ٦٥هـ توفى مروان بن الحكم واعتلى الخلافة ابنه عبد الملك بن مروان والذى يعد المؤسس الثانى للدولة الأموية ، استطاع أن يقضى على الفتن ونشر السلام والأمن وتابع الفتوحات شرقاً وغرباً ، واشتهر بالفصاحة ورجاحة العقل والبراعة السياسية ، وقام بتعريب الدواوين فى الشام والعراق ، وتعريب النقد وسك الدينار الذهبى ، وحقق الاستقلال الادارى والمالى للدولة الاسلامية .

* فى رمضان سنة ٩١ هـ كانت بداية فتح المسلمين للاندلس ، عندما أرسل موسى بن نصير قوة من الفرسان بقيادة " طريف " فعبروا البحر المتوسط وغزوا ثغور الشاطئ الجنوبى للاندلس .
* فى رمضان سنة ٩٢هـ /٧١١ م قاد طارق بن زياد اثنى عشر مقاتلاً ، عبر بهم المضيق ، ونزلوا بصخرة تجاه الجزيرة الخضراء ، سميت فيما بعد " جبل طارق " وقبل أن يلتقى الجمعان خطب طارق خطبته التاريخية الشهيرة ، وانتصر المسلمون على جيش" رودريك " الذى سقط فى هذه المعركة ، وقد فتح هذا النصر أبواب الاندلس كلها أمام العرب ليؤسسوا دولة حضارية مزدهرة من أعظم الدول دامت لنحو ثمانية قرون !

* فى رمضان سنة ١١٤هـ / ٧٣٢ م وقعت إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ والتى عرفت بـ " بلاط الشهداء " فى خلال عشرين عاما من فتح اسبانيا - الاندلس ، استطاع المسلمون اجتياح الولايات الجنوبية لفرنسا وتقدموا إلى قلبها .. ومازالت وقائع " بلاط الشهداء " وآثارها موضع الدراسة والتقدير فى الغرب حتى شاع القول :" لو لم يرد العرب والاسلام فى سهول تور على ضفاف اللوار ، لتغير وجه التاريخ ولكان الاسلام اليوم يسود أوروبا !"

* فى رمضان عام١٢٩هـ / ٧٤٧م ظهرت دعوة بنى العباس فى خراسان بزعامة أبى مسلم الخراسانى

* وفى رمضان عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م استولى أبو العباس عبدالله أول الخلفاء العباسيين على دمشق لتسقط الدولة الأموية ويعلن قيام الدولة العباسية .

* فى رمضان سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٨م كانت المعركة التاريخية الشهيرة " يوم عمورية " بين المسلمين والبيزنطيين ، عندما هاجم الامبراطور البيزنطى تيوفيل مدينة " زبطره " مسقط رأس والدة الخليفة المعتصم ، فدمرها وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين ، فانطلق المعتصم بجيشه إلى مدينة " عمورية –اموديوم" مسقط رأس الامبراطور نفسه ، وتم الفتح العظيم وانتقم المعتصم لما فعله البيزنطيون ثم عاد إلى سامراء ، وخلد الشاعر أبو تمام هذا اليوم فى قصيدته الشهيرة :

السيف أصدق انباء من الكتب .. فى حده الحد بين الجد واللعب

* فى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م دخل الآمير " أحمد بن طولون " مؤسس الدولة الطولونية مصر معلناً إستقلالها عن الدولة العباسية ، وشرع فى بناء جامعه الأشهر والأكبر والذى افتتح للصلاة فى رمضان عام ٢٦٥هـ /٨٧٨ م

* فى يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م افتتح جوهر الصقلى الجامع الأزهر الشريف ، أقدم جامعة إسلامية .

* فى السابع من رمضان سنة ٣٦٢هـ /٩٧٣ م كان دخول المعز لدين الله الفاطمى القاهرة والتى اتخذها دار خلافة ، وأقام بالقصر الكبير الذى أعده له جوهر الصقلى ، وهذا القصر كان مضرب الأمثال فى الفخامة وبزخ العمارة حتى عد من " عجائب الأبنية "!

* فى رمضان سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م دخل السلطان السلجوقى " طغرلبك " بغداد بطلب من الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وكان دخول طغرلبك ايذاناً بانتهاء دولة بنى بوية وأن يحل السلاجقة محلهم فى الوصاية على الخلفاء العباسيين الذين تحولوا إلى مجرد رموز دينية ! .. وتوفى طغرلبك أيضاً فى رمضان سنة ٤٥٥هـ /١٠٦٣م .

* فى رمضان سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م قتل الوزير السلجوقى الأشهر " نظام الملك " الذى كان وزيراً للسلطان ألب أرسلان ثم ابنه ملكشاه ، واشتهر نظام الملك بمجالس العلم ودهائه السياسى وبراعته الادارية فكان الحاكم الفعلى للدولة ، وأسس المدارس النظامية فى عدد من المدن الاسلامية ، وألف كتاب " سياسة تامة" وذهب ضحية المؤامرات السياسية !

* فى عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م واصل السلطان الايوبى صلاح الدين قتال الفرنجة فى سوريا واستخلص منهم البلاد التى استولوا عليها من قبل .. وعندما أهل شهر رمضان من تلك السنة ، أشار عليه بلاطه بالراحة فى شهر الصوم ، فقال :" إن العمر قصير والأجل غير مأمون " وسار بجيشه مواصلاً الجهاد حتى حاصر قلعة "صفد " واستعادها فى يوم مجيد من أيام الاسلام .

* فى رمضان سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م كانت إحدى معارك الاسلام الكبرى " عين جالوت " بفلسطين بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف سيف الدين قطز ، وجحافل المغول بقيادة كتبغا ، وكان هذا اليوم من أعظم أيام

دولة سلاطين المماليك فى مصر ، والذى قضى على خطر المغول فى المشرق الاسلامى وعادت الوحدة بين مصر وبلاد الشام .

* فى رمضان سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٨م فتح السلطان المملوكى الظاهر بيبرس إمارة انطاكية الصليبية التى أقامها "بوهيموند" خلال الحملة الصليبية الأولى . وكان فتح انطاكية أعظم الفتوحات الاسلامية منذ أيام حطين ١١٨٧م وايذاناً بانهيار بقايا الدولة الصليبية فى الشام .

* فى الحادى والعشرين من رمضان سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م افتتح السلطان الناصر محمد بن قلاوون جامع الأمير سيف الدين قوصون ، وكان الخطيب قاضى القضاء جلال الدين القزوينى .. وفى شهر رمضان سنة ٧٣٦هـ /١٣٣٦م وضع حجر الأساس لجامع الأمير بشتاك الناصرى ..

* وفى السادس عشر من رمضان ٧٤٧هـ / ١٣٤٧م بدأ تشييد جامع آق سنقر الناصرى ..

* وفى رمضان سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م افتتح جامع الأمير شيخو العمرى ..

* وفى يوم الجمعة العاشر من رمضان سنة ٧٨٨هـ /١٣٨٦م افتتح جامع السلطان الظاهر برقوق ، بحضور قاضى القضاه وتقررت فيه دروس الفقه على المذاهب الأربعة ، وعلوم التفسير والحديث والقراءات ..

* وفى رمضان سنة ٨٢٠هـ /١٤١٧م اكتمل بناء مسجد السلطان المؤيد شيخ ، ومنارتيه تعلوان باب زويله ، وكتب عنه العلامة المقريزى :" هو الجامع الجامع لمحاسن البنيان ، الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه ، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس و ايوان كسرى وقصر غمدان "! .. وقال عنه السلطان سليم الأول عندما زاره :" هذه عمارة الملوك "! ..

* وفى رمضان سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م افتتح جامعة ومدرسة الأمير قجماس الاسحاقى " وكان محباً للعلماء والصالحين " وكتب العالم الأثرى د.حسن عبد الوهاب عن هذا الجامع :" انه من طرائف العمارة الاسلامية"!

* فى رمضان سنة ٩٢٢هـ /١٥١٦م اعتلى طومان باى عرش السلطنة المملوكية بتأييد من جموع الشعب المصرى ، بعد مقتل السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق ، وقاد السلطان طومان باى - ومناقبه وخصاله

حفظها التاريخ - بنفسه المقاومة الشعبية ضد العثمانيين فى شوارع القاهرة وحواريها ،حتى القى القبض عليه ورفض أن يحكم مصر نائباً عن السلطان العثمانى ، فتم شنقه على باب زويله لتنتهى دولة سلاطين المماليك ويبدأ عصر الدولة العثمانية فى يوم فارق من أيام التاريخ .

* فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م تمكنت القوات المصرية والسورية من تحقيق أول انتصار عسكرى على " جيش إسرائيل الذى لا يقهر "!.. بدعم من بعض الحكام العرب المخلصين وعلى رأسهم الراحل العظيم الملك فيصل- رحمه الله - وعبور الحاجز المائى ومعركة الدبابات الشهيرة وقبلهما عنصر المفاجأه : تُدرس فى الاكاديميات العسكرية العالمية .

.. هذه الوقائع تشهد بما كان يصاحب هذا الشهر الكريم من عظائم الأمور وجليل الأعمال .. قبل أن يتحول فى زماننا إلى فانوس أثرى وسبحة معطلة وسهرات أمام التلفاز!!